سير الشهداء

دروس وعبر

تأليف
عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وقل رب زدني علما﴾

١

سِيَرُ الشُّهَدَاءِ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار الوطن للنشر الرياض - المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس: ٤٧٦٤٦٥٩ - ص.ب: ٣٣١٠٠ - الرمز البريدي: ١١٤٧١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، الذي له مُلك السمٰوات والأرض، ولم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه وأفضل رسله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن أحسن الناس، وأفضلهم منزلة عند الله ـ تعالى ـ في هذه الحياة، هم الذين يتأملون في الأعمال الصالحات، والصفات الطيبات، فيسلكون ما يستطيعون منها، مضحين، مخلصين، صابرين، ممتثلين الأمر الربانيَّ بقوله ـ جل شأنه ـ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1]، وقوله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[2].

وإن المسلم حقًا لا يشك أبدًا في أن الشهادة في سبيل الله تعالى، وإراقة الدم تحت راية التوحيد من أعظم الأعمال، وأحسنها عند الله تعالى، الذي يقول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[3].

نعم، إن السعادة كل السعادة، والفخر كل الفخر لكل مؤمن يخر شهيدًا في سبيل الله، مبتغيًا بذلك رحمة الله تعالى ورضاه، وحسبك هاهنا أن الله ـ عز

(١) البقرة (١٤٨).
(٢) آل عمران (١٣٣).
(٣) البقرة (١٥٤).

وجل ـ سمى الشهداء في سبيله أحياء، وعندئذ لا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء، ولا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم، ولا يتعاظمها الأمر، ولا يهولنها أعظم الفداء[١].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة عن مسروق قال: سألنا عبد الله (يعني ابن مسعود) ـ رضي الله عنه ـ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٢]، قال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال: «**أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يارب، نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا**».

إخوتي الكرام:

ولقد تاقت النفس هاهنا إلى بث كلماتٍ إلى المسلمين جميعًا، يُذكرُ فيها عدد من الشهداء في سبيل الله عز وجل، الذين قضوا نحبهم مدافعين عن كلمة الحق، صامدين أمام الأهوال والشدائد، لا لشيء دنيوي حقير، ولا لحظٍ من حظوظ النفس التافهة المُرائية، بل لينالوا رحمة الله، وجنة الله، ورضا الله.

نرى من خلال استعراض بطولتهم العالية، ونفوسهم المؤمنة المجاهدة نرى الهول الذي احتملوا، والنصر الذي أحرزوا، ولِنرى كيف تكون الدنيا

(١) الظلال.
(٢) آل عمران (١٦٩).

وشهواتُها وزينتُها أمام أولئك الصادقين، عندما سطّروا بدمائهم الزكية تاريخًا لن يُنسى مهما طال الزمان، غير آبهين بكل ما في الدنيا من متاع رخيص، ونعيم زائل، مؤثرين ما عند الله تعالى ـ من النعيم المقيم، والسعادة الدائمة.

ولربما يسأل سائل عن الغرض من تقديم هذه النماذج لشهداء الحق، وأنصار المِلة، فيقال له: الغرض من تقديم هذه النماذج عدة أسباب:

أولاً: أن الشهداء هم من أعظم الناس منزلة عند الله تعالى، كما قرر ذلك الله ـ عز وجل ـ في القرآن، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾[1].

وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[2]، فنوه الله ـ تعالى ـ في الآية بذكر الشهداء.

وثبت في مسند الإمام أحمد، والبزار من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للشهيد عند الله ـ عز وجل ـ ستَّ خصال؛ أن يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلّى حُلة الإيمان، ويُزوج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفع في سبعين**

(١) آل عمران (١٦٩ ـ ١٧١).
(٢) النساء (٦٩، ٧٠).

إنسانًا من أقاربه».

والحديث كذلك رواه الإمام الطبراني، إلا أنه قال: سبع خصال. قال الهيثمي: ورجال أحمد والطبراني ثقات.

ثانيًا: تذكير المجاهدين المسلمين في زماننا هذا بالمجاهدين الأوائل المؤمنين، وحثهم على المُضي في هذا الطريق، والصبر عليه، لينالوا الأجر الذي ناله أولٰئك.

ثالثًا: إعلام الناس جميعًا بما حققه أسلافهم الصادقون، وحثُّ الخطىٰ على سلوك الطريق نفسه، وتركِ حياة العبث، والاشتغالِ بسفاسف الأمور.

رابعًا: تقديم الدروس والعبر المستفادة من قصص أولٰئك الشهداء من المؤمنين، وكشفُ الستار عن صدقهم في الزهد بالدنيا، والتطلع إلى الدار الآخرة، ونيل ما عند الله ـ تبارك وتعالى ـ من النعيم الذي لا يحول ولا يزول.

خامسًا: الرد على أعداء الشريعة، ومحاربي المِلة من مستشرقين وغيرهم ممن يتهمون تاريخ الإسلام بأنه تاريخ يحكي التسلط والعنجهية، واستحلال أموال الناس، والاعتداء عليهم، وانتهاك حقوقهم، وسلبَ ممتلكاتهم، واستحلالَ أعراضِ نسائهم، فيُبين لمن يخدع بأفكار هؤلاء الحاقدين، أنهم إنما يريدون من وراء ذلك أن يُطفِئوا لمعانَ تاريخ الإسلام، ويَذْهبوا بروعته وبهائه، فلا يعود سببًا من أسباب الاعتزاز، بل يصبح ـ إن أمكن ـ سببًا من سباب النفور، ودواعي الانسلاخ[1].

ويبين لهؤلاء كذلك أن أنصار الحق وشهداء الملة لو كانوا يريدون الدنيا لما قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ـ تعالى ـ حتى إن الواحد منهم ليحزن

(١) انظر: «فقه التاريخ» للمؤلف ص١٢٠.

أشد الحزن إذا خرج من المعركة دون أن تسقط نفسُه في أتونها، وبين غبارها، مضرجًا بالدماء!

وعسى الله ـ عز وجل ـ أن يجعل هذه الكلمات المسطرة عن حياة الشهداء ما يقود خُطىٰ المسلمين في كل مكان إلى اقتفاء سيرهم، والسير على منهجهم، وسؤال الله ـ تعالى ـ شهادة في سبيله، تحت راية دينه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله ـ تعالى ـ أعلم، وصلى الله وبارك على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

ص. ب ١٧٩٩٩

الرمز البريدي ١١٤٩٤

***

السحرة الشهداء

إن الإذعان إلى الحق، والتسليم له إذا بان طريقه، واتّضحت معالمه من أجلِّ الصفات، وأحسن الأخلاق، وعلامة كبرى على صفاء القلوب، وتجردها من اتباع الهوى، واللهث وراء كل ناعق بالخراب والفسق والتدمير.

وتلك هي الصفة النبيلة، والخصلة العظيمة التي اتصف بها سحرة فرعون لما بان لهم أن الحق مع موسى، وأن مؤيده وناصره هو الله رب العالمين، الذي لا يستطيع أحد الوقوف ضده مهما كان عنده من وسائل القوة والسيطرة، إذ هو سبحانه القوي الذي لا يُغلب، والعزيز الذي لا يُقهر، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[1].

والعجيب في الأمر، الذي يبعث الهمم، ويجعل الطغيان عاجزًا عن الوقوف أمام الإيمان، وأمام الوعي والاطمئنان، العجيب في الأمر هو صمودهم بعد إيمانهم رغم التهديد والتوعد بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، وبالصلب، وذلك ما قرره الله ـ جل وعلا ـ في سورة الأعراف، وطه، والشعراء. قال سبحانه في الأعراف:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ

(١) المجادلة (٢١).

تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وفي سورة طه يقول سبحانه: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾[2].

وفي سورة الشعراء يقول سبحانه: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ

(١) الأعراف (١١٧ ـ ١٢٦).
(٢) طه (٦٥ ـ ٧٦).

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

ولنا أن نتأمل القصة التي دارت بين سحرة فرعون وموسى ـ عليه السلام ـ لنستلهم منها الدروس والعبر، ولنعلم كيف ينتصر الحق على الباطل رغم قوته وسطوته وجبروته.

يقدم السحرة، فيُخيرون موسى ـ عليه السلام ـ بقولهم: إما أن تُلقي وإما أن نكون نحن الملقين، فيقول لهم ـ وهو العبد الواثق بالله تعالى وبنصره ـ: (ألقـــوا)، ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾﴾.

وهكذا بدأ الباطل، يسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، فما هي إلا لحظات، وإذا بالحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور، وإذا بالباطل ذليل صاغر منكمش بعد الزهو الذي كان يبهر العيون: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

وهكذا نجد من السحرة قلوبًا تنتفض للحق، نجد ارتعاش الوجدان، وإشراق الأرواح، للحق الذي عرفوه، والنور الذي أبصروه، نجد إيمانًا

(١) الشعراء (٣٨ ـ ٥١).

يترقرق من الأغوار، ونورًا ينبعث من شعاب اليقين.

نعم، إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين[١].

وإنه على الرغم من ذلك التعذيب والتشويه والتنكيل، الذي توعد به فرعون المؤمنين من سحرته إلا أنهم آمنوا الإيمان الذي لا يمكن معه الرجوع إلى الكفر مهما عذبوا، وقتلوا، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة، أن سحرة فرعون كانوا تسعمائة، فقالوا لفرعون: إن يكونا هذان ساحرين فإنا نغلبهم، فإنه لا أسحرَ منا، فلما كان من أمرهم أن خروا سجدًا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون، فعندها قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[٢].

وقد روي عن عدد من السلف أن فرعون حقق ما توعد به من العذاب والصلب، فأخرج الطبري بإسناده عن السدي: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، فقتلهم وصلبهم، كما قال عبد الله بن عباس، حين قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ قال: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء. ورُوي نحو ذلك عن عبيد بن عمير، وقتادة، ومجاهد.

(١) الظلال (٣/ ١٣٥٠).
(٢) الدر المنثور (٤/ ٥٤٢).

وقال ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن» عند قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾: «هذا يدل على أن الصلب وقطع اليد والرجل من خلاف كانت عقوبة متأصلة عند الخلق، تلقفوها من شرعٍ متقدم..»[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسيره: «والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله ـ تعالى ـ ثبَّتهم على الإيمان»[٢].

وهكذا نرى الباطل يقف عاجزًا أمام الحق، وأمام الوعي، يقف عاجزًا أمام القلوب التي خُيل إليه أنه يملك السيطرة عليها، كما يملك السيطرة على الرقاب!

نعم، إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية، بانتصار العقيدة على الخرافة، وانتصار العزيمة على الألم، وانتصار المؤمنين على الشياطين.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس الباطل واضمحلاله، فهذه القلة التي كانت منذ لحظةٍ تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتُمنَّى بالقرب من السلطان، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتستهين بالتهديد والوعيد، وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب[٣]، فواعجبًا، سحرةٌ في أول النهار، شهداءُ في آخره، وصدق الله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) «أحكام القرآن» (٢/ ٧٨٩).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٣/ ٧٧).
(٣) الظلال (٣/ ١٣٥٢).

يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾[1].

وقصة هؤلاء المؤمنين لا تخلو من الدروس والعبر، وهو ما سيأتي الحديث عنه في السطور التالية ـ إن شاء الله تعالى ـ.

* * *

(١) آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١).

دروس وعبر

١ ـ في اختيار موسى أن يُلقوا ـ أعني السحرة ـ قبل أن يلقي، حكمة إلٰهية تزيد المعجزة ظهورًا، وإبلاغًا في إقامة الحجة عليهم، وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشبهة للذي يثق بأنه سيدفعها[١].

٢ ـ من صفات المؤمن الحق إذا بان له الحق والصدق في أي أمر، أن يسلكه ويتبعه مهما واجه في سبيل ذلك من المشاق والمصاعب، وذلك هو الذي نستفيده من قصة سحرة فرعون، فإنهم لما بان الحق الذي مع موسى ـ عليه السلام ـ وانكشف لهم أنهم على الباطل سارعوا إلى الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ دون أن يستئذنوا فرعون في ذلك، وما سلكه فرعون من قيله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنما هو وسيلة الجاهل الغبي المطموس، وهو في الوقت نفسه مسلك المتعجرف المتكبر المغرور.

٣ ـ أن الإيمان عندما يلامس شغاف القلوب، ويتغلغل في النفس، ويستقر في الأعماق لا يضره بعد ذلك أي أذىً، حتى لو كان ذلك بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وبالصلب بعد القتل، وذلك هو الذي حصل من السحرة لما آمنوا بالله ـ تعالى ـ واطمأنوا إلى أنهم هم الغالبون؛ لأن الله ـ تعالى ـ معهم، ولذلك لم يأبهوا بتهديد فرعون ووعيده، وراحوا يقولون: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

وهكذا نجد أن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلي

(١) «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر ابن عاشور (٩/ ٤٨).

على قوة الأرض، وتستهين ببأس العدو الماكر، وتحتقر الفناء الزائل؛ لأنها ترجو الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ، وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض، وماذا ستدفع، ماذا ستخسر، وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق.

نعم، إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع ولا يخنع، الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه سبحانه، فيطمئن إلى جواره، وذلك كله ما يدعو كل مؤمن يواجه العنت والتضييق من كل ماكر، أن يسلك ما سلكه هؤلاء المؤمنون، ويثق بموعود الله ـ تعالى ـ له، أنه إن صبر وثبت أمام الباطل فإنه موعود بجنة الله، ورحمة الله، وجوار الله، وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٤ ـ الحث على اللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام به خاصة عند وقوع الفتن، ونزول البلاء، ذلك أنه لما واجه سحرة فرعون فرعون بذلك الموقف العظيم من الإيمان بالله عز وجل، والتصديق بموسى عليه السلام، غضب فرعون غضبًا شديدًا، وأصابه الذهول، وهزته الحادثة هزًا عنيفًا؛ إذ لم يكن يخطر في باله أن أولئك السحرة أصحاب السحر العظيم، سيئول بهم الأمر إلى الإيمان والتصديق بالله رب العالمين، فكان الذي كان من تهديده ووعيده بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، وبالصلب.

ووقع السحرة تجاه ذلك في كرب وشدة وبلاء عظيم، وعلموا أنه لا نجاة لهم إلا بالتوجه إلى الله تعالى بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فهم إذًا يسألون الله تعالى الصبر على هذا البلاء العظيم حتى لا

يُفتنوا، وحتى لا يرتدوا، وحتى لا يستسلموا البشر متكبر مغرور!

وهم كذلك يسألونه سبحانه أن يتوفاهم مسلمين، إيذانًا بأنهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بكيد فرعون، وأن همَّهم الوحيد النجاة في الآخرة، والفوز بما عند الله تعالى[١].

٥ ـ أن التوكل على الله تعالى والتسليم لقضائه منهج المؤمنين في كل مكان وزمان، والسحرةُ من قوم فرعون، الذين كانوا سحرة في أول النهار، شهداء بررة في آخره، نهجوا هذا المنهج العظيم في التعامل مع الله عز وجل، يقول الإمام أبو حيان في بحره عن قوله سبحانه عن سحرة فرعون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾: «هذا تسليم واتكال على الله تعالى، وثقة بما عنده.

والمعنى: إنا نرجع إلى ثواب ربنا يوم الجزاء على ما نلقاه من الشدائد، أو إنا ننقلب إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك، ومن لقائك، أو إنا ميتون منقلبون إلى الله تعالى، فلا نبالي بالموت؛ إذ لا تقدر أن تفعل بنا إلا ما لابد لنا منه، فالانقلاب الأول يكون المراد به يوم الجزاء، وهذان الانقلابان المراد بهما في الدنيا»[٢].

٦ ـ الحذر من شُبَه المبطلين، ودسائس المخادعين التي يلقونها ليصرفوا الناس على الحق، بعد العجز عن مواجهة الحق والنور والعدل، ذلك أن فرعون لما رأى هزيمة السحرة، وانتصار الحق الذي مع موسى عليه السلام، فأسقط في يده، أثار في ذلك شبهتين ذكرهما الله عز وجل في قوله عن فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾، فالشبهة الأولى: أن

(١) «التحرير والتنوير» (٩/ ٤٨).
(٢) «البحر المحيط» (٥/ ١٤١، ١٤٢).

فرعون زعم أن إيمان هؤلاء السحرة بموسى عليه السلام ليس لقوة الدليل، بل لأجل أنهم تواطئوا مع موسى أنه إذا كان كذا وكذا فنحن نؤمن بك، ونقر بنبوتك، فهذا الإيمان إنما حصل بهذا الطريق.

والشبهة الثانية: أن غرض موسى والسحرة فيما تواطئوا عليه إخراجُ القوم من المدينة، وإبطالُ ملكهم، ومعلوم عند جميع العقلاء أن مفارقة الوطن والنعمة المألوفة من أصعب الأمور، فجمع عدو الله فرعونُ بين الشبهتين اللتين لا يوجد أقوى منهما في هذا الباب[١].

وما سلك فرعون هذه السبيل من سبل التضليل والخداع إلا لتفضيله الكفر على الإيمان، وفزعه على عرشه المهدد، وسلطانه المهزوز، وإن من كان له لب ليعلم أن هذا الذي قاله فرعون من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله تعالى، وأظهر المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو، والملأُ من قومه، وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعطاء الجزيل.

ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك، والتقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدًا منهم، ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعونُ يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[٢]، فإن قومًا صدقوه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[٣] من أجهل خلق الله وأضلهم.

(١) «مفاتيح الغيب» (١٤/ ٢١٦، ٢١٧).
(٢) الزخرف (٥٤).
(٣) النازعات (٢٤).

وقال السديُّ في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: التقى موسى عليه السلام وأميرَ السحرة، فقال له موسى: أرأيتَك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئتُ به حق، قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلِبُهُ سحر، والله لئن غلبتني لأومنن بك، ولأشهد أنك حق، وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال»[1].

٧ ـ أنه لا مكانة أبدًا للباطل مع الحق، والكفر مع الإيمان؛ إذ النصر كائن للحق والإيمان، مهما علا الباطل، واستطال الكفر، وذلك هو الذي نستفيده من قصة سحرة فرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ فإنه على الرغم من وجود القوة والسيطرة مع فرعون، ورغم معرفة السحرة بالسحر، وإتقانهم له، ووجود المشجع والمعين، مع ذلك كله هُزموا وانقلبوا صاغرين؛ لأنهم كانوا على الباطل، وانتصر موسى ـ عليه السلام ـ لأنه على الحق والهدى، ثم انضم له السحرة لعلمهم بالحق الذي معه، وتحققهم منه، وصمموا على البقاء عليه رغم التهديد والوعيد لعلمهم كذلك أن النصر للإيمان، والمستقبل للمتبعين لله ولرسوله، ولو واجهوا في ذلك العذاب والألم.

وهذا هو الذي ينبغي أن تعيه قلوبنا، وتتفطن له أذهاننا، خاصة في هذا العصر الذي تجمعت فيه قوى الكفر والإلحاد على المسلمين في كل مكان، لابد أن نوقظ النائمين وننبه الغافلين على حقيقة المعركة بين الحق والباطل، وأن طاعة الله تعالى والصبر على مشاق المعركة وآلامها سبب للانتصار الكبير في النهاية:

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

فاللهم يا رحمٰن، مكِّن للمؤمنين المستضعفين في كل مكان، وانصر الحق وأهله، واخذُل الباطل وحزبه، ومُنَّ علينا بأسباب التمكين والنصر، واصْرف عنا أسباب الخذلان والهزيمة، إنك على كل شيء قدير.

* * *

☆ فائدة:

قد ذكر الله عز وجل عن السحرة أولاً أنهم صاروا ساجدين، ثم ذكر بعده أنهم قالوا: آمنا برب العالمين، فما الفائدة فيه، مع أن الإيمان يجب أن يكون متقدمًا على السجود؟

أجاب الرازي في تفسيره على ذلك فقال: «إنهم لما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله تعالى في الحال، وجعلوا ذلك السجود شكرًا لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان، وعلامة أيضًا على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان، وإظهار الخضوع والتذلل لله تعالى، فكأنهم جعلوا ذلك السجود علامة على هذه الأمور الثلاثة على سبيل الجمع.

وقيل: لا يبعد أنهم عند الذهاب إلى السجود قالوا: آمنا برب العالمين، وعلى هذا التقدير، فالسؤال زائل والوجه الصحيح هو الأول»[2].

* * *

(١) النور (٥٥).

(٢) «مفاتيح الغيب» (١٤/ ٢١٥).

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إن الدفاع عن العقيدة الصحيحة والمنهج الحق مطلب كل مؤمن، ومقصد كل مصدق بالله تعالى ورسُله. والدعوة إلى الحق والهدى بعد معرفته وتبيّنه صفة المسلم الصادق، يفعل ذلك ويؤديه حسب قدرته، دافعًا لذلك كل وقته، ومستمرًا عليه حتى لو أدى به ذلك إلى القتل وإزهاق الروح؛ لأنه يعلم أنه لن يموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلاً، وتلك هي صفة مؤمن آل ياسين الذي تحدث الله تعالى عنه وعن قومه، ضمن آيات من سورة يَس، يقول فيها سبحانه:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ

خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١].

فقد أخبر سبحانه في هذه الآيات أنه أرسل إلى أهل مدينة اثنين من الرسل يدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فبادروهما بالتكذيب، فعززهما الله تعالى وقواهما برسول ثالث، فقالوا لأهل تلك القرية: إنا إليكم مرسلون من ربكم الذي خلقكم، يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، فقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا، وكيف أوحى إليكم وأنتم بشر، ونحن بشر، فلِمَ لا يوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة. وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٣].

وعندما قال أولئك المكذبون ما قالوا من التكذيب قالت لهم رسلهم: إنا رسل الله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كما قال جل شأنه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[٤].

وتمادى أهل القرية في طغيانهم، وراحوا يتطيرون بهؤلاء المرسلين، ويقولون كما قال قتادة: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، وإنكم إذا لم تنتهوا فسوف نرجمكم بالحجارة، وسيصيبكم منا عقوبة شديدة، فقالت لهم

(١) يس (١٣ ـ ٢٩).
(٢) التغابن (٦).
(٣) المؤمنون (٣٤).
(٤) العنكبوت (٥٢).

رسلهم: إن طائركم معكم، مردود عليكم، وأنتم ما قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا إلا من أجل أنا ذكَّرناكم وأمرناكم بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، بل أنتم قوم مسرفون، لتطيركم وكفركم وفسادكم[١].

ولأن تلك الساحة لم تخلُ ممن عمر الإيمانُ قلوبَهم، وتعمقت الدعوة في أجوافهم، وقلقل المنكر كل ذرة في أبدانهم، فقد قيَّض الله تعالى لهؤلاء الرسل من يدافع عنهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعىٰ لينصرهم من قومه، قيل: إن اسمه حبيب النجار، وكان رجلاً سقيمًا قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، مستقيم الفطرة، وقيل: كان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره، فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله تعالى، فقال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس.

فحينئذٍ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفًا، وتصدق بنصف، فلما همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم، فوعظهم أحسن ما تكون الموعظة، وذكرهم بحق الله تعالى من العبادة والتعظيم، فقتلوه.

واختلف المفسرون في كيفية قتله؛ فقال بعضهم: وطئوه بأرجلهم، وقيل: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي، حتى قتلوه، وقيل: حفروا له حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب، فمات ردمًا. وقيل: حرقوه حرقًا، وعلقوه من سور المدينة. وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من

(١) تفسير ابن كثير.

بين رجليه، فما خرجت روحه إلا إلى الجنة، فدخلها، فذلك قوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، فلما شاهدها قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ قال الإمام القرطبي: «قلت: والظاهر من الآية أنه لما قُتل قيل له: ادخل الجنة، قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق، أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾[1]».

وإذا تأمل العبد المسلم هذه الحادثة المؤثرة استنبط منها الدروس والعبر، ومن ذلك:

١ ـ الحث على سرعة الاستجابة للحق، متى ما ظهرت علامته واتضحت دواعيه، ثم الدعوة إليه دون بطء أو تكاسل، فإن هذا المؤمن الشهيد «حينما استشعر حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يطق عليها سكوتًا، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله، والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره، وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون، وجاء من أقصىٰ المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين»[2]. ونجد في الآيات الكريمة وصفًا لهذا المؤمن الشهيد بالسعي، وهذا كما يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير: «يفيد أنه جاء مسرعًا، وأنه بلغه هَمّ أهل القرية برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحهم خشية عليهم وعلى الرسل، وهذا ثناء على هذا الرجل، يفيد أنه ممن يُقتدى به في الإسراع

(١) آل عمران (١٦٩).
(٢) الظلال.

إلى تغيير المنكر»[١].

٢ ـ ومن الدروس والعبر كذلك هنا: أن من أسباب قبول دعوة الداعين إلى الحق عدم طلبهم أجرًا دنيويًا أو كسبًا ماديًا، ولذا قال هذا المؤمن لقومه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ وقد قُدم عدم سؤال الأجر على الاهتداء؛ «لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين، وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنهم يجرون لأنفسهم نفعًا من ذلك؛ لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال، وصاروا بُعداء عن إدراك المقاصد السامية كانوا يَعُدون كل سعي يلوح على امرىء إنما يسعى به إلى نفعه. فقُدم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة..»[٢].

«والأجر يصدق بكل نفع دنيوي يحصل لأحد من عمله، فيشمل المال والجاه والرئاسة، فلما نفى عنهم أن يسألوا أجرًا فقد نفى عنهم أن يكونوا يرمون من دعوتهم إلى نفع دنيوي يحصل لهم»[٣].

٣ ـ ومن الدروس والعبر في قصة المؤمن الشهيد، مؤمن آل ياسين: الحث على استخدام أسلوب الإقناع في الجانب الدعوي. فقد كان من ضمن نصح حبيب لقومه أنه قال لهم: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ حيث «أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفًا لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقه، وقد جبل الله ـ تعالى ـ العقول والفطر على شكر المنعم، ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر

(١) تفسير التحرير والتنوير.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

والشرائع»[١].

ونجد في مخاطبة هذا المؤمن لقومه: «أنه احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره، وأنها أقبح شيء في العقل وأنكرُه، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة»[٢].

٤ ـ الاستمرار في الدعوة إلى الهدى والحق مهما وقف في سبيل منعها الطغاة والمفسدون، ما دام الداعية يعلم أنه لا يدعو إلى إلى الخير والهدى، وما دام يعلم أن في استمرار الدعوة صلاح الناس واستقامتهم، وأن في تركها فسادهم وغفلتهم، فيستمر في ذلك ولو عُذِّب وأهين، بل حتى لو أزهقت نفسه، وقُتل، كما هو حال مؤمن آل ياسين، وذلك سبيل الأنبياء والمرسلين، ومن نهج نهجهم من العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين إلى يوم الدين.

٥ ـ ومن الدروس والعبر كذلك الحث على تطهير القلب من الحقد والحسد، وكل أمر قبيح، أرأيت قول هذا المؤمن لما قتله قومه، وأدخل الجنة: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور: «والمعنى: أنه لم يلهه دخوله الجنة عن حال قومه، فتمنى أن يعلموا ماذا لقي من ربه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا، وما تمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم، فكان متسمًا بكظم الغيظ، وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجه فيه النفس إلا إلى الصلاح المحض، ولا قيمة للحظوظ

(١) بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم، جمع: يسري السيد.
(٢) المرجع السابق.

الدنية، وسفاسف الأمور»[١].

وقال الإمام القرطبي: «وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم على أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام؟»[٢].

٦ ـ بيان عاقبة كل معاند ومفسد، وكل واقف في وجه الدعوات الربانية الهادية، فإنه لما قُتل حبيب غضب الله له، وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة، فماتوا عن آخرهم، قال سبحانه: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وهذه عاقبة كل محارب لله ولرسوله وللمؤمنين، أن يأخذه الله كما أخذ السابقين، كما حكى جل وعلا عن أهل الكتاب أنه ضرب الذلة عليهم، وغضب عليهم، وعلل ذلك بأنهم كانوا يكفرون بكل دعوة صالحة تأتيهم، ويقتلون الأنبياء بغير حق: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٣].

ولما عاند قوم نوح نوحًا وعصوه وتمردوا عليه قال سبحانه في شأنهم: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى

(١) التحرير والتنوير.
(٢) الجامع لأحكام القرآن.
(٣) آل عمران (١١٢).

﴿ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

نعم، إن قصة قتل مؤمن آل ياسين ينبغي أن يعتبر بها الناس جميعًا، ويوقنوا أن في اتباع المصلحين الفلاح والنجاة، وأن في مخالفتهم الهلاك والبوار والعطب، فاللهم يا رحمٰن، ارزقنا الاهتداء بهدي المرسلين، وأعذنا من صفات الكافرين والمكذبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

(١) هود (٤٤).

شهيد المحراب

أيها الإخوة الكرام:

نقف الآن لنتحدث عن شهيد من شهداء الإسلام الكبار، وعَلَمٍ من أعلامه البارزين، وقائدٍ من أعظم القواد، كان شديدًا على المعاندين المبطلين، سهلاً لينًا مع الضعفاء والمظلومين.

إنه شهيد الإسلام، شهيد الحق والعدل، شهيدٌ ارتجت لموته قلوب المؤمنينَ حزنًا وبكاءً، شهيدٌ ملأ الأرض عدلاً وفتحًا وانتصارًا، شهيد تتشوق أرواح المؤمنين لسماع سيرته، وقصة استشهاده، حبًا له وتعظيمًا وتوقيرًا.

إنه أول من دُعي أمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ، وجمع الناس على التراويح، وأول من عسَّ بالمدينة، وحَمل الدِّرة، وأدّب بها، وجلد في الخمر ثمانين، وفتح الفتوح، ومصّر الأمصار، وجنّد الأجناد، ووضع الخراج، ودوّن الدواوين.

إنه الرجل الذي يقول فيه النبي ﷺ ـ كما في سنن الترمذي بسند حسن ـ: «**إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه**». ويقول عنه ـ كما في الصحيحين ـ: «**إيهٍ يابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك**».

نعم، إنه الذي يقول فيه رسول البشرية، وهادي الإنسانية ﷺ كما في صحيح مسلم وسنن الترمذي: «**قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فعمر بن الخطاب**».

قال ابن الأثير في جامع الأصول: قال ابن عُيينة: «محدَّثون» أي: مفهَّمون.

والكلمات التالية لم تخصص للحديث عن سيرة عمر، وخصاله، وسجاياه، فإن الحديث عنها طويل طويل، وإنما المقصود هنا الحديث عن قصة استشهاده، وأخذ الدروس والعبر منها.

أخرج البخاري في كتاب الفضائل، والترمذي في المناقب، وأبو داود في كتاب السنة من سننه، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ صعد أُحُدًا، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «**اثبت أُحد ـ** أراه ضربه برجله ـ **فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**».

وفي معجم الطبراني الكبير، عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كان في حائط، فاستأذن أبو بكر، فقال: «**ائذن له وبشِّره بالجنة**»، ثم استأذن عمر فقال: «**ائذن له وبشِّره بالجنة والشهادة**...»الحديث، وفي إسناده: إبراهيم بن عمر بن أبان وهو ضعيف، لكن ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد أن له طرقًا صحيحة، وذلك فيما ورد من الفضل لأبي بكر وعمر وغيرهما.

وأخرج أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح، عن ابن عمر قال: رأى النبيُّ ﷺ على عمر ثوبًا أبيض، فقال: «**أجديد ثوبك أم غسيل؟**» قال: فما أدري ما ردّ عليه، فقال النبي ﷺ: «**البس جديدًا، وعش حميدًا، ومُت شهيدًا**» أظنه قال: «**ويرزقك الله قرةَ عينٍ في الدنيا والآخرة**». زاد الطبراني بعد قوله ﷺ: «**ويرزقك الله قرة عين**» أن عمر قال: «وإياك يا رسول الله». والحديث كذلك رواه ابن ماجةَ، وابن حِبَان، وأبو يعلى، لكن إلى قوله: «**ومُت شهيدًا**».

وتمضي الأيام وعمر رضي الله عنه هو هو في عدله وجهاده وتقواه، حتى إذا حانت ساعة استشهاده نزل بالأبطح لما فرغ من الحج سنة ثلاث وعشرين، ودعا الله عز وجل وشكا إليه أنه قد كَبُرت سنه، وضعفت قوته، وانتشرت رعيته، وخاف من التقصير، وسأل الله تعالى أن يقبضه إليه، وأن يمنَّ عليه بالشهادة.

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، وموتًا في بلد رسولك، فاستجاب له الله هذا الدعاء، وجمع له بين هذين الأمرين، الشهادة في المدينة النبوية، وهذا عزيز جدًا، ولكن الله لطيف بما يشاء ـ تبارك وتعالى ـ. اهـ

إخوتي الكرام:

لقد مضت عشر سنين، عشر سنين، وعمر دائب يعمل بعقله ولسانه ويده، لا ينام من الليل إلا غرارًا؛ لأنه مشغول بأمور المسلمين، ولا يُسيغ طعامًا، ولا ينتقي ثيابًا، ولا يبتغي لذة؛ لأنه يخشى أن يضيِّع أموال المسلمين، عشرُ سنين أتم فيها العمل الكبير الذي بدأ من غار حراء، لقد أصبح التسعة والثلاثون رجلاً، المختفون في دار الأرقم، سادة الحجاز ونجد والجزيرة كلِّها، والشام ومصرَ والعراق والعجم، لقد صارت دارُ الأرقم دولة عظيمة منظمة، فاقت دولة روما، ومملكة فارس.

لقد أنجز المهمة الكبرى، وحُق له أن يستريح أيامًا بعد هذا العناء الطويل، أن ينعم بالحياة، أن يذوق طعم اللذة.

ولقد بدأ يستريح عندما قربت ساعة استشهاده، لقد وقع الزلزال، لقد قُتل

عمر[١].

نعم، لقد دنا الأجل المحتوم، وتحركت يد الغدر والخيانة ميممة الخليفة الراشد، والإمام العادل؛ حيث تقدم أبو لؤلؤة المجوسي الأصل، والرومي الدار، غلام المغيرة بن شعبة رضي الله عنه إلى زاوية من زوايا المسجد النبوي، ينتظر خروج أمير المؤمنين لصلاة الصبح، حيث أضمر قتله، واتخذ خنجرًا ذا رأسين، نصابه في وسطه، وشحذه، وسَمّه، فلما كبَّر عمر لصلاة الصبح تقدم أبو لؤلؤة، فطعنه طعنتين، سقط على إثرها مضرجًا بدمائه الطاهرة، ليُكتب بعد ذلك بطلاً من أعظم الأبطال، وشهيدًا من أكبر الشهداء، وكان مكان الشهادة هو المحراب، المحرابُ الذي طالما سُمع من ناحيته نشيج هذا الإمام وهو يصلي بالناس، يقرأ القرآن ويبكي، فأعقب الله قاتله ومبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة.

أخرج الإمام الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد حسن، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «لما طَعن أبو لؤلؤة عمرَ، طعنه طعنتين، فظن عمر أن له ذنبًا في الناس لا يعلمه، فدعا ابن عباس ـ وكان يحبه ويدنيه ويسمع منه ـ، فقال: أُحب أن نعلم عن ملإٍ من الناس، كان هذا؟ فخرج ابن عباس، فكان لا يمر بملإٍ من الناس إلا وهم يبكون، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين، ما مررت على ملإٍ إلا وهم يبكون، كأنهم فقدوا اليوم أبكار أولادهم، فقال: من قتلني؟ فقال: أبو لؤلؤة المجوسي، عبد المغيرة بن شعبة.

قال ابن عباس: فرأيت البِشر في وجهه، فقال: الحمد لله الذي لم يقتلني أحدٌ يحاجُني، يقول: لا إله إلا الله، أما إني قد كنت نهيتكم أن تجلبوا إلينا من

(١) عن «قصة حياة عمر» للشيخ علي الطنطاوي.

العلوج أحدًا فعصيتموني.

ثم قال: ادعوا لي إخواني، قالوا: ومَن؟ قال: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، فأرسل إليهم، ثم وضع رأسه في حجري، فلما جاؤوا قلتُ: هؤلاء قد حضروا، قال: نعم، نظرتُ في أمر المسلمين، فوجدتكم أيها الستةُ رؤوس الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، ما استقمتم يستقم أمر الناس، وإن يكن اختلاف يكن فيكم، فلما سمعتُه ذكر الاختلاف والشقاق ظننتُ أنه كائن، أنه قلّما قال شيئًا إلا رأيتُه، ثم نزفهُ الدم، فهمسوا بينهم حتى خشيت أن يبايعوا رجلاً منهم، فقلت: إن أمير المؤمنين حيٌّ بعدُ، ولا يكون خليفتان ينظر أحدهما إلى الآخر، فقال: احملوني، فحملناه، فقال: تشاوروا ثلاثًا، ويصلي بالناس صهيب، قالوا: مَنْ نشاور يا أمير المؤمنين؟ قال: شاوروا المهاجرين والأنصار وسَرَاة من هنا من الأجناد.

ثم دعا بشربة من لبن، فشرب، فخرج بياض اللبن من الجرحين، فعرف أنه الموت، فقال: الآن، لو أن ليَ الدُّنيا كلَّها لافتديتُ بها من هول المطلع، وما ذاك والحمد لله أن أكون رأيتُ إلا خيرًا.

فقال ابن عباس: وإن قلت، فجزاك الله خيرًا، أليس قد دعا رسول الله ﷺ أن يعز الله بك الدين والمسلمين؛ إذ يخافون بمكة، فلما أسلمت كان إسلامك عزًا، وظهر بك الإسلام، ورسولُ الله ﷺ وأصحابُه، وهاجرتَ إلى المدينة، فكانت هجرتُك فتحًا. . . ، إلى أن يقول: وأدخل الله بك على كل أهل بيت من توسعتهم في دينهم، وتوسعتهم في أرزاقهم، ثم ختم لك بالشهادة، فهنيئًا لك. فقال: والله إن المغرور من تغرونه!، ثم قال: أتشهد لي يا عبد الله عند الله

يوم القيامة؟ فقال: نعم، فقال: اللهم لك الحمد، ألصق خدِّي بالأرض يا عبد الله ابنَ عمر، فوضعته من فخذي على ساقي، فقال: ألصق خدِّي بالأرض، فتَرك لحيته وخده حتى وقع بالأرض، فقال: ويلَك، وويلَ أمك يا عمر، إن لم يغفر الله لك يا عمر. ثم قُبِضَ رحمه الله.

وبعد ذلك قام ابن عباس رضي الله عنه يقول: رحم الله أبا حفص، كان والله حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحل الإيمان، ومعاذ الضعفاء، ومعقل الحنفاء، للخلق حصنًا، وللناس عونًا، قام بحق الله صابرًا محتسبًا، حتى أظهر الله الدين وفتح الديار، وذُكر الله في الأقطار، والمناهل وعلى القِلال، وفي الضواحي والبقاع، وعند الخنى وقورًا، وفي الشدة والرخاء شكورًا، ولله في كل وقت وأوانٍ ذكورًا، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة.

تلك هي ومضات من قصة مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي حافلة بالدروس والمواعظ والعبر لكل متأمِّل، وهذا أوان الشروع في تفصيلها، والتنقيب عنها.

* * *

دروس وعبر

إن قصة مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مليئة بالدروس والعبر والمواعظ لمن تأمل وتفكر، وهي كفيلة ببعث اليقظة في القلوب، ومحاولة استدراك عصر المسلمين الأول المليء بالتضحيات، المشرق بنور الإيمان الذي سيطر على قلوبهم وأرواحهم، فما عرفوا حياة الكسل والدعة، إنما هي الحياة الجهادية التي غطّت كل أوقاتهم، وما خرج منهم نفس واحد وهم في غير طاعة المولى، فيالها من حياة سعيدة كريمة.

أقول: من تلك الدروس والمواعظ:

١ ـ التنبيه على الحقد الذي انطوت عليه قلوب الكافرين ضد المؤمنين، كما يدلُّ على ذلك قتلُ المجوسي أبي لؤلؤة لعمر رضي الله عنه، وتلك هي طبيعة الكفار في كل زمان ومكان، قلوبٌ لا تضمر للمسلمين إلا الحقد والحسد والبغضاء، ونفوس لا تُكِنُّ للمؤمنين إلا الشر والهلاك والتلف، ولا يتمنون شيئًا أكثر من ردة المسلمين عن دينهم وكفرهم بعد إسلامهم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[٢]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ

(١) آل عمران (١١٩).
(٢) آل عمران (١١٨).

أَنفُسِهِم﴾[١].

وإن الذي ينظر جيدًا في قصة مقتل عمر رضي الله عنه وما فعله المجوسي الحاقد أبو لؤلؤة يستنبط منها أمرين مهمين، يكشفان الحقد الذي أضمره هذا الكافر في قلبه تجاه عمر، وتجاه المسلمين، هما:

أ ـ أنه قد ثبت في الطبقات الكبرى لابن سعد بسندٍ صحيح إلى الزهري[٢]، أن عمر رضي الله عنه قال لهذا المجوسي ذات يوم: ألم أُحدَّث أنك تقول: لو أشاءُ لصنعت رحىٰ تطحن بالريح، فالتفت إليه المجوسي عابسًا، فقال: لأصنعن لك رحىٰ يتحدث الناس بها، فأقبل عمر على من معه، فقال: توعدني العبد.

والأمر الثاني الذي يدل على الحقد الذي امتلأ به صدر هذا المجوسي أنه لما طعن عمرَ رضي الله عنه، طعنَ معه ثلاثة عشر صحابيًا، استُشهد منهم سبعة.

جاء في رواية الإمام البخاري قوله: «فطار العِلجُ بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحدٍ يمينًا ولا شِمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة».

والعِلج: هو الواحد من كفار العجم، والجمع عُلُوج وأعلاج، وهو يعني أبا لؤلؤة.

ولو كان عمر رضي الله عنه ظالمًا له فما ذنب بقية الصحابة الذين اعتدى عليهم؟!، ومعاذ الله تعالى أن يكون عمر ظالمًا له؛ إذ قد ثبت في رواية البخاري أنه لما طُعن رضي الله عنه قال: «يابن عباس، انظر من قتلني، فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة. قال: الصَنَع؟ أي: الصانع، قال: نعم،

(١) البقرة (١٠٩).
(٢) فتح الباري (٧/ ٦٢).

قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام».

٢ ـ العلم بخطر الكفار على المسلمين يدل على ذلك ما فعله هذا المجوسي الحاقد من قتله لهذا الرجل الذي ملأ الأرض عدلاً، ووضع كل واحد في مكانه، ولقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يدرك جيدًا الضرر الكبير من جلب هؤلاء إلى بلاد المسلمين، كما يدل على ذلك ما جاء في رواية ابن سعد من طريق محمد بن سيرين، عن ابن عباس، فقال عمر: «هذا من عمل أصحابك، كنتُ أريدُ ألا يدخلها علج من السبي، فغلبتموني».

وله من طريق أسلم مولى عمر، قال: «قال عمر: من أصابني؟ قالوا: أبو لؤلؤة، واسمه فيروز، قال: قد نهيتكم أن تجلبوا عليها من علوجهم أحدًا، فعصيتموني»[1].

٣ ـ بيان الانكسار والخشية والخوف الذي تميز به عمر ـ رضي الله عنه ـ، كما يدل على ذلك ما تقدم معنا من قوله ـ رضي الله عنه ـ قُبيل مفارقته الدنيا: «ألصِق خدي بالأرض يا عبد الله بن عمر، قال عبد الله: فوضعتُه من فخذي على ساقي، فقال: ألصق خدي بالأرض، فترك لحيته وخدَّه حتى وقع بالأرض، فقال: ويلَك، وويل أمِّك يا عمر، إن لم يغفر اللهُ لك يا عمر».

قال الحسن البصري رحمه الله لما ذُكر له فِعلُ عمرَ هذا وخشيتُه من ربه جل وعلا، قال: «هكذا المؤمن، جمع إحسانًا وشفقة، والمنافق جمع إساءة وغِرة، واللهِ ما وجدتُ فيما مضى ولا فيما بقي عبدًا ازداد إحسانًا مخافة وشفقة منه، ولا وجدتُ فيما مضى ولا فيما بقي عبدًا ازداد إساءة إلا ازداد غِرة».

(١) فتح الباري (٧/ ٦٤).

ودل كذلك على الخوف الذي سيطر على قلب عمر رضي الله عنه قبيل استشهاده قولُه لما عَلِمَ أن الذي طعنه هو المجوسي أبو لؤلؤة: «الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام»!.

فإنه رغم العدل الذي اتصف به عمر رضي الله عنه، والذي اعترف به القاصي والداني، والعربي والعجمي، إلا أنه كان خائفًا أن يكون قد ظلم أحدًا من المسلمين، فانتقم منه بقتله، فيُحاجَّه عند الله تعالى، كما تدل على ذلك رواية ابن شهاب: أن عمر قال: «الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط»، وكما تدل عليه كذلك روايةُ مبارك بن فَضَالة: «يحاجني بقول: لا إله إلا الله».

وهذه عجيبة من عجائب هذا الإمام الرباني، ينبغي أن يتربى عليها الدعاة والمصلحون، وأن يكون الانكسار علامة من أكبر علاماتهم حتى ينفع الله تعالى بهم، كما نفع بأسلافهم كعمر ـ رضي الله عنه ـ، وليكن مقالُ الجميع قول القائل:

واحسرتي، واشقوتي ... مِنْ يوم نشر كتابيه
واطُولَ حزني إن أكن ... أوتيتُه بشِمالِيه
وإذا سُئلتُ عن الخطأ ... ماذا يكون جوابيه؟
واحرَّ قلبي أن يكون ... مع القلوب القاسية
كلا ولا قدّمتُ لي ... عملاً ليوم حسابيه
بل إنني لشقاوتي ... وقساوتي وعذابيه
بارزتُ بالزلات في ... أيام دهرٍ خالية
مَنْ ليس يخفىٰ عنه مِنْ ... قُبح المعاصي خافية[1]

(١) عن «الرقائق» لمحمد أحمد الراشد ص١٢١، ١٢٢.

٤ ـ بيان التواضع الكبير الذي اتصف به عمر رضي الله عنه، وقد دل عليه من قصة استشهاده قوله لابنه عبد الله: «انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أميرُ المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، ويدل عليه كذلك قوله لابنه لما أذنت عائشة بدفنه إلى جنب صاحبيه: «فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلِّمْ، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنتْ لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين»!

فرحم الله عمر ورضي عنه، ورزقنا خُلُقًا من خُلُقه، وتواضعًا من تواضعه، وجزاه خير ما يجزي به الأتقياء المتواضعين، إن ربي قريب مجيب.

٥ ـ أن الأغلب على رؤيا الصالحين الصدق، وأنها تقع[١]، حيث ثبت عند مسلم من طريق مَعْدان بن أبي طلحة أن عمر خطب فقال: «رأيت ديكًا نقرني ثلاث نقرات، ولا أراه إلا حضورَ أجلي»، وفي رواية جُويرية بن قُدامة عن عمر نحوه، وزاد: «فما مر إلا تلك الجمعة حتى طُعن»، وعند ابن سعد من رواية سعيد بن أبي هلال قال: «بلغني أن عمر» ذكر نحوه، وزاد: «فحدَّثَتْها أسماءُ بنت عميس، فحدثَتْني أنه يقتلني رجل من الأعاجم»[٢].

٦ ـ الكشف عن حرص عمر رضي الله عنه على الاجتماع وعدم التفرق، واهتمامه ببذل النصيحة لرعيته حتى في أحلك الظروف، وأقسى لحظات الحياة، ينبىء عن ذلك ما جاء في رواية ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون، أن عمر قال: «ادعوا لي عليًا وعثمان وعبد الرحمن وسعدًا والزبير»، وكان طلحة غائبًا، فلم يكلم أحدًا منهم غير عثمان وعلي، فقال: «يا علي، لعل هؤلاء

(١) انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٣٦٢).
(٢) فتح الباري (٧/ ٦٣).

القوم يعلمون لك حقَّك وقرابتك من رسول الله ﷺ، وصِهرك، وما آتاك الله من الفقه والعلم، فإن وُلِّيتَ هذا الأمر فاتق الله فيه، ثم دعا عثمان، فقال: يا عثمان، فذكر له نحو ذلك».

ووقع في رواية إسرائيل عند ابن إسحاق في قصة عثمان: «فإن ولَّوكَ هذا الأمر فاتق الله فيه، ولا تحملنَّ بني أبي معيط على رقاب الناس»، ثم قال: «ادعُوا لي صهيبًا، فدُعي له، فقال: صلِّ بالناس ثلاثًا، وليَحِلَّ هؤلاء القوم في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل، فمن خالف فاضربوا عنقه»[1].

٧ ـ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سمة من أعظم سمات عمر رضي الله عنه؛ إذ لم يترك هذه الركيزة المتينة في ديننا حتى وهو يواجه الموت بكل آلامه وشدائده، ذلك أن شابًا دخل عليه لما طُعن، فواساه، وقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقَدَمٍ في الإسلام ما قد علمت، ثم وُلِّيت فعدلت، ثم شهادة، قال ـ أي عمر ـ: وِدْت أن ذلك كفاف، لا عليَّ ولا لي.

فلما أدبر إذا إزاره يمَسُّ الأرض، قال: رُدُّوا عليَّ الغلام. قال: يابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك».

وهكذا لم يمنعه ـ رضي الله عنه ـ ما هو فيه من الموت عن الأمر بالمعروف، ولذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه عُمر بن شبة: «يرحم الله عمر، لم يمنعه ما كان فيه من قول الحق»[2].

ومن أدلة أمره ـ رضي الله عنه ـ بالمعروف وهو يواجه الموت ما ذكره ابن

(١) فتح الباري (٧/ ٦٨).
(٢) فتح الباري (٧/ ٦٥).

سعد في الطبقات الكبرى بإسناد صحيح، عن المقدام بن معدي كرب أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنها ـ قالت لعمر بعدما طُعن: «يا صاحب رسول الله ﷺ، يا صهر رسول الله، يا أمير المؤمنين، فقال عمر: لا صبر لي على ما أسمع، أُحَرِّجُ عليك بما لي عليكِ من الحق أن تَنْدُبيني بعد مجلسك هذا، فأما عينُكِ فلن أملكها»[١].

وأخرج ابن سعد كذلك عن أبي بُردة عن أبيه قال: لما طُعن عمر أقبل صُهيب يبكي رافعًا صوته، فقال عمر: أعَلَيَّ؟ قال: نعم، قال عمر: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «**من يُبْكَ عليه يُعذَّب؟**»[٢].

وأخرج كذلك عن محمد بن سيرين قال: أُتي عمر بن الخطاب بشراب حين طُعن فخرج من جراحته، فقال صهيب: واعُمراه، واأخاه، مَنْ لنا بعدك؟ فقال له عمر: مَهْ يا أخي، أما شعرت أنه من يُعْوَلُ عليه يُعذَّب؟[٣].

٨ ـ شدة عمر رضي الله عنه في الحق حتى بعد طعنه وسيلان الدم منه، يدل على ذلك أنه لما قال له رجل: استخلِف عبد الله بن عمر، قال: واللهِ ما أردتَ الله بهذا. هذه رواية الإمام الطبري. وأخرج ابن سعد بسند صحيح[٤] من مرسل إبراهيم النخعي نحوه، قال: فقال عمر: قاتلك الله، واللهِ ما أردتَ الله بهذا، أستخلِفُ من لم يحسن أن يطلق امرأته؟!.

٩ ـ أن الإيثار مَيْزة عظيمة اتصف بها أصحاب محمد ﷺ، كما قرر ذلك الله عز وجل في كتابه، حيث قال عنهم: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

(١) فتح الباري (٧/ ٦٧)، والطبقات الكبرى (٣/ ٢٧٥).
(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٧٦).
(٣) المرجع السابق.
(٤) فتح الباري (٧/ ٦٧).

خَصَاصَةٌ﴾[١].

ولقد بلغ إليه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بما لم تشهد له البشرية له نظيرًا، وكانوا كذلك في كل مرة، وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديمًا وحديثًا[٢].

ومما يُنبىء عن ذلك الإيثار من قصة مقتل عمر ـ رضي الله عنه ـ أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت تتمنى أن تُدفن بجوار زوجها ﷺ، وأبيها أبي بكر، فلما استأذنها عمر لذلك أذنت وآثرتُه على نفسها.

جاء في رواية الإمام البخاري أن عمر قال لابنه عبد الله: «انطلِق إلى عائشة أمِّ المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أميرُ المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بنُ الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت ـ وهو الشاهد ـ: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي»!.

وهذه منقبة من مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ إذ الإيثار صفة نادرة قلَّ من يتصف بها إلا الكرام المتقون.

١٠ ـ جواز الثناء على الرجل بما فيه إذا لم تُخش عليه الفتنة كما هو الحال هنا مع عمر ـ رضي الله عنه ـ؛ إذ أُثني عليه من قِبَل بعض الصحابة لأنهم كانوا يعلمون أن الثناء عليه لا يفتنه، قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو العالِم الرباني والفقيه الكبير ـ: أليس قد دعا رسول الله ﷺ أن يعز بك الدين والمسلمين؛ إذ يخافون بمكة، فلما أسلمتَ كان إسلامك عزًا، وظهر بك

(١) الحشر (٩).

(٢) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٥٢٦).

الإسلام. . . ، وأدخل الله بك على كل أهل بيتٍ من توسعتهم في دينهم، وتوسعتهم في أرزاقهم، ثم ختم لك بالشهادة، فهنيئًا لك.

وهكذا لم تؤثر هذه الكلمات في قلب عمر شيئًا، ولم يفرح بها، ولذا ردّ على ابن عباس قائلاً: والله، إن المغرور من تغرونه، ثم قال: أتشهد لي يا عبد الله عند الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، فقال: اللهم لك الحمد، ألصِق خدي بالأرض يا عبد الله بن عمر، قال: فوضعته من فخذي على ساقي، فقال: ألصِق خدي بالأرض، فترك لحيته وخده حتى وقع بالأرض، فقال: ويلَك، وويلَ أمِّك يا عمر، إن لم يغفر الله لك يا عمر، ثم قُبض ـ رضي الله عنه ـ.

١١ ـ أن الأمة عندما تفقد إمامًا من أئمتها، وعلمًا من أعلامها فينبغي أن تتأثر لذلك أعظم التأثر، وتحزن لفراقه وتتألم، وهذا هو الذي حصل عندما قُتل عمر ـ رضي الله عنه ـ، حيث جاء في رواية الطبراني أن عمر قال لابن عباس لما طُعن: أُحب أن أعلم عن أي ملإٍ من الناس كان هذا، فكان لا يمر بملإٍ من الناس إلا وهم يبكون، فرجع إليه فقال: «يا أمير المؤمنين، ما مررتُ على ملإٍ إلا وهم يبكون، كأنهم فقدوا اليوم أبكار أولادهم».

وهذه عائشة رضي الله عنها كما جاء في رواية البخاري لما جاءها ابن عمر يستأذنها أن يدفن والده مع صاحبيه وجدها قاعدة تبكي تأثرًا بما حصل لعمر رضي الله عنه من الدماء، نعم، لقد تأثرت الأمة لمقتل عمر كأنما هي فقدت أبكار أولادها كما يقول ابن عباس، وحُق لها ذلك، فلقد فقدت رجلاً هو أعظم رجالها، وفقدت حاكمًا عادلاً شهد له بذلك القاصي والداني، والعربي والعجمي.

وقامت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل ترثي زوجها عمر، تقول:

عيـنُ جـودي بعبـرةٍ ونحيـبِ لا تَمـلِّي علـى الإمـام النجيـب
فَجعتنـا المنـون بالفـارس المُعـ ـلَمِ يـوم الهيـاج والتلبيـبِ
عصمةِ الناس والمُعين على الدهـ ـر وغيثِ المُنتـاب والمحـروب[1]
قل لأهل السـراء والبؤس موتـوا قد سقته المنون كأس سَغوب[2][3]

وقال علي بن محمد المدائني: عن ابن داب وسعيد بن خالد، عن صالح ابن كيسان عن المغيرة بن شعبة قال: «لما مات عمر بكته ابنة أبي خيثمة فقالت: واعمراه، أقام الأود، وأبر العهد، أمات الفتن، وأحيا السُّنن، خرج نقيَّ الثوب، بريًا من العيب، فقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: والله لقد صدَقَتْ، ذهب بخيرها، ونجا من شرها، أما والله ما قالت، ولكن قُوِّلت»[4].

فرحم الله أمير المؤمنين أبا حفص، ورضي عنه، وأرضاه، وجمعنا به في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، آمين.

* * *

(١) المحروب: المسلوب والمنهوب.
(٢) السغوب: من السَغَب وهو الجوع.
(٣) تاريخ الطبري (٢/ ١٤٥)، والبداية والنهاية (٣/ ١٤٥).
(٤) المرجعان السابقان.

دماء على المصحف

إن من أكبر الخصوم، وأشدِّ الأعداء الذين تُواجههم الأمة المسلمة على مر العصور، وتعاقب الدهور، المنافقين ومن يتبعونهم من الغوغاء والجهلة من الناس الذين يُغرر بهم من قبل كل منافق ومخادع. يدل على ذلك أحداث متوالية، وفظائع وفجائع لا يزال الناس متأثرين بها إلى يومنا هذا، ولعل من أبرز تلك الأحداث والفجائع مقتل أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين، الشهيد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، ذلك الصحابي الجليل الذي يقول فيه النبي ﷺ ـ كما في كتاب فضائل الصحابة من صحيح الإمام مسلم ـ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟!**».

والإمام الخاشع الذي كان إذا مر على قبر يبكي حتى تخضلَّ لحيته من البكاء، وصاحب السابقة إلى الإسلام الذي يقول ـ كما في مسند الإمام أحمد بسند رجاله رجال الصحيح ـ: «فإن الله ـ عز وجل ـ بعث محمدًا ﷺ بالحق، فكنتُ فيمن استجاب لله ولرسوله، وآمن بما بُعث به محمد ﷺ، ثم هاجرت الهجرتين. . ، ونلت صِهر رسول الله ﷺ، وبايعتُ رسول الله ﷺ، فوالله ما عصيته، ولا غَششته، حتى توفاه الله عز وجل».

ذلكم هو عثمان بن عفان ذو النورَين، الشهيد الذي قُتل ظلمًا وعدوانًا، وكان لمقتله قصة مؤلمة، أسوق إلى الإخوة الكرام أحداثها وملابساتِها، ثم أُعقِّب عليها ببيان الدروس والعبر المستفادة منها ـ بإذن الله تعالى ـ.

إخوتي الكرام:

إن التاريخ يكشف لنا عن دور اليهود في تجريح القيادات المسلمة كلما

رأوا نجاحها، وفشل أساليبهم الأخرى في محاربة الإسلام، وأصبح النيلُ من القادة، ومحاولةُ تحطيم مكانتهم المعنوية في نفوس المسلمين هو الأسلوب المحبَّبَ إلى قلوبهم.

وإن الفتنة التي حدثت بمقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ واستشهادِه لتبرز الدور والتخطيط اليهودي جليًا، ودورانَه حول محور واحد هو: إفساد طاعة الجنود لأمرائهم.

ولقد كان لعثمان ـ رضي الله عنه ـ اجتهادات يسيرة، استغلها المغرضون في التشنيع عليه، وإلباسها لبوس الإحداث في الدين، مثلُ إتمامه الصلاة في منى أيام موسم الحج، وحرق المصاحف التي تخالف مُصحفه الذي دوّنه كِبارُ قراء الصحابة بإشرافه، وعلى الرغم من أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ خطب خطبة بيَّن فيها صواب اجتهاداته هذه، إلا أن اليهود رصدوا هذا الاختلاف الذي لا يضر وجوده في الصف المسلم، فدسوا رجلاً منهم تظاهر بالإسلام، اسمه عبد الله بن سبأ، ليطور الخلاف إلى فتنة عارمة[١].

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زَمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين، يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريدُ عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر»[٢].

«لكنه كان يتسقّط خلال رحلته هذه كلَّ سارق وقاطع طريق ومفسدٍ نالته عقوبةٌ من أحد الولاة، فتوترت نفسه، ويواعدهم أن يكونوا بالمدينة أيام يكون

(١) عن «العوائق» للأستاذ محمد أحمد الراشد ص٢٦٥.
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٧).

الناس حجاجًا بمكة، لينقلبوا على عثمان والناس غافلون»[١].

ووضع ابن سبأ لهؤلاء خطة أوجزها لهم بقوله: «انهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر»[٢].

و«بث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكُتُب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهلُ كُل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولٰئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويُسرون غيرَ ما يبدون، فيقول أهلُ كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء»[٣].

«وأحاط الثوار بالمدينة للمرة الأولى، مظهرين الأمر بالمعروف، وهم يريدون أن يذكروا لعثمان أمورًا زرعوها في قلوب الناس، حتى يرجعوا إليهم فيقولوا لهم: إنا قررناه بها فلم يَعْدِل عنها!! وقد تلطف معهم عثمان، فأجاب على تساؤلاتهم، وقد أدرك المسلمون أنهم أصحاب شر، فاشاروا على الخليفة بقتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم، فانصرفوا، وقد تواعدوا المجيء في شهر شوال من سنة خمس وثلاثين، حتى يَغزوهُ وكأنهم حجاج».

ولما كان في الموعد المحدد خرج الثوار قاصدين المدينة، جاء في رواية أبي سعيد أن عثمان سمع أن وفد مصر أقبلوا، فاستقبلهم، فقالوا: ادعُ

(١) العوائق ص٢٦٦.
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٧).
(٣) المرجع السابق. و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٣/ ٧٧، ٧٨).

بالمُصحف، فدعا به، وقالوا: افتح السابعة ـ يعنون يونس ـ، فلما قرأ ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أوقفوه، وقالوا: أرأيت ما حَمىٰ من الحِمىٰ، آلله أذن لك أم على الله تفتري؟ ثم ذكروا له أشياء أخرى، وكلما ذكروا له شيئًا قال: أمْضِه، نَزلت في كذا. . ، فيدفعهم إلى المعنى المقصود منها.

ثم إنهم خرجوا راضين، وأخذ عليهم ميثاقًا ألا يشقوا ولا يفارقوا جماعةً ما أقام لهم شروطَهم، ورجعوا راضين.

فبينما هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم، قالوا: مالك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا هم بكتاب من عثمان وعليه خاتمه، وفيه الأمر بصلبهم أو قتلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم، وأقبلوا نحو المدينة، فأتوا عليًا، فقالوا: ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وأن الله قد أحل دمه، فقم معنا إليه، قال: والله لا أقوم معكم، قالوا: فلِمَ كتبت إلينا؟! قال: والله ما كتبتُ إليكم كتابًا، فنظر بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة، فانطلقوا إلى عثمان، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا، فقال: إنهما اثنتان، أن تقيموا رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ، ولا أمليتُ، ولا عَلِمتُ، وقد يكتبُ الكتاب على لسان الرجل، ويُنقش الخاتم على الخاتم. قالوا: قد أحل الله دمك، ونقضت العهد والميثاق، وحاصروه[1].

قال صاحب كتاب «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام»[2] عن هذه الرواية: «هذه الرواية من أصح الروايات في حصار

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٥، ٦٥٦).
(٢) للأستاذ سُليمان بن حمد العودة ص١٦١.

عثمان، فهي ذات سند قوي، وراويها أبو سعيد شاهد عيان للحادثة، والذي نقلها عنه أبو نَضْرة، وكان يعرفُ من حضر الحادثة، واجتمع بهم أمثالُ علي وطلحة»[١].

ولم يكن الكتاب الذي كُتب على لسان عثمان، وهو منه براء هو الكتاب الوحيد المزور على الصحابة، فعائشة ـ رضي الله عنها ـ تُتهم بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان، ثم تنفي وتقول: «لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون، ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلستُ مجلسي هذا»[٢].

وعلي رضي الله عنه يتهمه الثوار بأنه كتب إليهم أن يَقْدُموا عليه المدينة، فينكرُ ذلك عليهم، ويقسم: «والله ما كتبت إليكم كتابًا»[٣].

إنه على الرغم من بيان عثمان ـ رضي الله عنه ـ لحقيقة الأمر إلا أن أولئك المفتونين من الثوار أبوا، وأفصحوا عن هدفهم قائلين: ضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا ونحن نعتزله.

ويحيط هؤلاء الظالمون بالمدينة، وعثمان ـ رضي الله عنه ـ غير مكترث بهم، بل كانوا في عينه أدقَ من التراب.

ويحكمون الحصار، وتعيش مدينة الرسول ﷺ أيامًا عصيبة، ويبقى الصحابة رضي الله عنهم في حيرة من أمر هؤلاء، والناس بمجملهم لا يدرون ما القوم صانعون، ولا على ما هم عازمون.

ويحيط الثوار بدار عثمان رضي الله عنه، ويتسابق الصحابة في الدفاع

(١) للأستاذ سُليمان بن حمد العودة ص١٦١.
(٢) المرجع السابق ص١٦٣.
(٣) المرجع السابق ص١٦٣.

عنه، ويستعينون بأبنائهم في الوقوف معه، فإذا هو يستقبلهم، ويقسم عليهم أن يكفوا أيديهم، فيسكنوا، حتى إن بعضهم لبس الدرع مرتين، وحتى إن الأنصار ليسألونه أن يكونوا أنصار الله مرتين، فيأمرُهم بالكف، ويقول: لا حاجة ليَ في ذلك[١].

وقبل ذلك بيوم يرى عثمان رضي الله عنه في المنام اقتراب أجله، فيستسلم لأمر الله تعالى، ويأمر من كان عنده في الدار ـ وكانوا سبعمائة تقريبًا من المهاجرين والأنصار ـ يأمرهم أن يكفوا أيديهم، ويذهبوا إلى منازلهم، كما قال لرقيقه: من أغمد سيفه فهو حر[٢].

ودليل هذه الرؤيا ما أخرجه الحاكم بسند صحيح أقره عليه الذهبي عن ابن عمر رضي الله عنه أن عثمان أصبح يحدث الناس، قال: رأيتُ النبي ﷺ في المنام فقال: «يا عثمان، أفطر عندنا، فأصبح صائمًا، وقُتل من يومه».

ويتسور الثوار داره، وتتوزع سيوفهم دماءه الطاهرة، وهو صائم يقرأ القرآن، ويمضي بذلك إلى الله عز وجل، كما مضى نبيه محمد ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، ليكتب في سجل الشهداء والصالحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وتختلف الروايات في تعيين قاتله، فيقول بعضهم: هو رومان اليماني، ويقول بعض: كِنانة بن بشر التَّجيبي، ويقول آخرون: هو رجل من بني سَدوس، يقال له: الموتُ الأسود، وبعضهم يقول: رجل يقال له: جَبَلة، ويقرر آخرون أنه لم يتعين قاتله على الصحيح[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٧٤).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ١٦٠).

(٣) انظر: «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» ص١٦٥.

ولو لم يتحدد قاتله فإن هُويّة قاتليه معروفة، إنهم غوغاءُ من الأمصار، ونُزّاعُ القبائل، وحثالةُ الناس، متفقون على الشر، وهمجٌ ورعاع، وخوارج مفسدون، وضالون باغونَ معتدون، ورؤوس شر وجفاء، وأراذلُ من أوباش القبائل، كما يصفهم بذلك كلِّه عددٌ من علماء الإسلام[١].

وبذلك يتبين أن القتلة رؤوس شرٍ وفتنة، ودعاة سوءٍ، وظلمة فجار خائنون، وكيف لا يكونون كذلك وهم قد منعوا عنه ـ رضي الله عنه ـ الطعام والماء، وهو الذي طالما دفع من ماله الخاص ما يروي ظمأ المسلمين بالمجان، وهو الذي ساهم بأموال كبيرةٍ عندما ينزِلُ بالناس مجاعةٌ أو شدة من الشدائد، ولماذا يضيقون عليه الخِناق ويمنعونه من الصلاة في المسجد النبوي وهو الذي وسع هذا المسجد من ماله، وكيف تُسوِّغ لهم أنفسُهم ارتكاب جريمة قتله، وهو الذي لم يَقْسُ يومًا على أحد من رعيته، بل سار فيهم سيرة العدل والرحمة، ونعموا في ظلال خلافته بالخير، كما يؤكد ذلك شهود العَيان؛ كالحسن البصري[٢].

وهكذا يتحقق ما أخبر به النبي ﷺ من استشهاد عثمان رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في كتاب الفتن، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: خرج النبيُّ ﷺ إلى حائط من حوائط المدينة، فذكَر الحديثَ إلى أن قال: فجاء عثمان، فقلت: كما أنت حتى أستأذنَ لك، فقال النبي ﷺ: «**ائذن له، وبشره بالجنة على بلاء يصيبه**».

قال ابن حجر: «وأشار ﷺ بالبلوى المذكورة إلى ما أصاب عثمانَ في آخر

(١) انظر: «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» للأستاذ محمد أمحرون (١/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤٨٣).

خلافته من الشهادة يوم الدار، وقد ورد عنه ﷺ أصرحُ من هذا، فروى أحمد من طريق كُليب بن وائل عن ابن عمر قال: «ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فمر رجل، فقال: يُقتل فيها هذا يومئذٍ ظُلمًا، قال: فنظرتُ فإذا هو عثمان»[١].

وقال ابن حجر كذلك: «وخصَّ النبي ﷺ عثمان بذكر البلاء، مع أن عمرَ قُتل أيضًا، لكون عمر لم يُمتحن بمثل ما امتُحن به عثمان، من تسلُط القوم الذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجَور والظلم، بعد إقناعه لهم، وردِّه عليهم»[٢].

وجاء التصريح لعثمان بأنه شهيد فيما رواه الإمام أبو يَعلىٰ، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد: إن رجاله رجال الصحيح، عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن أُحدًا ارتج، وعليه رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فقال رسول الله ﷺ: «**اثبت أُحد، فما عليك إلا نبي أو صديق، أو شهيدان**».

وهكذا، يمضي عثمان إلى ربه عز وجل بعد حصاره من قبل الثوار، استمر من أواخر ذي القعدة إلى الثامن عشر من ذي الحجة، مضى إلى ربه بعد عمرٍ نيّف على الثمانين، قضاه في طاعة ربه، فكان أوّاهًا، أوابًا، خاشعًا، تقيًا.

نعم، مضى عثمان إلى ربه شهيدًا سعيدًا، مضرجًا بدمائه الطاهرة، قد قتلته الطغمة المفسدة التي ضاقت ذرعًا بعدله ورحمته، وسخائه وفتوحاته.

ومضى عثمان إلى الله تعالى، فكانت خسارةُ المسلمين بقتله عظيمة وجليلة، وفتح القاتلون على المسلمين بابًا من الشر عريضًا، يصوره لنا أيمن

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٨).
(٢) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٥١).

ابن خُزيم ابن فاتك بقوله :

ضحَّوْا بعثمانَ في الشهر الحرام ضُحى وأيَّ ذبحٍ حرامٍ ويلهم ذبحوا
وأيَّ سُنَّةِ كفرٍ سنَّ أولهم وبابِ شرٍ على سلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضل الله سعيَهُمُ بسفك ذاك الدم الزكي الذي سفحوا

فرحم الله ذا النورين وصاحب الهجرتين، السباقَ إلى الإسلام، محررَ الأرقاء، وجامع الأمة على المصحف، الباكي من خشية سيده ومولاه.

وهنيئًا له الشهادة التي نالها، ورزقنا جميعًا الاجتماع به وبرسوله ﷺ وصاحبيه في جنات عدن، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

* * *

دروس وعبر

وقصة مقتل عثمان رضي الله عنه الآنفة الذكر مليئة بالدروس والعبر، أجملها في الآتي:

١ ـ بيان الخطر المحدق بالمسلمين من قِبَل المنافقين وأعوانهم، ذلك أننا إذا تأملنا قصةَ مقتلِ عثمان رضي الله عنه نجد أن للمنافقين دورًا كبيرًا فيها كما هو واضح من موقف ابن سبأ، عندما أخذ يَجْمَعُ الجموع للإطاحة بعثمان رضي الله عنه، وذلكم هو دأب المنافقين في كل زمان ومكان.

«فللهِ كم من معقل للإسلام قد هدموه؟! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟! وكم من عَلَم قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟!

فلا يزال الإسلام وأهلُه منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شُبَهِهِمْ سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾[2]»[3].

ولابد من التنبيه هاهنا على ما حصل من التشكيك في ابن سبأ من قبل المستشرقين وفئة من الباحثين العرب، ومن غالبية الشيعة المعاصرين، ذلك أنهم أنكروا شخصية ابن سبأ، وقالوا: إنه شخصية وهمية لم يكن لها وجود! «فأين بلغ هؤلاء من قلة الحياء والجهل، وقد ملأت ترجمتُهُ كتبَ التاريخ

(١) البقرة (١٢).
(٢) الصف (٨).
(٣) عن «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٧٧).

والفِرق، وتناقلت أفعالَه الرواة، وطبقت أخبارُه الآفاق؟!.

لقد اتفق المؤرخون والمحدِّثون وأصحابُ كتبِ الفرق والملل والنحل والطبقات والأدبِ والأنساب الذين تعرضوا للسبئية على وجود شخصية ابن سبأ الذي ظهر في كتب أهل السنة، كما ظهر في كتب الشيعة شخصية تاريخية حقيقة.

ولهذا لم تكن أخبار الفتنة ودورُ ابن سبأ فيها، لم تكن قصرًا على تاريخ الإمام الطبري، واستنادًا إلى روايات سيف بن عمر التميمي فيه، وإنما هي أخبار منتشرة في روايات المتقدمين، وفي ثنايا الكتب التي رصدت أحداث التاريخ الإسلامي، وآراء الفرق والنحل في تلك الفترة، إلا أن مَيزة تاريخ الإمام الطبري على غيره أنه أغْزَرُها مادة، وأكثرها تفصيلاً لا أكثر، ولهذا فإن التشكيك في هذه الأحداث بلا سند وبلا دليل إنما يعني الهدم لكل تلك الأخبار، والتسفيه بأولئك المخبرين العلماء، وتزييف الحقائق التاريخية.

ومتى كانت المنهجية ضربًا من ضروب الاستنتاج العقلي المحض في مقابل النصوص والروايات المتضافرة؟ وهل تكون المنهجية في الضرب صفحًا، والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقدمة والمتأخرة التي أثبتت لابن سبأ شخصية واقعية؟»[1]. ألا إنه التمويه والخداع والتضليل.

٢ ـ الصبر الجميل الذي اتصف به عثمان ـ رضي الله عنه ـ تجاه هذه الفتنة؛ إذ كان موقفه إزاء تلك الأحداث التي ألمَّت به وبالمسلمين المثلَ الأعلى لِما يمكن أن يقدمه الفرد من تضحية وفداء في سبيل حفظ كِيان الجماعة، وصون كرامة الأمة، وحقنِ دماء المسلمين، فقد كان بإمكانه أن يقي نفسه ويُخلِّصها

(١) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

لو أنه أراد نفسه ولم يرد حياةَ الأمة. ولو كان ذاتيًا ولم يكن من أهل الإيثار لدفع بمن هَبَّ للذود عنه من الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار إلى نحور الخارجين المنحرفين عن طاعته، ولكنه أراد جمع شمل الأمة، ففداها بنفسه صابرًا محتسبًا.

ولو كان راغبًا في الفرار ما أعجزه ذلك أبدًا؛ إذ قد قال له معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قِبَل لك به، فإن أهل الشام على الأمر ـ أي على الطاعة ـ لم يزالوا. فقال له عثمان: أنا لا أبيع جوارَ رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطعُ خيط عُنُقي. فقال له معاوية: فأبعثُ إليك جندًا منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك؟ فقال عثمان: أن لا أقترُ على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يُساكنهم، وأُضيّق على أهل الهجرة والنصرة. فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتُغتالن أو لتُغزَينَّ. فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل».

وهكذا يعلن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنه سيواجه الفتنة العارمة بالصبر الجميل، ممتثلاً قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[1].

٣ ـ أنه كما اتصف عثمان ـ رضي الله عنه ـ بالصبر، فقد اتصف كذلك بالإيثار، يقول ابن خلدون في مقدِّمته: «إن الأمر كان في أولِّه خلافة، ووازع كل أحد من نفسه هو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم، وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة، فهذ عثمان لما حُصر في الدار جاءه الحسن

(١) آل عمران (١٧٣ ـ ١٧٤).

والحسين وعبد الله بن عمر، وابن جعفر، وأمثالُهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع مِنْ سَلِّ السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة، وحفظًا للألفة التي بها حِفظُ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه»[1].

٤ ـ ومن الدروس والعبر كذلك قوة عثمان ـ رضي الله عنه ـ في دين الله تعالى، وعدم استجابته لمن طالبه بخلع نفسه من الخلافة، فكان بذلك يُمثِّلُ الثبات، واستمرار النظام؛ لأنه لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه لأصبح منصبُ الإمامة العظمى أُلعوبة في أيدي المفتونين الساعين في الأرض بالفساد، ولسادت الفوضى، واختل نظام البلاد، ولكان ذلك تسليطًا للرِّعاع والغوغاء على الولاة والحكام.

لقد كانت نظرةُ عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعيدة الغَوْر، ولو أجابهم إلى ما يريدون لسنَّ بذلك سُنة، وهي كلما كره قوم أميرهم خلعوه، ولألقى بأس الأمة بينها، وشغَلها بنفسها عن أعدائها، وذلك أقرب إلى ضعفها وتمزقها، ولقد كان ـ رضي الله عنه ـ شديد التمسك بما ذهب إليه، وكلم به رأسًا من رؤوس الخوارج وهو الأشتر النخعي، كما روى ذلك ابن سعد في طبقاته الكبرى عن الحسن قال: «أنبأني وثَّاب ـ وكان فيمن أدركه عِتْق أمير المؤمنين عمر وكان بين يدي عثمان ـ قال: بعثني عثمان، فدعوتُ له الأشتر، فجاء، فقال: يا أشتر، ما يريد الناس مني؟ قال: ثلاث، ليس لك من إحداهن بُد، قال: ما هن؟ قال: يُخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم، فتقول: هذا أمركم، فاختاروا مَنْ شئتم، وبين أن تُقِصَ من نفسك، فإن أبيت هاتين، فإن القوم قاتلوك. قال: أما ما من إحداهن بدّ؟ قال: لا، ما من إحداهن بد، فقال عثمان: أمّا أن

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٨، ط. دار الكتاب اللبناني، الثانية ١٩٧٩م.

أخلع لهم أمرهم، والله لأن أُقدَّم فتُضرب عنقي أحبُّ إليَّ من أن أخلع أمة محمد ﷺ بعضها على بعض، وأما أن أقِص من نفسي، فوالله لقد علمت أن صاحبيَّ بين يدي قد كانا يعاقبان، وما يقوم بد من القصاص، وأما أن تقتلوني فوالله لئن قتلتموني لا تتحابُّون بعدي أبدًا، ولا تصلون بعدي جميعًا أبدًا، ولا تقاتلون بعدي عدوًا جميعًا أبدًا، ثم انطلق ـ أي الأشتر ـ».

٥ ـ أبانت قصةُ مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ عن الموقف الكبير الذي وقفه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع عثمان، وقد تمثل ذلك في أمرين:

الأول: الاستعداد والتهيؤ للدفاع عنه إذا هاجمه الثوار.

أخرج الإمام ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت لعثمان يوم الدار: اخرج فقاتلهم، فإن معك من قد نصر الله بأقل مِنه، والله إن قتالهم لحلال، قال: فأبى.

وأخرج كذلك عن ابن سيرين قال: «جاء زيد بن ثابت إلى عثمان، فقال: هذه الأنصار بالباب، قالوا: إن شئت أن نكون أنصار الله مرتين، قال: أمَّا قتال فلا».

وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق بإسناده إلى جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن عليًا أرسل إلى عثمان: «إن معيَ خمسمائة دارع، فأْذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تُحدث شيئًا يُستحل به دمُكَ. قال ـ أي عثمان ـ: جُزيتَ خيرًا، ما أحب أن يُهراق دم في سببي».

وقد أمر عثمان ـ رضي الله عنه ـ الصحابة بالكف عن الدفاع عنه لعلمه أنه مقتولٌ ظلمًا كما أخبر بذلك النبيُّ ﷺ، وحقنًا لدماء المسلمين، ثم ليكون الصحابةُ شهودًا على مَن ظلمه، وخالف أمره، وسفك دمه بغير حق؛ لأن

المؤمنين شهداء الله في أرضه[١].

والموقف الثاني الذي ظهر من الصحابة أثناء الفتنة هو إبداؤهم النصحَ له، كما يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة بسند صحيح عن نافع مولى ابن عمر قال: «دخل ابن عمر على عثمان وعنده المغيرة ابن الأخنس، فقال: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك، فقال ابن عمر: إذا خلعتَها أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا، قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا، قال: فهل يملكون لك جنة أو نارًا؟ قال: لا، قال: فلا أرى أن تخلع قميصًا قمّصكَهُ الله، فتكون سُنة، كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم خلعوه».

٦ ـ الكشف عن معجزة من معجزات النبي ﷺ؛ إذ أخبر أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ سيكون شهيدًا، فوقع كما أخبر.

٧ ـ أن الأغلب على رؤيا الصالحين الصدق، وأنها تقع، كما أخرج الحاكم بسند صحيح أقره عليه الذهبي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عثمان أصبح يُحدِّث الناس، قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: «يا عثمان، أفطر عندنا»، وقد فهم عثمان رضي الله عنه من هذه الرؤيا أنه قد قرب أجله، ولذلك أصبح صائمًا حتى قُتل من يومه، كما جاء في رواية الحاكم نفسها، فصدقت رؤياه ـ رضي الله عنه ـ.

٨ ـ أنه لابد للمسلمين جميعًا من التأثر لموت الصالحين منهم؛ لا سيما القادةُ العظماء منهم، وذلك ما حصل لمّا قُتل عثمان.

لقد كان وقعُ المصيبة على نفوس المؤمنين عظيمًا، فجللهم الحزن،

(١) انظر: «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (١/ ٤٦٦، ٤٦٧).

وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء على عثمان، والترحم عليه.

وقام حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يرثي أمير المؤمنين، ويكثر التفجع لمقتله، ويهجو قاتليه، ويَقْرَعُهُم بما كَسبتْ أيديهم، فيقول:

أتركتم غـزو الـدُروب وراكُـمُ ... وغزو تمونـا عنـد قبـر محمـد
فلبئس هَدْيُ المسلمين هُديتم ... ولبئـس أمـر الفاجـر المتعمِّـد
وكأن أصحـاب النبـي عشيـة ... بُدْن تُنَحَّر عنـد بـاب المسجـد
فابـك أبا عمـرو لحسن بلائـه ... أمسى مقيمًا في بقيع الغرقد[1]

وقال أيضًا:

من سره الموت صِرفًا لا مزاج لـه ... فليـأت مأسـدة فـي دار عثمـانـا
ضَحَوا بأشمط عنوانُ السجـود به ... يقطّـع الليـل تسبيحًـا وقرآنـا
صبـرًا فدىً لكم أمي وما وَلَـدَت ... قد ينفع الصبر في المكروه أحيانًا
فقـد رضينـا بأهـل الشـام نافـرةً ... وبالأميـر وبالإخـوان إخـوانًـا
إني لمنهم وإن غابُوا وإن شهدوا ... ما دمـتُ حيًـا وما سميت حسـانًا
لتسمعُـن وشيكًـا فـي ديارهـم ... اللهُ أكبـر، يـا ثـارات عثمانـا[2]

وقام كعب بن مالك يقول:

فكـف يديـه ثـم أغلـق بابـه ... وأيقـن أن الله ليـس بغـافـلِ
وقال لأهل الـدار لا تقتلوهـمُ ... عفا الله عن كـل امـرىء لـم يقاتـلِ
فكيف رأيتَ الله صـب عليهمُ ... العداوة والبغضـاء بعـد التواصُـلِ
وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار النعام الجوافِلَ[3]

(١) ديوان حسان (١/ ١١٨).
(٢) المرجع السابق (١/ ٩٦).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٥).

وقال الفرزدق:

إن الخلافة لما أظعنت ظَعَنت ... عن أهل يثرب إذ غيرَ الهدى سلكوا
صارت إلى أهلها منهم ووارثُها ... لما رأى اللهُ في عثمان ما انتهكوا
السافكي دمَه ظلمًا ومعصيةً ... أيُّ دم لا هُدوا من غيّهم سفكوا[1]

وهكذا نرى موقف المسلمين تجاه إمامهم الصالح، بكاء يقطع نياط قلوبهم، وحزن واضح على قسمات وجوههم، وذلكم هو الواجب على المسلمين جميعًا تجاه كلِّ رجلٍ صالحٍ تُقبض روحه بينهم، وتلك هي علامة الأُخوة التي أوصانا الله تعالى بها، وحثنا على الالتزام بآدابها.

٩ ـ ومن الدروس والعبر المستفادة من قصة مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ الكشف عن أمر مهم من مسائل العقيدة، وهو وجوبُ طاعة الرعية لإمامهم، ذلك أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ طلبوا من عثمان أن يأذن لهم في الدفاع عنه إذا هاجمه الثوار الحاقدون، لكنه عزم عليهم ألا يفعلوا ـ كما تقدم ـ فاستجاب الصحابة له، وامتثلوا أمره لهم بالكف، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ورزقنا التأسي بهم والسير على منهجهم، وأعاذنا من تنكب سبيلهم، ومخالفة أمرهم، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

١٠ ـ أن من أعظم الأمور هدمًا لكيان الأمة، وتصديعًا لأركانها، وتفريقًا لكلمتها الأخذ بالشائعات وتصديقها قبل التأكد منها، ومن حقيقة أصحابها، ذلك أننا إذا تأملنا قصة مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وجدنا أن الشائعات الكاذبة التي لفقت ضد عثمان إحدى أهم الأسباب التي أدت إلى تجمع أخلاط من المنافقين، ودهماء الناس، وجهلتهم، حتى أصبحت لهم

(١) المرجع السابق (٧/ ٢٠٦).

شوكة ومنعة، فقُتل على إثرها خليفة المسلمين بعد حصاره في بيته وقطع الماء عنه[١].

وذلك كله يدعو الناس جميعًا إلى الحذر الشديد من الشائعات، وعدم نشرها إلا بعد التأكد منها، إن كان في نشرها مصلحة للأمة، بعد استشارة أهل العلم والفضل في أمرها، والأخذِ بمشورتهم تجاهها، وذلكم هو المنهج السليم الذي قرره الله عز وجل في كتابه؛ إذ يقول: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾[٢].

يقول الشيخ الإمام، علامة القصيم، الفقيه الأصولي المحقق عبد الرحمن ابن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ معلقًا على الآية الكريمة:

«هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبةٌ عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل، والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح، وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين، وسرورًا لهم، وتحرزًا من أعدائهم فعلوا، وإن لم يروا فيه مصلحة، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» ص١٦٠، ١٦١، و«الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن» للمؤلف ص٤٩٣.

(٢) النساء (٨٣).

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي يستخرجونه بفكرهم، وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولَّىٰ من هو أهل لذلك، ويُجعلَ إلى أهله، ولا يُتقدّم بين أيديهم، فإنه أقربُ إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمرُ بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقومَ عليه الإنسان أم لا؟ فيحجم عنه»[1].

١٢ ـ ومن الدروس التي لها علاقة بالدرس السابق: بيان أن العجلة وعدم التأني في الأمور الخاصة أو العامة من أسباب الشقاق وإذكاء الفتن، ذلك أن الناقمين على عثمان ـ رضي الله عنه ـ لما وجدوا الكتاب المزور عليه، والذي يُزعَمُ فيه أن عثمان يأمر بصلبهم أو قتلهم، أو قطع أيديهم وأرجلهم، لما وجدوا ذلك استعجلوا وسارعوا إلى التصديق بالكتاب المزور، والأخذ بما فيه، فأوقعهم هذا الاستعجال المشؤوم وعدم التأني، في هذا البلاء العظيم الذي جنوه على أنفسهم، فباءوا بالخسران والهوان: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[2].

وتلك هي نتيجة التسرع والعجلة، ضياع الحقوق، وإهدار الطاقات، وخراب البلاد، وهلاك العباد.

ولذا فقد أولى النبي ﷺ هذا الأمر بالاهتمام، فنبه الأمة عليه كما يدل على ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (٢/ ١١٣، ١١٤).
(٢) الحج (١٨).

رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»، وأخرج مسلم كذلك عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**».

١٣ ـ وأختم الدروس والعبر المستفادَة من قصة مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ببيان أن الظلم والاعتداء على الآخرين بغير حق من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾[١].

وإن من يتتبع أحوال أولئك الخارجين على عثمان ـ رضي الله عنه ـ المعتدين عليه يجد أن الله ـ تعالى ـ لم يهملهم؛ بل أذلهم وأخزاهم وانتقم منهم فلم ينج منهم أحد[٢].

روى خليفة بن خياط في تاريخه بإسناد صحيح إلى عمران بن الحُدير قال: إنْ لا يكن عبدُ الله بنُ شَقيق حدثني أن أول قطرة قطرت من دمه ـ يعني عثمان ـ على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾[٣]، فإن أبا حُريث ذكر أنه ذهب وسُهيلٌ النميري، فأخرجوا إليه المصحف، فإذا القطرة على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإنها في المصحف ما حُكت.

وفي تاريخ ابن عساكر عن محمد بن سيرين قال: «كنت أطوف بالكعبة، فإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي! قلتُ: يا عبد الله، ما سمعتُ أحدًا يقول ما تقول! قال: كنت أعطيت الله عهدًا إن قدرتُ أن ألطِم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قُتِلَ وُضع على سريره في البيت، والناس يجيئون

(١) الكهف (٥٩).
(٢) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (١/ ٤٨٣).
(٣) البقرة (١٣٧).

فيصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة، فرفعتُ الثوب عن وجهه، فلطمت وجهه، وسجّيته وقد يبست يميني، قال محمد بن سيرين: رأيتها يابسة كأنها عود».

ولو لم يكن من آثار ظلم هؤلاء الحاقدين إلا سلُّ المسلمين السيفَ عليهم إلى يوم القيامة لكفى بذلك رادعًا لهم، ولكل من سار في فلكهم، قال القاسم ابن محمد: «مر عليٌ ـ رضي الله عنه ـ على رجلين بالمدينة بعدما قُتل عثمان، وقبل بيعته وهما يقولان: قُتل ابن بيضاء، ومكانُه من الإسلام والعرب، ثم والله ما انتطح فيه عنزان، فقال عليٌ: ماقُلتما؟ فأعادا عليه، فقال: بلى والله! ورجال بعد رجال، وكتائبُ بعد كتائب، وزُحوف بعد زُحوف، ورجال وكتائب وزحوف في أصلاب رجال، حتى يكاد أو يخرج ابنُ مريم»[1].

ونحن هنا ندعو الله ـ عز وجل ـ أن يرزقنا العدل في أمورنا كلها، ويعيذنا من الظلم وأسبابه، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، ورضي الله عن عثمان وأرضاه، ورزقنا جميعًا التخلق بخلقه، والسير على نهجه، والله أعلم.

* * *

(١) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (١/ ٤٨٥).

الشهيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الانحراف عن الطريق المستقيم بمجانبة طريق العلماء الربانيين، ومصدر الحق والنور المبين، يوقع المنحرف في دركات من الشرور، لا يعلم نهايتها إلا الله عز وجل، ولربما سبب هذا الانحراف الاعتداء على الناس، وانتهاك حقوقهم، واستحلالَ أموالهم وحرماتهم.

والطائفة التي بين أيدينا هنا قد تسبب رجل منها في قتل عَلَم كبير من أعلام المسلمين، وصحابي جليل مبشَّر بالجنة.

أما الطائفة فالخوارج المارقون، المحادون لله تعالى ولرسوله ﷺ، والمخالفون لأهل السنة في مسائل هي من أخطر مسائل الاعتقاد.

وأما الصحابي الشهيد الذي تسبب الخوارج في قتله فأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، ابن عم النبي ﷺ.

إنه أول الناس إسلامًا في قول كثير من أهل العلم[1]، وكان حامل اللواء في أكثر المشاهد[2].

أثنى عليه النبي ﷺ كما في البخاري وغيره، فقال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى**»، وقال عنه كذلك كما في الصحيحين: «**لأدفعن الراية غدًا ـ يعني يوم خيبر ـ إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله**

(١) «الإصابة» (٢/ ٥٠٧).

(٢) المرجع السابق.

ورسوله، يفتح الله على يديه»، فلما أصبح رسول الله ﷺ غدوا كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال رسول الله ﷺ: «**أين علي بن أبي طالب؟**»، فقالوا: هو يشتكي عينيه، فأُتي به، فبصق في عينيه، فدعا له فَبَرِأ، فأعطاه الراية.

وهو صاحب القلب الخاشع، والعين الباكية، خشية لله تعالى وتعظيمًا له، كما يحدث بذلك ضِرار بن ضمرة الكناني، وذلك عندما سأله معاويةُ رضي الله عنه أن يصف عليًا، فقال: «أوَتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك، قال: أما إذ لابد، فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قَصُر، ومن الطعام ما جَشَب.. إلى أن يقول: فأُشهِدُ الله، لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخىٰ الليلُ سدولَه، وغارت نجومه، يميل في محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا، يا ربنا ـ يتضرع إليه ـ، ثم يقول للدنيا: إليَّ تغررتِ، إليَّ تشوفتِ، هيهات هيهات، غُري غيري، قد بَتَتُّك ثلاثًا؛ فعمركِ قصير، ومجلسُكِ حقير، وخطرك يسير، آهٍ آهٍ من قلة الزاد، وبُعدِ السفر، ووحشة الطريق.. يقول الراوي: فوَكَفَتْ دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بِكُمِّه، وقد اختنق القوم بالبكاء»[1].

نعم، إنه الشهيد علي بن أبي طالب، الذي توفرت في شخصه المناقب العظيمة، والسجايا الحميدة، حتى قال فيه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «لم

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٨٤، ٨٥).

يُنقل لأحد من الصحابة ما نُقل لعلي».

واستمر علي ـ رضي الله عنه ـ مجاهدًا، ورعًا، زاهدًا، يمثل الإسلام في أبهى صورِه، وأرقى مُثُلِه، فكان العالم العامل، والعابد الفاضل، والمجاهد المستبسل حتى جاء أمر الله تعالى بالموت، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

ذلك أن الخوارج تمادى أمرهم في عهد علي ـ رضي الله عنه ـ حتى ضللوه وأتباعه، ومعاوية وأتباعه، وكفروا الجميع، وخرجوا عليهم مستحلين لقتالهم، فقال علي لأصحابه: يقاتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان. ثم نهز إلى قتال الخوارج، فجرى له معهم وقعات، ولما أفناهم قتلاً ولم يُبقِ لهم شوكة ولا جماعة اجتمع نفر من بقاياهم، وتعاقدوا على قتله، وقتل معاوية، وعمرو بن العاص ـ رضي الله عن الجميع ـ.

ولندَع الحديث للإمام الطبري، ليحدثنا عن قصة استشهاد علي رضي الله عنه ودور أولئك النفر من الخوارج في قتله.

يقول ـ رحمه الله ـ: «حدثني موسى بن عثمان بن عبد الرحمن المسروقي، قال: حدثنا عبد الرحمن الحرانيُّ أبو عبد الرحمن، قال: أخبرنا إسماعيل بن راشد، قال: كان من حديث ابن ملجم وأصحابه أن ابن ملجم والبُرَكَ بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا، فتذاكروا أمرَ الناس، وعابُوا على ولاتهم، ثم ذكروا أهل النهر، فترحموا عليهم، وقالوا: مانصنع بالبقاء بعدهم شيئًا! إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد، وثأرنا بهم إخواننا!

فقال ابن مُلجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ـ وكان من أهل مصر ـ. . .

وكان عداده في كندة، فخرج فلقي أصحابه بالكوفة، وكاتمهم أمره كراهة أن يُظهِروا شيئًا من أمره، فإنه رأى ذات يوم أصحابًا من تيم الرِّباب ـ وكان عليٌّ قتل منهم يوم النهر عشرة ـ فذكروا قتلاهم، ولقي من يومه ذلك امرأة من تيم الرِّباب، يقال لها: قطام ابنة الشَجْنَة، وقد قُتل أبوها وأخوها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال، فلما رآها التبست بعقله، ونسي حاجته التي جاء لها، ثم خطبها، فقالت: لا أتزوجك حتى تشفي لي، قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة، وقتل علي بن أبي طالب، قال: هو مهر لك، فأما قتل عليٍّ فلا أراك ذكرتِهِ لي وأنت تريديني! قالت: بلى، التمس غرته، فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي، ويهنِئُك العيش معي، وإن قُتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها.

قال: فوالله ما جاء بي إلى هذا المِصر إلا قتلُ علي، فلَكِ ما سألتِ. قالت: إني أطلب لك من يُسندُ ظهرك ويساعدك على أمرك، فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرِّباب، يقال له: وردان، فكلمتْهُ، فأجابها، وأتى ابنُ ملجم رجلاً من أشجع، يقال له: شَبيبُ بنُ بَجَرة، فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: قتل علي بن أبي طالب، قال: ثكلتك أمُّك! لقد جئت شيئًا إدًّا، كيف تقدر على علي! قال: أكمُنُ له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا، وأدركنا ثأرنا، وإن قُتِلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. قال: ويحك! لو كان غير علي لكان أهون عليَّ، قد عرفتَ بلاءه في الإسلام، وسابقته مع النبي ﷺ، وما أجدني أنشرح لقتله، قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهر، العباد الصالحين! قال: بلى، قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا، فأجابه.

فجاؤوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة فقالوا: قد أجمع رأيُنا على قتل علي، قالت: فإذا أردتم ذلك فأتوني، ثم عاد إليها ابنُ ملجم في ليلة الجمعة التي قُتل في صبيحتها علي سنة أربعين، فقال: هذه الليلة التي واعدتُ فيها صاحبيّ أن يقتل كلٌّ منا صاحبَه، فدَعَت لهم بالحرير، فعصَبَتهم به، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا مقابل السُّدة التي يخرج منها علي، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف، فوقع سيفه بعِضَادة الباب أو الطاق، وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف، وهرب وردان حتى دخل منزله، فدخل عليه رجل من بني أبيه وهو ينزع الحرير عن صدره، فقال: ما هذا الحرير والسيف؟ فأخبره بما كان، وانصرف، فجاء بسيفه، فعَلا به وردان حتى قتله.

وخرج شبيب نحو أبواب كندة في الغلس، وصاح الناس، فلحقه رجل من حَضرموت يقال له: عُويمر، وفي يد شبيب السيف، فأخذه، وجَثم عليه الحضرمي، فلما رأى الناس قد أقبلوا في طلبه، وسيفُ شبيب في يده خشي على نفسه فتركه، ونجا شبيب في غُمار الناس، فشدوا على ابن ملجم، فأخذوه، إلا أن رجلاً من همدان يُكنى أبا أدماء أخذ سيفه فضرب رجله، فصرعه، وتأخر علي، وتقدم جَعْدةُ بنُ هُبيرةَ بن أبي وهب، فصلى بالناس الغداة، ثم قال علي: عليَّ بالرجل، فأدخل عليه، ثم قال: أي عدوَّ الله، ألم أحسن إليك! قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذتُهُ أربعين صباحًا، وسألت الله أن يقتل به شرَّ خلقه، فقال علي: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه»[1].

وذكر محمد بنُ الحنفية قال: «كنت والله إني لأصلي تلك الليلة التي

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧).

ضُرب فيها عليٌّ في المسجد الأعظم، في رجال كثير من أهل مصر، يصلون قريبًا من السُدة، ما هم إلا قيام وركوع وسجود، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره؛ إذ خرج عليٌّ لصلاة الغداة، فجعل ينادي: أيها الناس، الصلاة الصلاة، فما أدري أخرج من السُدة فتكلم بهذه الكلمات أم لا! فنظرت إلى بريق، وسمعت: الحكمُ لله يا علي، لا لك ولا لأصحابك، فرأيتُ سيفًا، ثم رأيتُ ثانيًا، ثم سمعتُ عليًا يقول: لا يفوتنكم الرجل، وشدَّ الناسُ عليه من كل جانب، قال: فلم أبرح حتى أُخذ ابن ملجم، وأُدخل على عليّ، فدخلتُ فيمن دخل من الناس، فسمعت عليًا يقول: النفس بالنفس، إن أنا مِتُّ فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي»[1].

وذُكر أن الناس دخلوا على الحسن فزعين لِما حدث من أمر علي، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف بين يديه، إذ نادته أم كلثوم بنت علي وهي تبكي: أي عدو الله، لا بأس على أبي، والله مُخزيك! قال: فعلى من تبكين؟ والله لقد اشتريتُه بألف، وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل مصر ما بقي منهم أحد.

وكان مقتل علي ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمعة سَحَرًا، وذلك لسبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين[2]، في مثل اليوم الذي كان يطاعن فيه الكفار، وينازلهم في غزوة بدر الكبرى.

ولما استُشهد ـ رضي الله عنه ـ استدعى الحسن بابن ملجم فقال له ابن ملجم: إني أعرض عليه خصلة، قال: وماهي؟ قال: إني كنت عاهدت الله

(١) المرجع السابق (٣/ ١٥٧).
(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٤٣).

عند الحطيم أن أقتل عليًا ومعاوية، أو أموت دونهما، فإن خليتني ذهبتُ إلى معاوية على أني إن لم أقتله أو قتلتُه وبقيت، فللهِ عليّ أن أرجع إليك حتى أضع يدي في يدك، فقال له الحسن: كلا والله حتى تعاين النار، ثم قدّمه فقتله[١].

وكان مقتل علي ـ رضي الله عنه ـ فاجعة مؤلمة، أدمت قلوب المسلمين، فتأثروا لذلك أعظم التأثر، وحزنوا أشد ما يكون الحزن، وقام أبو الأسود الدؤلي يقول:

أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طرًا أجمعينا
قتلتم خير مَنْ ركب المطايا ... ورحّلها ومَنْ ركب السفينا
ومَنْ لبس النعال ومَنْ حذاها ... ومَنْ قرأ المثاني والمئينا
إذا استقبلتَ وجه أبي حسين ... رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرها حسبًا ودينًا[٢]

وقام كذلك بكر بن حسان الباهريُّ يقول:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هدمت للدين والإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ ... وأعظم الناس إسلامًا وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسول لنا شرعًا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره ... أضحت مناقبه نورًا وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له ... مكان هارون من موسى بن عمرانا
قد كان يخبرهم هذا بمقتله ... قبل المنية أزمانًا فأزمانا
ذكرتُ قاتِلَه والدمعُ منحدرٌ ... فقلتُ: سبحان ربِّ العرش سبحانا

(١) المرجع السابق.
(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٣/ ١٩٨).

إني لأحسبه ما كان من إنسٍ ... كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا الله عنه سوءَ فِعلته ... ولا سقى قبر عمران بن حِطانا
يا ضربةً من شقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربةٌ من غَوِيٍ أوردته لظىٰ ... وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدًا بضربته ... إلا ليصلىٰ عذاب الخلد نيرانا[1]

وهكذا رحل ابن أبي طالب بعدما سطّر في كل لحظة من حياته الأمجاد والبطولات، ونشر العلم النافع، وتخرج به الأئمة العلماء، فكانت حياته بعد رحيله كالشمس المتألقة أخذت مكانها العالي في حياة البشرية، وراحت تجذب إلى مدارها كل قيم البطولة والبسالة، والحق والإيمان، والصدق والإخلاص، والشرف والنجدة.

فهنيئًا له تلك الصحبة، وبوركت تلك الأعمال الجليلة التي سطرها، ونعم الخاتمة التي نالها، ولْتَهْنَأه المنزلة من الجنان في جوار ابن عمه، وأبي زوجه رسول الله ﷺ.

وإن المتأمل في قصة مقتل علي ـ رضي الله عنه ـ ليستنبط منها عددًا من الدروس والعبر، وهذا ما سأشير إليه في الأمور التالية، فأقول:

١ ـ بيان أن الفرق الضالة والطوائف المنحرفة عندما تنتشر في بلاد الإسلام تعرض أهله للخطر، وتهدد الأمن والاستقرار، وتشكك الناس في عقيدتهم، وتعيث في الأرض فسادًا وخرابًا، وتلك هي حالُ الخوارج المارقين الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وكفّروه، وقتله نفرٌ منهم على حين بغتة كما بيّنا ذلك من قبل، زاعمين أنهم يشرون أنفسهم بهذا الفعل ابتغاء مرضاة الله، وما

(١) المرجع السابق (٣/ ١٩٩).

عندهم في ذلك مستندٌ ولا برهان، إن هو إلا اتباعُ الأهواء، وطاعةُ الشياطين: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[1].

إنهم يُكفِّرون بالمعاصي، ويُلحقون أهلها المسلمين بالكفار في الأحكام والدار والمعاملة والقتال، ويخرجون على أئمة المسلمين، وجماعتهم، ويحرفون نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مُنازعة الأئمة والخروج عليهم، وقتال المخالفين.

إنه الغرور والتعالُمُ والتعالي على العلماء، والخلل في منهج الاستدلال، والجهلُ بالسنة، والتعجُل في إطلاق الأحكام، والحكم على القلوب واتهامُها، وقِصَر النظر، وضيق العَطَن، وقلة الصبر[2]، ولذا حذّر النبي ﷺ منهم، كما أخرج ذلك البخاري في كتاب استتابة المرتدين من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرج قوم في آخر الزمان أحداثُ الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم إلى يوم القيامة**».

وإذا تبين لنا مما سبق أن الخوارج قد تسببوا في قتل علي ـ رضي الله عنه ـ وعرفنا مناهجهم الفاسدة فالواجب على أمة الإسلام أن تحذر منهم، وتحارب مناهجهم، ويقوم العلماء والدعاة بواجبهم في ذلك ليستقر الأمن، وتظهر

(١) الفرقان (٤٣ـ٤٤).

(٢) انظر: «الخوارج» للأستاذ ناصر العقل.

أنوار السنة، وتخمد نيران البدعة، وفِعلُ ذلك وأداؤه على الوجه الأمثل بالتمكين للعقيدة السلفية ومحاربة البدعة والمبتدعين ـ كهؤلاء الخوارج ومن نحا نحوهم إلى يومنا هذا[١].

هذا كله من أسباب نهوض المجتمعات، وهذه هي الطريقة المثلى لجمع الشمل ووحدة الصف، ومن تأمل تاريخ الإسلام الطويل وجد أن الدول التي قامت على السنة هي التي جمعت شمل المسلمين، وقام بها الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعزّ به الإسلام قديمًا وحديثًا، وهذا بخلاف الدول التي قامت على البدعة، وأشاعت الفوضى والفُرقة والمحدثات، وفرّقت الشمل، فهذه سرعان ما تندثرُ، وتنقرض، مثل دول الباطنية والرافضة والقرامطة والصوفية، وكدولة العبيديين التي مزقت المسلمين، وأشاعت بينهم البدع والشركيات.

ولذلك لما صار للمعتزلة وزارة ومراكز في عهد بعض الخلفاء العباسيين ظهرت عندهم البدع الكلامية، وحُوصر أئمة أهل السنة، وافتتن الناس، ولا غرابة في ذلك كله، فإن قضية التوحيد والعقيدة الصحيحة هي قضية القضايا، ومحور الارتكاز في الوجود البشري كله، من أجلها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب.

٢ ـ ومن الدروس والعبر هنا كذلك:

الكشف عن الحقد الدفين الذي امتلأت به قلوب الحاقدين من الخوارج على المؤمنين الصادقين، دلّ على ذلك قول عبد الرحمن بن ملجم ـ يعني سيفه ـ: «والله لقد اشتريته بألف، وسَمَمْتُه بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل

(١) مثل الإباضية وجماعة التكفير والهجرة.

المصر ما بقي منهم أحد».

إن كلماته هذه تبرز لنا العداء السافر الذي يكنُّه هؤلاء الخوارج لا على عموم المؤمنين فحسب، بل على القادة الكبار من أمثال ابن أبي طالب، صاحب أعظم رجل في الإسلام، والذي تجمّع في شخصه أعظم المناقب وأجل السجايا، وانظر ـ رعاك الله ـ كيف تورد المناهج الباطلة، والأفكار المنحرفة أصحابها إلى دركات من التعاسة والشقاء، عندما يقاتلون أهل الإيمان، ويدعون أهل الأوثان!

والخوارج وإن لم يكونوا كفاراً، فإن فيهم صفة من صفاتهم، كما قال جل وعلا: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾[1].

ولمَّا كان الخوارج بهذه الصفة من العداء والمكر حذّر منهم أئمة الإسلام واتفق على قتالهم الصحابة والأئمة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2].

٣ ـ ومن الدروس بيان أن البيئة الفاسدة تؤثر على أصحابها حتى لو كان منهم من يحب العدل ويسعى إليه، فهذا عبد الرحمن بن ملجم يقابل شبيب بن بجرة فيقول له: «هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: قتل علي بن أبي طالب، قال: ثكلتك أمك! لقد جئت شيئًا إدًّا، كيف تقدر على عليّ! قال: أكمن له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه

(١) التوبة (٨ـ١٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٨١).

فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا، وأدركنا ثأرنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

قال: ويحك! لو كان غيرَ علي لكان أهون عليَّ، قد عرفتَ بلاءه في الإسلام، وسابقته مع النبي ﷺ، وما أجدني أنشرح لقتله، قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين؟! قال: بلى، قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا». تقول رواية الطبري: فأجابه!

فانظر ـ رعاك الله ـ كيف يؤثر أصحاب الآراء الضالة والأفكار المنحرفة على من يخالطونهم ويجلسون معهم؟ إنه على الرغم من أن شبيبًا لم ينشرح صدره لقتل علي لمايعلمه عنه من بلائه في الإسلام وسابقته مع النبي ﷺ، إلا أنه استجاب لابن ملجم لماأثَّر عليه بالشبهة التي ألقاها عليه عندما ذكّره بقتل علي ـ رضي الله عنه ـ لإخوانه من الخوارج المارقين، فأثار فيه العاطفة تجاههم، رغم أنهم قُتلوا بالحق لا بالباطل، فاستجاب لصاحبه، وانقاد له، فكانت النتيجة: إفساد الأفكار، وتلويث السمعة، والخسرانُ المبين.

وذلك يدعو كل مسلم أن يحذر من مصاحبة من كان على نهج هؤلاء من فاسدي الاعتقاد، مُلوّثي الأفكار، وأن يسارع إلى مجالسة العلماء الربانيين الذين يعرفون الحق ويعملون به، ويرشدونه إلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، وإنه إن لم يرض بهذه السبيل القويمة وخالط أولئك المنحرفين في عقيدتهم فسيعَضُ أصابع الندم غدًا، ولات ساعة مندم كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ

لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[2].

وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ وهكذا نرى الحنق والغيظ يتبدى من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة، إنهم يتمنون لو يعودون إلى الأرض، فيتبرؤوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها التي خدعتهم، ثم تبرأت منهم أمام العذاب، حتى إذا ألقينا نظرة في نهاية المطاف، رأينا التعقيب المذهل المؤلم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾[3].

فاحذر ـ حفظك الله ـ صديق السوء، فإنه يخون من رافقه، ويحزن من صادقه، وإن قربه أعدى من الجَرَب، ورفضه من استكمال الأدب، واستحقارُ المستجير لؤم، والعجلةُ شؤم، وسوءُ التدبير وَهَن.

٤ ـ ومن الدروس أن عاقبة الاعتداء على أعراض المسلمين، ومحاولة إزهاق الأرواح البريئة، وسفك دماء المصلحين، عاقبةُ ذلك الخسران المبين في الدنيا والآخرة، فهذا ابن ملجم قتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، الصالح المُصلح، فما الذي جناه من جراء فعلته الآثمة؟ إنه قُتل به، ولم يجد

(١) الفرقان (٢٧ـ٢٩).
(٢) غافر (٤٧ـ٤٨).
(٣) البقرة (١٦٦ـ١٦٧).

أحدًا يناصره، ولم يرجع إلى المرأة الفاتنة، والتي كانت تغريه بالزواج بها لو قتل عليًا، وإن الموقف في الآخرة غدًا لَهوَ أشد وأفظع: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

وأخرج الإمام الطبراني في معجمه الكبير من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «**من أشقى الأولين؟**» قال: عاقر الناقة، قال: «**فمن أشقى الآخرين؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**قاتِلُك**». قال الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث: «وله شاهد من حديث عمار بن ياسر عند أحمد، ومن حديث صهيب عند الطبراني، وعن علي نفسه عند أبي يعلى بإسناد ليّن، وعند البزّار بإسناد جيد»[2].

٥ ـ أن من صفات المسلم الحق النصحَ لمن ولاّه الله أمره من ولدٍ ورعية، حتى لو كان في الرمق الأخير من الحياة، وتلك هي الصفة التي اتصف بها علي ـ رضي الله عنه ـ فإنه دعا قُبيل استشهاده ابنيه الحسن والحسين، فقال لهما: «أُوصيكما بتقوى الله، وألا تَبغِيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زُوي عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم ناصرًا، واعملا بما في الكتاب، ولا تأخذْكُما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية، فقال: هل حفظتَ ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم، قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما

(١) النساء (٩٣).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٧٤).

عليك، فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمرًا دونهما. ثم قال: أوصيكما به، فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه.

وقال للحسن: أوصيك أي بُني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش»[1].

تلك هي حال أمير المؤمنين الشهيد علي بن أبي طالب، العَلَم الربّاني، الذي أفنى عمره كلّه خاشعًا لله تعالى، أواهًا منيبًا، قد سلّ سيفه على أعداء الله وأعداء رسول الله ﷺ، ولم يبخل بالنصح والتوجيه حتى وهو يواجه الموت بكل غصصه وآلامه.

وهذه دعوة لنا جميعًا، أن نسير على المنهج نفسه، أن نكون دعاة صادقين، ومربين مخلصين، نسعى بكل قوتنا إلى محاولة إرجاع الأمة إلى دينها، وانتشالها من حياة العبث والضياع إلى حياة السعادة والبر والاستقامة، في ظل الشريعة الربانية المبنية على الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، والله تعالى المسؤول أن يحفظ على الأمة دينها، ويصرف عنها الفتن، ما ظهر منها وما بطن، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٥٧، ١٥٨).

سيد الشهداء

إن من أهم الصفات وأجل الخصال التي تبرز صدق الصادقين من كذب الكاذبين، وتكشف نيات المخلصين، وتميزها من دندنة المنافقين، ومعسول كلام المخادعين والمرائين، من أهم تلك الصفات وأجلها تنفيذ الأوامر الربانية، بالانطلاق في ساحات الجهاد، وميادين النزال، عندما يبتلى المؤمنون، ويزلزلون زلزالاً شديدًا، وتبلغ قلوبهم الحناجر.

وهذا التطبيق العملي بنصرة دين الله تعالى، وبذل النفس رخيصة في سبيله، هي الصفة التي كان عليها أصحاب محمد ﷺ، وهي سمة الصحابي الذي أحكي في هذه السطور وقائعَ دفاعه عن حياض الشريعة، بإراقة دمه الطاهر في معركة من معارك الإسلام الكبار.

وتلك هي معركة أحد، التي حدثت وقائعها في السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال؛ حيث خرجت قريش بحدها وحديدها، وجَدها[1]، وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تِهامة، وخرجت معهم عدد من النساء، يحرضنهم على القتال، ويُحذرنهم من الفرار.

خرج المسلمون إلى جهاد الكافرين، يرجون إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، وتقدم واحد منهم، هو نُعيم بن مالك بن ثعلبة يقول: يا نبي الله، لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنَّها.. [2].

(١) أي غناها، وكل ما كان عظيمًا عندها.

(٢) «البداية والنهاية» (٤/ ١٣).

ويتقدم شهيد الإسلام بطل حلقتنا هذه، الذي نعته الذهبي بقوله: «الإمام البطل الضِّرغام، أسد الله، أبو عمارة، وأبو يعلىٰ، القرشي الهاشمي المكي ثم المدني، البدري الشهيد، عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة»[١] حمزة ابن عبد المطلب، رضي الله عنه وأرضاه.

يتقدم يوم أحد تقدمَ الأبطال، ويَسُلُ سيفه مدافعًا عن دين الله جل وعلا، يحلف بالله الذي أنزل الكتاب على محمد ﷺ لَيصمدن أمام الكافرين[٢]، وفعل ـ رضي الله عنه ـ ما يقول، فقاتل قتال المخلصين المجاهدين حتى قتل أرطأة بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أحدَ النفر الذين يحملون اللواء. . ، ومرّ به سُباع بن عبد العزى الغُبشاني، وكان يُكنى بأبي نيار، فقال حمزة: هلم إليّ يابن مقطعة البظور، وكانت أمه أم أنمار مولاة شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي، وكانت ختّانة بمكة، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله، فقال وحشي بن حرب غلام جُبير بن مطعم: والله، إني لأنظر لحمزة يَهُدُّ الناس بسيفه، مثلُ الجمل الأورق؛ إذ قد تقدمني إليه سباع، فقال حمزة: هلم يابن مُقطِّعةِ البُظور، فضربه ضربة فكأنما أخطأ رأسه[٣].

ولكن الكفرة والمعاندين من أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ قد قهرهم وقلقلهم أن يروا مثل هذا المجاهد الضرغام يَهدُ صفوفهم، ويُعمِلُ فيهم سيفه البتّار، دون أن يجدوا لذلك مخرجًا، وما كان من أحد سادتهم وكبرائهم وهو جبير بن مطعم إلا أن يدعو غلامه وحشي بن حرب ـ وكان يقذف بالحربة قذف الحبشة قلّما يخطىء بها ـ فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١/ ١٧٢).
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٤/ ١٣).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ١٨).

محمد بعمي طُعَيمة بن عدي فأنت عتيق.

وانتهز وحشي الفرصة، وأخذ يتربص بحمزة ـ رضي الله عنه ـ الدوائر، حتى إذا دنا منه ورضي من حربته دفعها عليه، فوقعت في لُبته[١] حتى خرجت من بين رجليه. ويحكي وحشي حاله مع حمزة بعد ذلك، فيقول: فأقبل حمزة نحوي، فغُلب، فوقع، وأمهلته، حتى إذا مات جئت، فأخذت حربتي، ثم تنحيتُ إلى العسكر، ولم يكن لي بشيء حاجةٌ غيره، إنما قتلته لأُعتَق[٢].

وهكذا صدق حمزة مع ربه تعالى فصدقه، وأكرمه بالشهادة في سبيله، وتحت راية دينه، فأكْرِم بها من مَكرُمة، وأكرم بها من منزلة، خاصة إذا علمنا عِظَم البلاء الذي حل به بعد قتله، عندما التُمس، فوُجد ببطن الوادي، قد بُقر بطنه عن كبده، ومُثل به، فجُدع أنفه وأذناه[٣].

وتحققت بذلك رؤيا النبي ﷺ، كما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «**ورأيت في رؤياي.. أني هززت سيفًا، فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد..**».

وفي رواية الإمام البيهقي من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس مرفوعًا قال: «**رأيتُ فيما يرى النائم كأني مردف كبشًا، وكأن ضبة سيفي انكسرت، قال: وأوّلت كسر ضبة سيفي قتلَ رجل من عترتي**[٤]**، فقُتل حمزة..**» الحديث.

---

(١) اللبّة: المنحر. وعند البخاري في كتاب المغازي «في ثنته». قال ابن حجر: هي العانة، وقيل: ما بين السرة والعانة.

(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٩)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٦).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٧٢).

(٤) عِترة الرجل هم نسله ورهطه الأدنون.

وجاءت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها بعدما قُتل، فلقيها الزبير ابنُ العوام ـ رضي الله عنه ـ فقال لها: يا أُمة، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، فقالت: ولِمَ، وقد بلغني أنه مُثل بأخي، وذلك في الله قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله[١].

وهكذا رضيت صفية بقضاء الله وقدره، وتلك صفة المؤمنات الصادقات، وتقدمت صفية ـ رضي الله عنها ـ بعد ذلك، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفِّنوه فيهما. قال الزبير: فجئت بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فُعل به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة أن نكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفّنا كلَّ واحد منهما في الثوب الذي صار له[٢].

وهكذا مضى حمزة الشهيد إلى ربه راضيًا مرضيًا ـ بإذن الله ـ، وسار إلى الدار الآخرة بعدما سطّر بدمه الطاهر تاريخًا حافلاً بالتضحيات، ممتلئًا بالبطولات، وليكفه شرفًا وفخرًا ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده وغيره بسند قوي[٣] عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره، فنهاه، فقتله**».

وكذا ما أخرجه أيضًا أحمد وغيره بسند حسن[٤] عن أنس رضي الله عنه،

(١) المنتظم لابن الجوزي (٣/ ١٨١).
(٢) المنتظم لابن الجوزي (٣/ ١٨١).
(٣) انظر: السير للذهبي بتخريج شعيب الأرنؤوط (١/ ١٧٢، ١٧٧).
(٤) انظر: السير للذهبي بتخريج شعيب الأرنؤوط (١/ ١٧٢، ١٧٧).

قال: لما كان يوم أحد وقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد جُدع ومُثِّل به، فقال: «**لولا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطير**».

وكُفِّن في نَمِرَة، إذا خُمِّر رأسه بدت رجلاه، وإذا خُمرت رجلاه بدا رأسه. ولم يصلِّ على أحد من الشهداء. وقال: «**أنا شهيد عليكم**»، وكان يجمع الثلاثة في قبر، والاثنين، فيسأل: أيُّهما أكثر قرآنًا فيقدمه في اللحد، وكفَّن الرجلين والثلاثة في ثوب.

وقام دعاة الإسلام بعد مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ يرثونه، ويذكرون الرزية التي أصابت المسلمين بفقدهم هذا المجاهد الباسل، والبطل المغوار، قام عبد الله بن رواحة يقول:

بكت عيني وحُق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا ... هناك وقد أُصيب به الرسولُ
عليك سلام ربك في جنانٍ ... مُخالِطُها نعيم لا يزولُ

وقامت صفية ترثي أخاها الشقيق قائلة:

دعاه إلٰهُ الحق ذو العرش دعوةً ... إلى جنةٍ يحيا بها وسرور
فذلك ما كُنا نرجّي ونرتجي ... لحمزة يوم الحشر خيرَ مصيرِ

نعم، إنها ترجو لأخيها الشهيد يوم الحشر خير مصير ومآل في جنات عدن، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وسيصدق الله تعالى رجاءها وأملها كما يدل على ذلك ما تقدم معنا أن النبي ﷺ قال: «**لولا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطير**».

* * *

دروس وعِبَر

ولا تخلو قصة مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ من الدروس والعبر والمواعظ لمن تأمل ونظر، وأُجمل هذه العبر والدروس في النقاط التالية:

أولها: أن المؤمن لابد أن يُظهر محبته للدين والشريعة بالدفاع عن حياضها وإزهاق الروح رخيصة في سبيل الله تعالى، وفي نصرة رسوله ﷺ إذا دعا داعي الجهاد، واستُنفر المسلمون، كما فعل حمزة بن عبد المطلب ومن معه من المؤمنين كما قدّمنا، وكما فعل أبو دُجانة يوم خرج للجهاد هنا في غزوة أحد، وأخرج معه عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرجَ أبو دُجانة عِصابة الموت، وتمثل ـ رضي الله عنه ـ ببيتين يبين فيهما التزامه بالدفاع عن دين الله عز وجل، يقول فيهما:

أنـا الـذي عاهـدنـي خليلـي ... ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر في الكَيُّول[1] ... أضرب بسيف الله والرسول

ومثل حال الشهيد أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يقول: إني لأجد ريح الجنة دون أحد[2]، ثم قاتل حتى قُتل، وقال أنس بن مالك: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذٍ سبعين ضربة، فما عرفه إلا أخته، عرفته ببنانه[3].

تلك هي حال الصادقين المخلصين، أما المنافقون فدجالون كذّابون،

(١) مؤخر الصفوف.

(٢) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (١/ ٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٦).

يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، لقد خرجوا مع النبي ﷺ حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد رجع قائد المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول بثُلُث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتُل أنفسنا هاهنا أيها الناس، وصدق الله تعالى إذ يقول في شأنهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[1].

وهذا إنما ذكرتُه لنعرف حالنا وموقفنا من ديننا، فنسلك سبيل حمزة وإخوانه، ونحذر من صفات المنافقين الجبناء، ونعلم أن الموت سبيل كل واحد منا، والسعيد حقًا وصدقًا من أراق دمه في سبيل الله، يبتغي بذلك وجه الله تعالى ورضوانه، والخاسر كل الخسارة من تنكب طريق الجهاد والاستقامة، واتبع هواه، وأطاع شيطانه، وأضاع عمره في الملذات واتباع الشهوات، فعاش حياة الأشقياء، ومات مِيتة الجبناء، نعوذ بالله تعالى من الخِذلان.

وثاني هذه الدروس والعبر التي نستفيدها من قصة مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ: بيان أهمية الصبر في الإسلام، وأن شأنه عظيم، وهو ما نستفيده من موقف صفية بنت عبد المطلب ـ رضي الله عنها ـ، لما علمت بمقتل أخيها حمزة، فإنها لم تجزع ولم تسخط، وإنما قالت: «لأحتسبن، ولأصبرن إن شاء الله».

وهذا الذي يجب أن يتصف به المسلم في حال المصائب والكوارث التي تنزل به أو بأهله وجماعته، أن يصبر ويسترجع لينال الأجر العظيم والثواب

(١) آل عمران (١٦٧).

الجزيل، فإن الله تعالى قال في شأن الصابرين وثوابهم: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1].

وثالث الدروس والعبر: العلم بأن رؤيا الأنبياء حق، وأنها تقع، وقد مر معنا هنا في قصة مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ رأى قبل غزوة أحد أن ضبة سيفه انكسرت، وأوَّلها قتل رجل من عترته وجماعته فقُتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وتحققت رؤيا النبي ﷺ، فوقعت كما أخبر، ولذا أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب تعبير الرؤيا أن النبي ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

ورابع الدروس: بيان الرأفة والرحمة التي اتصف بها أصحاب النبي ﷺ تجاه إخوانهم، لمسنا ذلك واستفدناه من قول الزبير بن العوام رضي الله عنه، لما أعطته صفية الثوبين لتكفين حمزة بهما: فجئتُ بالثوبين لنكفن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيلٌ قد فُعل به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غَضاضة وحياءً أن نكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدّرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفّنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له.

وهكذا نجد الرأفة والرحمة صفة من أعظم صفات أصحاب محمد ﷺ، ولولا الإسلام الذي هذّب طبائعهم، وحسّن أخلاقهم لما وُجدت هذه الصفة فيهم كما هو حال الأكثرين من غير المسلمين، الذين لا تتطرق الرحمة والرأفة إلى قلوبهم سبيلاً حتى مع والديهم، فكيف بالآخرين من بني جنسهم.

---

(١) البقرة (١٥٥ـ١٥٧).

وأما آخر الدروس والعبر من قصة مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ فهو :

جواز الثناء على أهل الخير بما فيهم من الصفات الحميدة، والخصال النبيلة، كما نلمس ذلك من ثناء النبي ﷺ على حمزة ـ رضي الله عنه ـ، عندما قاله فيه : «**سيد الشهداء حمزة**».

وما فعله حمزة رضي الله عنه من جهاد الكافرين حتى آخر لحظة من حياته هو أهل لأن يطلق عليه مثل هذا اللفظ، وهو الذي كان يعلم يقينًا أن الكافرين يتربصون به الدوائر، ويُدبرون ضده المؤامرات، فلم يثنه ذلك عن أن يواصل المسيرة الجهادية، وصدق مع الله تعالى فصدقه الله، فأكرمه بالشهادة في سبيله تحت راية محمد ﷺ، ونال بذلك الأجر العظيم الذي قرره الله عز وجل في القرآن لمن جاهد، وقاتَل وقُتل : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[1].

فاللهم يا رحمٰن يا رحيم، ارزقنا التخلق بأخلاق السابقين من المؤمنين، وأفرح قلوبنا بشهادة في سبيلك، تحت راية الإسلام وشريعته، صادقين مخلصين مخبتين، مقبلين غير مدبرين، آمين.

* * *

(١) آل عمران (١٩٥).

رَكْبُ الشهداء

الحديث في هذا اللقاء يدور حول أسرة مسلمة صامدة من الرعيل الأول، السابق إلى الإسلام، المنضوي تحت راية التوحيد: لا إله إلا الله، والتي ستستمر عالية خفاقة، وإن حقد الحاقدون، وتربص المتربصون.

إنها أسرة مجاهدة أعظم ما يكون الجهاد، مضحيةٌ أغلى ما تكون التضحية، وتلك هي أسرة آل ياسر: سميةُ بنت خُبّاط، وزوجها ياسر، وابنها عمار، الذين قضوا نحبهم مقبلين غير مدبرين، وأراقوا دماءهم الزكية دفاعًا عن الحق الذي اتبعوه، والنور الذي حملوه.

والقصة تبدأ من ذلك الطغيان الهائج الذي كانت عليه تلك العصابة المشركة المعاندة، التي لم تَلِن قلوبها للحق الواضح وضوح الشمس، ولم تفكر لحظة في دينها الباطل، لم تفكر في أنها تعبد أحجارًا لا تجلب نفعًا، ولا تدفع ضرًا، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾[1]، ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾[2].

وراح هؤلاء المشركون يُلبسون هذه الأسرة المؤمنة المجاهدة أدراع الحديد، ويصفدونهم في الشمس، ليتخلوا عن دينهم وإسلامهم، ويرجعوا

(١) الفرقان(٣).
(٢) الإسراء(٥٦).

كفارًا معاندين، ومشركين خائنين، ورغم ذلك التعذيب والتنكيل فإن الأسرة الياسرية ازدادت صلابة وإيمانًا وتسليمًا لأمر الله الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

لقد كانت أسرة آل ياسر، ياسرٌ وسمية وابنهما عمار يقفون كالجبال الشوامخ أمام التعذيب الحسي والمعنوي، نعم، بدأت الأسرة تجابه بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، ووقفت صامدة أمام أبي جهل الذي غدا كالمسعور من مجابهة سمية له بسخرية، فلقد حطمت كبرياءه وصلفه بصبرها وثباتها، وفَطَرتْ قلبه بعدم ذكرها رسول الله ﷺ ولو بكلمة واحدة، ولم يكن من أبي جهل ساعتئذٍ إلا أن طعنها في قُبُلها بحربة في يده فقتلها، فهي أول شهيد في الإسلام، وكان قتلها قبل الهجرة، وكانت ممن أظهر الإسلام بمكة في أول الإسلام[١].

قال الإمام مجاهد بن جبر رحمه الله: «أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار، وسمية. فأما رسول الله ﷺ وأبو بكر فمنعهما قومُهما، وأما الآخرون فأُلبسوا أدراع الحديد، ثم صُهروا في الشمس، وجاء أبو جهل إلى سمية فطعنها بحربة فقتلها[٢]، ومات ياسر في العذاب»[٣].

وهكذا مضت سمية وزوجها ياسر إلى الله تعالى، وصدقا وصبرا، فصدقهما الله تعالى، وسيكرمهما بإذنه جنة عرضها السموات والأرض كما وعدهما وذويهما على لسان رسوله ﷺ، الذي كان يمر بهم وهم يُعذَّبون، فيقول: «**اصبروا آل ياسر، موعدكم الجنة**». قال الهيثمي في مجمع الزوائد

(١) «أسد الغابة» لابن الأثير (٧/ ١٥٣) ط. دار الكتب العلمية.
(٢) المرجع السابق (٧/ ١٥٣).
(٣) «الإصابة» لابن حجر (٣/ ٦٤٨).

ومنبع الفوائد[١] عن هذا الحديث: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

ووُعدت هذه الأسرة كذلك بالمغفرة كما قال سالم بن أبي الجعد: دعا عثمان ناسًا من أصحاب النبي ﷺ، فيهم عمار بن ياسر، فقال: إني سائلكم، وإني أحب أن تصدقوني، نشدتكم بالله، أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان يُؤْثِرُ قريشًا على سائر الناس، ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم، فقال: لو أن بيدي مفاتيح الجنة أعطيتُها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم. فبعث إلى طلحة والزبير فقال عثمان: ألا أحدثكما عنه، يعني: عمارًا؟ أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على أبيه وأمه وعليه: يعذَّبون، فقال أبو عمار: يا رسول الله، الدهرَ هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: «**اصبر**»، ثم قال: «**اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت**».

قال الهيثمي: أخرجه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، وقال محقق المجمع: وفيه انقطاع، سالم بن أبي الجعد لم يدرك عثمان[٢].

وهكذا انتهت حياة ياسر وسمية راضيين مطمئنين بوعد الله الذي لا يتخلف ولا يتبدل:

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾[٣].

ويبقى عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ مضطهدًا معذبًا في مكة، واستسلم لقضاء الله وقدره، ورضي وصبر حتى أنجاه الله تعالى من شرهم، وأنقذه من كيدهم عندما يسّر له سبحانه الهجرة إلى الحبشة في الهجرة الثانية، حيث

(١) (٩/ ٤٨٠).

(٢) مجمع الزوائد (٩/ ٤٨٠) وانظر كلام محقق سير أعلام النبلاء (١/ ٤١٠).

(٣) محمد (٤ـ٦).

استراح جسمه، وهدأت روحه.

وتمضي الأيام وتنقضي السنون، وعمار هو هو في صموده وتضحيته وجهاده، ويخبر النبي ﷺ بفضله ومكانته ومحبة الله تعالى له، فيما أخرج أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح[١]، عن خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ قال: كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظت له في القول، فانطلق عمار يشكوني إلى النبي ﷺ، فجاء خالد وهو يشكوه إلى النبي ﷺ، قال: فجعل يغلظ له، ولا يزيده إلا غلظة، والنبي ﷺ ساكت، فبكى عمار، وقال: يا رسول الله، ألا تراه؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «**من عادى عمارًا عاداه الله، ومن أبغض عمارًا أبغضه الله**»، قال خالد: فخرجت فما كان شيء أحبَّ إليّ من رضا عمار، فلقيته فرضي.

ويخبر النبي ﷺ عن الإيمان العظيم الذي كان عليه عمار ـ رضي الله عنه ـ، فيما أخرجه أحمد والحاكم والبزار بسند صحيح[٢]، فيقول: «**عمار مُلِيء إيمانًا إلى مُشاشِه**»، والمُشاش: رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها[٣]، واحدتها: مُشاشة.

ويستمر عمار ـ رضي الله عنه ـ في ولائه لإسلامه وشريعة ربه، وفي معركة أحد أقسم، فهزم المشركون، حيث كان يقول:

أقسمتُ يا جبريل ويا ميكال:
لا يغلَبَنَّا معشر ضلال
إنا على الحق وهم جُهال

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٤٨٢).
(٢) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٤٨٤).
(٣) لسان العرب (٦/ ٣٤٧) و«القاموس المحيط» ص ٧٨١ مادة (مشش).

ثم خرق صف المشركين مقاتلاً قتال الأبطال، فلم يخش سيوفهم، ولم تخفه رماحهم[١].

ويبقى عمار ـ رضي الله عنه ـ بقية حياته مجاهدًا، مناضلاً، حتى إذا جاءت معركة صفين[٢] في السنة السابعة والثلاثين من الهجرة دخلها ـ رضي الله عنه ـ، ودعا غلامًا له بشراب، فأتاه بقدح من لبن فشربه، ثم قاتل حتى قُتل، وفاضت روحه إلى بارئها، وتحقق بذلك ما أخبر به النبي ﷺ من قتله ـ رضي الله عنه ـ.

أخرج الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد حسن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا ننقل اللبِنَ للمسجد لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين، فينفض رسول الله ﷺ عن كتفه التراب، وقال: «**ويحك يابن سمية، تقتلك الفئة الباغية**».

وأخرج الطبراني كذلك بإسناد حسن عن عمار ـ رضي الله عنه ـ، قال: ضرب رسول الله ﷺ في خاصرتي فقال: «**خاصرة مؤمنة، تقتلك الفئة الباغية، آخر زادك ضَياحٌ من لبن**». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: «روىٰ حديث عمار: «**تقتل عمارًا الفئة الباغية**» جماعةٌ من الصحابة، منهم: قتادة بن النعمان، وأم سلمة عند مسلم، وأبو هريرة عند الترمذي، وعبد الله بن عمرو بن العاص عند النسائي، وعثمان بن عفان، وحذيفة، وأبو أيوب، وأبو رافع، وخزيمة بن ثابت، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وأبو اليسر، وعمار نفسه، كلها عند الطبراني وغيره، وغالب طرقها

(١) انظر: «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٨٣).

(٢) صِفِّين: بكسر أوله وثانيه وتشديده: موضع معروف بالشام. «معجم ما استعجم» للبكري (٣/ ٨٣٧).

صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم»[١].

تلك هي حياة عمار بن ياسر ووالديه سمية وياسر اللذين سبق الحديث عنهما آنفًا، أولئك الذين قضوا نحبهم، مدافعين عن الحق، مضحين بدمائهم في سبيل الله، مؤثرين ما عنده، راجين رحمته ومغفرته.

ولا تخلو وقائع قصتهم الدامية من المواعظ والعبر لمن تأمل، وأسوق إلى الأخ الكريم ملخصها فيما يأتي:

١ ـ بيان الدور الإسلامي الكبير الذي كانت عليه المرأة المسلمة في العهد الأول، فقد واجهت سمية ـ رضي الله عنها ـ، العذاب الموجه إليها من قبل بني المغيرة وأبي جهل وحدها، وصمدت في وجه الباطل، لا تخشى إلا الله تعالى، ولا ترجو ثوابًا إلا ثوابه سبحانه، لتعلن بذلك للناس جميعًا قدرة النساء المؤمنات على تغيير مجرى التاريخ بالتضحية والصمود أمام الكافرين مهما اشتد أذاهم، وتنوعت أساليب تعذيبهم، فتظفَر بعد ذلك بالأجر العظيم من الله تعالى الذي لا يتخلف وعده، ولا تتحول سنته.

٢ ـ أن المؤمن إذا مات على الحق وهو صابر محتسب كان جزاؤه عند الله تعالى جنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال النبي ﷺ لأسرة آل ياسر لما مر عليهم وهم يعذبون: «**اصبروا آل ياسر، موعدكم الجنة**».

ولما ذكر الله عز وجل شيئًا من صفات المؤمنين في سورة الإنسان نوه بصبرهم، وبيّن جزاءهم بقوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ

(١) فتح الباري (١/ ٥٤٣).

عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

وإن المؤمنين لما أُوقد لهم ذلك الأخدود العظيم بسبب إيمانهم برب الغلام، بالله العظيم، ذكر سبحانه أنه أثابهم على إيمانهم وثباتهم عليه وصبرهم، بالجنات تجري من تحتها الأنهار: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[2].

وهذا ما يدعو كل نفسٍ مسلمة تقهر وتعذب في ذات الله تعالى أن تتحلى بالصبر والثبات على الحق، ليكون الجزاء الجنة، وذلك وعد الله تعالى الذي لا يتخلف، ولا يتبدل.

٣ ـ أن على القائد المسؤول عن رعية من الرعايا مهمة كبرى، إذا ألمَّ بأصحابه حدث أو نزلت بهم مصيبة، وذلك ما يبينه موقف النبي ﷺ عندما كان يمر بأسرة آل ياسر وهم يعذبون، فيقول: «**اصبروا آل ياسر، موعدكم**

(١) الإنسان (١٢ـ٢٢).
(٢) البروج (١ـ١١).

الجنة»، فتنزل هذه الكلمات الرحيمة على قلوبهم، كما ينزل الماء البارد على الظمأ، فتسكن، وتطمئن، وتزاد يقينًا بموعود الله تعالى.

وذلك ما ينبغي أن يكون عليه القادة لكل جيل، في كل زمان، وفي أي مكان. أن يبعثوا في نفوس أتباعهم والمسؤولين عنهم العزة والشجاعة والإقدام، ويحذروهم من الانتكاس والإعراض، مستخدمين في ذلك أفضل الأساليب التربوية وفق أدلة الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة.

٤ ـ وفي قصة عمار ـ رضي الله عنه ـ لما قتل في معركة صفين معجزة من معجزات النبي ﷺ الدالة على نبوته، وصدق رسالته، حيث أخبر أنه سيُقتل، وأن آخر زاده شربة من لبن، فوقع بعد ذلك ما أخبر به ﷺ؛ حيث قُتل عمار مع جيش علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في معركة صفين، وكان آخر زاده من الدنيا شربة لبن.

* ولابد من التنبيه هاهنا على أمر مهم أشكل على كثير من الناس، وتخبط فيه كثيرون، وهو أن قول النبي ﷺ لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**» لا يعني الحكم على معاوية ـ رضي الله عنه ـ وجيشه بأنهم ظلمة، ولا يعني ذلك أيضًا جعل القتال الذي حصل موجبًا للكفر أو الفسق، بل ذلك قول أهل البدع من الخوارج والرافضة والمعتزلة[1]، والحكمُ على أولئك أنهم بغاة، يراد به أنهم بغاة متأوِّلون معذورون[2]، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وجمهور أهل العلم يفرقون بين الخوارج المارقين، وبين أصحاب الجمل وصفين ممن يعد من البغاة المتأولين، وهذا مأثور عن الصحابة، وعامة أهل

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٥٠).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١/ ٥٤٢)، و«مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٥٤).

الحديث والفقهاء والأئمة»[١].

وقال رحمه الله: «فمن جزم في واحد من الصحابة بأن له ذنبًا يدخل به النارَ قطعًا فهو كاذب مفتر، فإنه لو قال مالا علم له به لكان مبطلاً، فكيف إذا قال ما دلت الدلائل الكثيرة على نقيضه، فمن تكلم فيما شجر بينهم، وقد نهى الله تعالى عنه، من ذمهم أو التعصب لبعضهم بالباطل فهو ظالم معتد»[٢].

نعوذ بالله تعالى من الظلم، ونسأله سبحانه أن يرزقنا العدل في أقوالنا وأفعالنا، وفي شؤوننا كلها، إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٥٤).

(٢) المرجع السابق (٤/ ٤٣٦).

طلحة بن عبيد الله

يظل الرجال المخلصون والأبطال المجاهدون من الرعيل الأول هداة الأمم بعد الأنبياء، وقادة الأجيال المسلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إنهم الرجال الذين تطيب بذكر سيرهم مجالس الصالحين، وتأنِسُ بترديد قصص استشهاد مَنْ استشهد منهم قلوب المؤمنين.

ونقف في هذه اللحظات لنتحدث عن واحد من هؤلاء المجاهدين، الذي عاش حياته كلها باذلاً نفسه وماله في سبيل الله، حتى آخر نفس من أنفاسه.

إنه عملاق من عمالقة الإسلام الكبار، وفارس من أشجع الفرسان، وهو المدافع عن صاحب الرسالة ﷺ في أشد المواقف، وأحلك الظروف، هناك في مواطن النزال، و مِكَرِ الرجال، حيث صليل السيوف، وتكسُّر الرماح، وتراشق النبل، وهو كذلك أحد العشرة المبشرين بالجنة.

إنه الصحابي الشهيد: طلحة بن عبيد الله بن عثمان، بن عمرو، بن كعب، ابن سعد، بن تيم، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فِهْر، بن مالك، ابن النضر، بن كِنانة، القرشيُّ التيميُّ المكي، أبو محمد. والده عبيد الله: كان من أشراف مكة، وأولي الحظوة فيها. وأمه: الصعبة بنت عبد الله، جدها لأمها وهب بن عبد الله، صاحب العطاء والكرم.

نعت طلحةَ الإمام أبو نعيم في الحِلية فقال: «ومن الأعلام الشاهرة، صاحبُ الأحوال الزاهرة، الجوادُ بنفسه، الفيَّاض بماله، طلحة بن عبيد الله، قضى نحبه، وأقرض ربه، كان في الشدة والقلة لنفسه بذولاً، وفي الرخاء

والسَعَة بماله وصولاً»[١].

إخوتي الكرام، وفي مكة البلد الأمين كانت نشأة طلحة، لقد عرف سهولها ووديانها، وتنقل بين جبالها وقِمَمها، تعلم الرماية بالسهم، والإصابة بالرمح.

ولمَّا شبّ عن الطوق ضاقت به جنبات مكة، فاختار طريق التجارة، ومِنْ هنا عرفته أسواق بُصرى والشام، عرفته تاجرًا صدوقًا، وخبرته بائعًا سمحًا. وحين استضاءت مكة بنور الرسالة كان طلحة من أوائل الداخلين في الإسلام على يد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

ومنذ ساعة دخول طلحة الإسلام صار جنديًا من جنوده المخلصين، المدافعين عن رسول الله ﷺ في أحرج المواقف، وأقسى اللحظات.

ودونك شيئًا من مناقبه وسجاياه لتعرف المنزلة الكبرىٰ التي تبوأها هذا الصحابي الشهيد.

أخرج الإمام الترمذي في كتاب المناقب، والجهاد بإسناد حسن[٢]، وأحمد في المسند، وابن سعد في الطبقات الكبرى، والحاكم في المستدرك، وصححه، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أوجب طلحة**». قال ابن الأثير: أوجب فلان إذا فعل فعلاً تجب له به الجنة أو النار، والمراد به هاهنا: الجنة.

وقد قال النبي ﷺ ما قال لِمَا رآه في طلحة من التضحية بجسده في معركة أحد، دفاعًا عنه ﷺ، كما أخرج ما يدل على ذلك البخاري في كتاب فضائل

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٨٧).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٦).

الصحابة، وفي المغازي، وابنُ ماجه في المقدمة من سننه، والطبراني في معجمه الكبير، وابن سعد في الطبقات الكبرى، ولفظ البخاري عن قيس بن أبي حازم، قال: «رأيت يدَ طلحة التي وقىٰ بها النبي ﷺ قد شَلَّت».

وفي مسند الطيالسي من حديث عائشة عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ثم أتينا طلحة ـ يعني يوم أحد ـ فوجدنا به بضعًا وسبعين جراحة، وإذا قد قطعت إصبَعُه».

وجاء عن يعقوب بن إبراهيم بن محمد بن طلحة عن أبيه قال: «أُصيبت إصبع طلحة البنصر من اليسرى من مِفصلها الأسفل، فشلّت، ترّس بها على النبي ﷺ».

وأخرج الترمذي بإسناد حسن، وأبو يعلى في مسنده، والضياء المقدسي في المختارة، من طريق طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما طلحة: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضىٰ نحبه: مَنْ هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته، يوقرونه ويهابونه. فسأله الأعرابي، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إني اطلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خُضْر، فلما رآني رسول الله ﷺ قال: «**أين السائل عمّن قضى نحبه؟**» قال: أنا يا رسول الله، قال: «**هذا ممن قضى نحبه**».

قال ابن الأثير: وذلك أن طلحة بن عبيد الله ألزم نفسه إذا لقي العدو أن يصدقه القتال، ففعل[1].

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله عز وجل: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: «فمنهم من فرغ من العمل الذي كان نذره لله، وأوجبه له على نفسه،

(١) جامع ذالأصول (٩/ ٥).

فاستشهد بعضٌ يوم بدر، وبعضٌ يوم أحد، وبعض في غير ذلك من المواطن»[١].

وربما كان المراد من الحديث على هذا التفسير الذي ذكره أبو جعفر أن طلحة سيموت شهيدًا، وقد تحقق ذلك يوم الجمل، قتله مروان بن الحكم.

وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية أن طلحة ـ رضي الله عنه ـ لما خرج يوم الجمل سنة ٣٦ جاءه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، فذكّره، فتراجع إلى مؤخر الصفوف، فأصابه سهم في ركبته، فمازال يسبح إلى أن مات.

دل على ذلك ما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذٍ بسهم فوقع في عين ركبته، فما زال يسبح إلى أن مات.

وظل جسده الطاهر بعد وفاته لم يتغير منه شيء، كما روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبيه أن رجلاً رأى طلحة في منامه، وهو يقول: حولوني عن قبري فقد آذاني الماء، ثلاث ليال، فأتى ابنَ عباس ـ رضي الله عنهما ـ فأخبره ـ وكان نائبًا على البصرة ـ فاشتَرَوْا له دارًا بالبصرة بعشرة آلاف درهم، فحولوه من قبره إليها، فإذا قد اخضر من جسده ما يلي الماء، وإذا هو كهيئته يوم أصيب[٢].

وما تقدم من ذكره من أن قاتل طلحة ـ رضي الله عنه ـ هو مروان بن الحكم ثابت بإسناد صحيح كما قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الإصابة[٣]،

(١) «جامع البيان» (١٠/ ٢٧٩).
(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٥٩).
(٣) (١/ ٢٣٠).

وذلك فيما أخرجه خليفة بن خياط في تاريخه عن أبي سبرة قال: نظر مروان بن الحكم إلى طلحة بن عبيد الله يوم الجمل، فقال: لا أطلب بثأري بعد اليوم، فرماه بسهم، فقتله».

وذكر الذهبي في سير أعلام نبلائه عن الشعبي قال: رأى عليٌّ طلحة في واد ملقى، فنزل، فمسح التراب عن وجهه، وقال: عزيز علي أبا محمد بأن أراك مُجندلاً في الأودية تحت نجوم السماء، إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري.

قال الذهبي: قال الأصمعي: معناه: سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي.

وأخرج الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي: إسناده حسن، عن طلحة بن مصرف، أن عليًا انتهى إلى طلحة بن عبيد الله وقد مات، فنزل عن دابته وأجلسه، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ولحيته، وهو يترحم عليه، وهو يقول: ليتني مِتُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

قال الذهبي بعد إيراده قصة مقتل طلحة ـ رضي الله عنه ـ: «قاتل طلحة في الوزر بمنزلة قاتل عليّ».

ونقل عن زيد بن أبي أُنيسة أنه رَوى عن محمد بن عبد الله من الأنصار، عن أبيه أن عليًا ـ رضي الله عنه ـ قال: «بشِّروا قاتل طلحة بالنار».

ويحسن بنا هنا أن نورد شيئًا مما ذكره الذهبي في ترجمة مروان، قال ـ رحمه الله ـ: «مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، المَلِك، أبو عبد الملك، القرشي الأموي، وقيل: يكنى أبا القاسم وأبا الحكم، مولده بمكة، وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، وقيل: له رؤية، وذلك محتمل.

كان كاتب ابن عمه عثمان، وإليه الخاتم، فخانه. . قتل طلحة يوم الجمل، ونجا ـ لا نُجي ـ ثم ولي المدينة غير مرة لمعاوية رضي الله عنه.

وكان أبوه قد طرده النبي ﷺ إلى الطائف، كان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء، أحمر الوجه، قصيرًا، دقيق العنق، كبير الرأس واللحية.

قال مالك: تذكر مروان، فقال: قرأت كتاب الله من أربعين سنة، ثم أصبحتُ فيما أنا فيه من هَرْق الدماء وهذا الشأن.

واستولى مروان هذا على الشام ومصر تسعة أشهر، ومات خَنْقًا من أول رمضان سنة خمس وستين». (انتهى ملخصًا من السير).

إخوتي الكرام: والمقصود الذي يُراد بيانُه هاهنا بيان المكانة الكبرى التي تبوأها الصحابي الشهيد طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ عندما ضحّىٰ بنفسه في سبيل الله، مدافعًا عن دينه ورسوله ﷺ حتى أُريق دمه الطاهر يوم الجمل كما تقدم.

وإن ما ذُكر من حياته الجهادية لهو دعوة لكل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجعل نصر دين الله تعالى همَّه في كل لحظة من حياته، أن يجمع فكره، ويهيىء ذهنه لرسم منهج متزنٍ عنوانه: كيف ينصر الإسلام؟، وليلجأ إلى الله عز وجل بالدعاء أن يجعله جنديًا من جنوده المخلصين، وليضع الآية التالية أمام عينيه في كل وقت وآن ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾[1].

وإن من الأهمية بمكان هنا ونحن نتحدث عن طلحة بن عبيد الله أن يُعلم يقينًا أنه لا يجوز شرعًا أن تساءَ بطلحة الظنون، ولا أن توجه إليه التهم، ويُنزّلَ

(١) آل عمران (١٣٣).

من قدره وفضله لحضوره يوم الجمل؛ فإنه ـ كما تقدم معنا ـ لما حضر يوم الجمل تقدم إليه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فذكّره، فتراجع إلى مؤخرة الصفوف، فأصابه سهم مروان، فقتله.

ولأن ما وقع بين جيش علي ومعاوية إنما أثاره المفسدون بغير اختيار هؤلاء السابقين رضي الله عنهم[١].

ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما سُئل عما شجر بين الصحابة علي ومعاوية وطلحة وعائشة، هل يطالبون به أم لا؟ قال: «قد ثبت بالنصوص الصحيحة أن عثمان وعليًا وطلحة والزبير، وعائشة من أهل الجنة؛ بل قد ثبت في الصحيح أنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

وقال رحمه الله: «وحينئذٍ، فمن جزم في واحد من هؤلاء بأن له ذنبًا يدخل به النار قطعًا فهو كاذب مفتر، فإنه لو قال مالا علم له به لكان مبطلاً، فكيف إذا قال ما دلت الدلائل الكثيرة على نقيضه؟ فمن تكلم فيما شجر بينهم ـ وقد نهى الله عنه ـ من ذمهم أو التعصب لبعضهم بالباطل فهو ظالم معتد»[٢].

وقال كذلك وهو يبين منهج أهل السنة فيما وقع بين الصحابة، وفي تلك الأخبار المروية في مساوئهم، قال: «ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونُقّص، وغُيِّر عن وجهه، والصحيح منه: هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٧٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٢).

السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم.

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتىٰ بحسنات تمحوه، أو غُفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفّر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور.

ثم القدر الذي يُنكَرُ من فعل بعضهم قليلٌ نَزْر، مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح.

قال الشيخ: ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منّ الله به عليهم من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان، ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى»[1] .ا.هـ

وإن هذا الذي ذكرته من كلام شيخ الإسلام رحمه الله حول السؤال الموجه إليه عما شجر بين الصحابة هل يطالَبون به أم لا؟ إنما ذكرته ليَعلَم كل طاعن في مثل الصحابي الشهيد طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ أنه إنما يقول بهتانًا، ويفتري الكذب، ويرتكب الإثم، ولو رجع إلى الحق، وبحث فيما ينفعه لكان خيرًا له وأقوم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[2].

فاتق الله ـ أخي المسلم ـ وصُنْ لسانك عما لا يعنيك، وجاهد نفسك بلزوم

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣١، ٤٣٢).
(٢) النساء (٦٦).

الطاعات: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1].

رَزَقنا الله جميعًا قلوبًا خاشعة، وألسنة صادقة، وجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، آمين.

* * *

(١) العنكبوت (٦٩).

لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة!

إخوتي الكرام:

تتباين مواقف الناس في هذه الحياة من الإسلام، وتتنوع أهدافهم، ومقاصدهم في كل عمل يقدمونه. فهذا مؤمن بالله ورسله، مصدق بآيات ربه، موقن بوعده، يتوافق قوله وفعله، وذاك منافق يخالف قولُه فِعْلَه، ويتناقض ظاهره وباطنه، ويتنافر مظهره ومخبره، فهو يتقن الكذب والتمويه، حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء، وانكشف المستور، وفُضِحَ بما فيه من حقيقة الشر والبغي والحقد والفساد. وقد ذكر الله عز وجل هذين الصنفين من الناس في القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ (١).

وهكذا يجد المتأمل في الصنفين السابقين من الناس البونَ الشاسع، والاختلافَ الكبير. والله ـ تعالىٰ ـ قد ذكّرنا بهذين الصنفين من الناس: المنافقين الكاذبين، والمؤمنين الصادقين، لنحذر الاتصاف بصفات المنافقين، ولنتخلق بأخلاق المؤمنين المجاهدين، المؤثرين ما عند الله تعالى من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، فنشري أنفسنا ابتغاء مرضاة الله كما شرى

(١) البقرة (٢٠٤ ـ ٢٠٧).

هؤلاء الصادقون أنفسهم، ألا إنه موقف عظيم عظيم، يستدعي كلَّ متدبر للقرآن الوقوف عنده، ودعاء الله تعالى بصدقٍ أن يجعله من أهل هذه الصفة الجليلة، وذلك الموقف العظيم.

إخوتي الكرام:

وعندما يُلقي الواحد منا نظرة سريعة في تاريخ الإسلام الطويل، يجد أنَّ أصحاب محمد ﷺ أولُ محقق لهذا العمل الخالص لله تعالى.

لقد باعوا أنفسهم كلها لله، وسلموها كلها له، لا يستبقون منها بقية، ولا يرجون من وراء أدائها وبيعها غاية إلا مرضاة الله، ليس لهم فيها شيء، بيعة كاملة لا تردد فيها، ولا تلفتَ، ولا تحصيلَ ثمن، ولا استبقاءَ بقية لغير الله.

ولقد دلت على ذلك أحداث متوالية، ومواقع قتالية متفرقة. وكانت معركة بدر الكبرى إحدى هذه المعارك. لقد قام قُبيلها سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ بعد أن سمع الرسول ﷺ يقول: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**» فتكلم وقال: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال: «**أجل**». قال: «فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله، لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت هذا البحر، فخضتَه، لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا. إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسرْ بنا على بركة الله»[1].

وفي معركة بدر كان رسول الله ﷺ يقاتل ببدنه قتالاً شديدًا. كما يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن علي ـ رضي الله عنه ـ

(١) أخرجه ابن إسحاق.

قال: «لقد رأيتنا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربُنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا» وفي موضع آخر من مسند أحمد بسند صحيح: «لما حَضَرَ البأس يوم بدر، اتقينا برسول الله ﷺ وكان من أشد الناس، ما كان ـ أوْ لم يكن ـ أحدٌ أقرب إلى المشركين منه».

وروى مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه أنه ﷺ قال يوم بدر: «**لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**»

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في البداية والنهاية: «وقد قاتل ﷺ بنفسه الكريمة قتالاً شديدًا ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا، وحثا على القتال، وقاتلا بالأبدان جمعًا بين المقامين الشريفين».

إخوتي الكرام:

وقد أقر الله ـ تعالى ـ عيني رسوله ﷺ فأراه صدق أصحابه في الدفاع عن حياض الإسلام، وبذل أنفسهم رخيصة في سبيل الله، فسقط عدد منهم شهداء.

أخرج مسلم في كتاب الإمارة، من صحيحه، في باب ثبوت الجنة للشهيد عن البراء قال: جاء رجل من بني النبيت ـ قبيل من الأنصار ـ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله. ثم تقدم، فقاتل حتى قُتل. فقال النبي ﷺ: «**عَمِلَ هذا يسيرًا، وأُجر كثيرًا**».

وأخرج مسلم كذلك في الكتاب نفسه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» قال أنس بن مالك راوي الحديث: يقول عُمير بن الحُمَام الأنصاري: يا رسول الله! جنةٌ عرضها

السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يَحْمِلُك على قولك: بخٍ بخٍ؟**» قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**». فأخرج تمراتٍ من قَرَنِه[1]، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة». قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل.

ووقع في بعض الروايات كما عند ابن إسحاق، وأبي جعفر الطبري في تاريخه أن عميرًا ـ رضي الله عنه ـ قال: «فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء»، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

ركْـضًـا إلـى الله بـغيـر زاد ... إلا التقى وعملَ المعاد

والصبرَ في الله على الجهاد ... وكـلُ زاد عُرضة النفاد

غيرَ التقى والبرِّ والرشادِ

وهكذا يقرر عمير بن الحمام ـ رضي الله عنه ـ أن كل نعيم في الدنيا زائل لا محالة، ولن يبقى ولن يدوم إلا نعيم الجنان، ويتطلع ـ رضي الله عنه ـ لأجل ذلك إلى الدار الآخرة، ويؤكد هذا التطلع والشوق إلى الجنة عندما يقول: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة»! نَعَمْ إنه الفرح بلقاء الله، والشوق إلى لقاء الله، إلى رحمة الله، إلى جنة الله. ولذا لم يطق أبدًا أن يكمل أكل تلك التمرات، وهو يرى أن سببًا عظيمًا من أسباب دخول الجنة شاخص أمام عينيه كالجبل الشامخ، ولذا قرر أن يدع التمرات جانبًا، ويدخل المعركة طمعًا في نيل الشهادة، ويصْدُق عميرٌ الله تعالى فيصدقه الله، ويكتبه شهيدًا عنده.

(١) القَرَن: جعبة النُشّاب أي السهم.

وفي ذلك درس لكل مسلم، وموعظة لكل مؤمن. أنْ يعلم أنَّ الدنيا زائلة، وأن نعيمها منقطع، والآخرة باقية، وكلَّ نعيم فيها دائم، فيؤثر الباقي على الزائل، والدائم على المنقطع، ويتزود من الأعمال الصالحات التي تُثْبت تطلعه إلى الآخرة، وزهده في الدنيا، كما أبان عن ذلك عمير يوم قال: «لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة»، ثم ألقاها، وقاتل حتى قُتل.

تلك هي ـ يا مسلمون ـ حياة الأبرار الصادقين، عِلْمٌ نافع، يتبعه عمل صالح راشد، يورث الله ـ تعالى ـ به عبده جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾[1].

رزقنا الله جميعًا ألسنة صادقة، وقلوبًا خاشعة، وأعمالاً خالصة لوجهه، وأماتنا على محبة الصالحين، وحشرنا في زمرتهم يوم الدين، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

* * *

(١) محمد (٤ ـ ٦).

لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف

لا تزال الأحداث المتوالية، والوقائع المتجددة في المعارك والحروب حيث تَزلْزُلُ الأقدام، وبلوغُ القلوب الحناجر، مما يُميز صدق الصادقين من كذب المنافقين والمخادعين على مَرِّ الأيام وتعاقب الدهور.

والمسلم عندما يلقي نظرة سريعة في مواقف الناس في العهد الأول من الجهاد وتمني الشهادة في سبيل الله ـ تعالى ـ يجد منهم طائفة أخلدت إلى الدنيا، ونسيتِ الله والدار الآخرة، فأنساها الله نفسها، فتاهت في أودية الضلال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وأنت ـ أخي المسلم ـ عندما تقرأ سورة النساء ستقف فيها على بيان صفة من أحط صفات المنافقين، وسِمة من أرذل سماتهم. نعم ستقفُ على ذلك الموقف العجيب من الشهادة في سبيل الله، وذلك ما يبينه لنا الله عز وجل أعظم بيـان: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ۖ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[2].

إن من صفات المنافقين الواضحة أنهم يتخلفون عن المعركة، فإذا أصابت المسلمين مصيبة، وابتُلُوا البلاء الذي يصيب المجاهدين أحيانًا من القتل والجراح، فرح هؤلاء المتخلفون من المنافقين، وحَسِبُوا أن فِرارهم من

(١) التوبة (٦٧).
(٢) النساء (٧٢، ٧٣).

الجهاد، ونجاتهم من ذلك الابتلاء نعمة.

نعم إنه نعمة، لكن عند الذين لا يتعاملون مع الله. عند مَنْ لا يدركون لماذا خلقهم الله. نعمةٌ عند مَنْ لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطىء الأقدام في هذه الأرض، نعمة عند مَنْ لا يوقنون أن البلاء في سبيل الله، وفي الجهاد لإعلاء كلمة الله هو فضل واختيار من الله ـ تعالى ـ يختص به من يشاء من عباده، ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري، ويطلقهم من إسار الأرض، يستشرفون حياة رفيعة، يملكونها ولا تملكهم، وليؤهِلَهم بهذا الانطلاق، وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة، هناك في منازل الشهداء.

وأما إذا كانت الأخرى فانتصر المجاهدون، الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله ـ عز وجل ـ ونالهم فضلٌ من الله ـ تعالى ـ بالنصر والغنيمة ندم هؤلاء المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة رابحة! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة[1].

والله ـ عز وجل ـ يذكرنا في القرآن بهذه الصفة في المنافقين لنحذرها، وإذا رأينا في أنفسنا شيئًا من ذلك أصلحناه قبل أن نندم، ولات ساعة مندم.

ولنا أن ندرك بعد هذه الصفة المرذولة في المنافقين الصفة المضادة لها عند جندي من جنود الإسلام الأوائل، الجندي الذي نذر نفسه لله حتى آخر نفس له في هذه الحياة، حيث كتبه الله ـ تعالى ـ شهيدًا في معركة أحد.

ذلكم هو سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ.

لقد أدرك سعد تلك الصفة الذميمة بتخاذل المنافقين عن الجهاد، وأيقن أن تلك المعركة التي ابتُلي فيها المسلمون ابتلاءً عظيمًا ـ معركة أحد ـ فرصة

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٠٦).

ثمينة لإظهار الصدق مع الله ـ عز وجل ـ ببذل روحه رخيصة في سبيله .

فمن هو سعد بن الربيع؟ وما تفصيل العمل الذي قَدّمه هناك في معركة أحد؟

إنه سعد بن الربيع بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك، بن ثعلبة، بن كعب بن الخرزج، بن الحارث بن الخزرج، الأنصاري الخزرجي البدري، النقيب، الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، فعزم على أن يعطي عبد الرحمن شطر ماله، ويطلق إحدى زوجتيه، ليتزوج بها، فامتنع عبد الرحمن من ذلك، ودعا له، وكان أحد النقباء ليلة العقبة[1].

روى ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن رسول الله ﷺ، قال: «**مَنْ رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟**»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فخرج يطوف في القتلى، حتى وجد سعدًا جريحًا مثبتًا ـ أي لا يتحرك بسبب كثرة جراحه ـ قال: حتى وجدنا سعدًا جريحًا مثبتًا بآخر رمق. فقال: يا سعد! إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: «فإني في الأموات، فأبلغْ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل: إن سعدًا يقول: جزاك الله عني خير ما جزىٰ نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك مني السلام، وقل لهم: إن سعدًا يقول لكم: إنَّه لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عين تطرف».

وعن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: بعثني النبي ﷺ يوم أحد أَطلبُ سعد بن الربيع، فقال لي: «**إن رأيته فأقْرِهِ مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك**»، فطفت بين القتلى، فأصبْتُهُ وهو في آخر رمق،

(١) السير (١/ ٣١٨).

وبه سبعون ضربة، فأخبرته، فقال: على رسول الله السلام وعليك، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يَطْرِف»، قال: وفاضت نفسه ـ رضي الله عنه ـ

أخرجه البيهقي، ثم ساقه بنحوه من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي صعصعة نحو ما مَرّ[١].

وأخرج مالك في الموطأ، في كتاب الجهاد، وابنُ سعد أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ يأتينا بخبر سعد؟**» فقال رجل: أنا، فذهب يطوف بين القتلى، فوجده، وبه رمَق، فقال: بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك، قال: فاذهب فأقْرِهِ مني السلام، وأخبره أنني قد طُعنت اثنتي عشرة طعنة، وقد أُنْفِذَتْ مقاتلي. وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله إن قُتل رسول ﷺ وواحد منهم حي».

قال أبو عُمر بن عبد البرِّ معلقًا على الحديث: لا أعرفه مسندًا، وهو محفوظ عند أهل السِّير، وقد ذكره ابن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة.

قال ابن حجر: «قلت: وفي الصحيح من حديث أنس ما يشهد لبعضه»[٢].

إخوتي الكرام:

ولقد تبوأ سعد ـ رضي الله عنه ـ بهذه الشهادة التي نالها مكانًا عظيمًا

(١) السير (١/ ٣٢٠).
(٢) «الإصابة» (٢/ ٢٧).

عظيمًا، حتى إن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يذكر شهادته ولا ينساها، كما أخرج ما يدل على ذلك الطبراني في معجمه الكبير من طريق خارجة بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع أنها دخلت على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عمر، فسأله عنها، فقال: «هذه ابنة مَنْ هو خير مني ومنك، قال: ومَن هو يا خليفة رسول الله ﷺ؟ قال: «رجل قُبض على عهد رسول الله ﷺ، تبوأ مقعده من الجنة، وبقيت أنا وأنت».

والمتأمل ـ إخوتي الكرام ـ في قصة استشهاد سعد ـ رضي الله عنه ـ يقف على جملة من الدروس والعبر.

* * *

دروس وعبر

١ ـ حرص النبي ﷺ على تفقد أصحابه، والسؤال عنهم. إنه يسأل عن محتاجيهم، ويزور مريضهم، ويتألم لما يصيبهم من الأذى. وفي قصة سعد ـ رضي الله عنه ـ ما يدل على حرصه ﷺ على تفقد شؤون أصحابه، إذ أرسل ـ كما تقدم معنا ـ أحدَ أصحابه لينظر في حال سعد ـ رضي الله عنه ـ وما صار إليه. قيل: إن هذا الصحابي هو زيد بن ثابت، وقيل: هو أُبي بن كعب.

وما فعله النبي ﷺ دعوة لكل راع ومسؤول أن يتفقد أحوال رعيته، فيبحث عن مفقودهم، ويسدَ حاجة فقيرهم، ويهدي حائرهم، ويعلم جاهلهم، ويزور مريضهم، ويصلي على ميتهم، ولو كان في أصغر المراتب الدنيوية. وذلك كله من أسباب النهوض والانتصار؛ لأن الأعداء إذا رأوا التآلف والتلاحم بين القائد وجنوده، وبين الراعي والرعية تحطمت معنوياتهم، ودبّ اليأس إلى قلوبهم، وعرفوا أن التصدي لهم من أصعب الأمور.

٢ ـ بيان المكانة الكبرى التي نالها سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ ويدل على ذلك أمور:

أ ـ صبره على ألم الجراح التي أصابته، إذ لم تَثْنِهِ تلك الجراحات والآلام عن مواصلة الجهاد، والدفاع عن الدين، وعن رسول الله ﷺ حتى فارق الدنيا مضرجًا بدمائه الطاهرة. ولئن أثخنته وأصحابه الجراح، وآلمتهم الطعنات، فقد مسَّ أعداء الله من المشركين مثلها، لكن شتان بين الفريقين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

ب ـ ومن الأمور الدالة على صدق سعدأيضًا: أنه لم يبخل بالنصح والتوجيه حتى وهو يواجه الموت وسكراته، فإنه لما جاءه الرجل من الأنصار يتفقده قال له موصيًا: «أبلغ قومك مني السلام، وقل لهم: إن سعدًا يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلِص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف»، وفي الرواية الأخرى: «قل لقومي من الأنصار: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرِف». وفي رواية الإمام مالك: «وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله، إن قتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي»!

فانظر ـ أخي المسلم ـ إلى حرص هذا الشهيد على الدعوة، وعلى قائد مسيرتها ﷺ رغم الجراح التي أصابته، والتي كان مشغولاً بها.

إنه يرى أن أي اعتداء على محمد ﷺ إنما هو اعتداء على الدعوة نفسها، وأن المؤمن حقًا هو من يؤثر سلامة رسول الله ﷺ على سلامة نفسه، وأن المسلم صدقًا كذلك هو من يتمنى أن توجه الضربات إلى قلبه وبدنه دون أن يصيب رسول الله ﷺ منها شيء.

ألا إنه الحب في أصدق ألفاظه، وأسمى معانيه التي يعجز عن وصفها اللسان، ويكِل في بيانها البنان!

وتلك هي المحبة الصادقة التي نبه عليها رسول الله ﷺ كما ثبت في

(١) ال عمران (١٣٩ ـ ١٤٢).

الصحيحين من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

وفي ذلك التحذيرُ الشديدُ من الركون إلى الدنيا بتقديم محبتها ومحبة ما فيها على محبة الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ، ولذا جاء في التنزيل المجيد: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وما مضى من قصة سعد ـ رضي الله عنه ـ تحذير للناس كلِّهم من مخالفة طريق النبي ﷺ فإنه وإن مات فإن سُنَّتَهُ لم تمت، بل هي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودليل محبته ﷺ بعد وفاته لزوم سنته باتباعها، والعمل بها، ومحبة المتبعين لها، ونصرتهم، والجهاد في سبيل الله لإعلائها، والتخلق بأخلاق من تنسب إليه. تلك هي نصرته ﷺ.

وأما الأقوال والأفعال والتصرفات التي لا يُراعى فيها التزام السنة، فليست من محبة النبي ﷺ في شيء، ولربما وصل صاحبها إلى الشرك وهو لا يشعر.

خـ ـ ومن أدلة المكانة العظمى التي تبوأها سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ قوله قبيل استشهاده: «أجد ريح الجنة» وذلك يمكن أن يُفهم منه أنه وجد ريح الجنة حقيقة، فيكون كرامة من كراماته ـ رضي الله عنه ـ، وذلك جائزٌ وقوعه، كما حصل من أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ قُبيل استشهاده بأحد لما قال: «الجنة وربِّ النضر، إني أجد ريح الجنة دون أُحد».

---

(١) التوبة (٢٤).

والكرامةُ من الأمور التي يؤيد بها الله عز وجل عباده المؤمنين، ليطمئنوا ويَثْبُتُوا، وهي أصل من أصول الاعتقاد المقررة عند أئمة السلف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ومن أصول أهل السنة والجماعة: التصديق بكرامات الأولياء، وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة»[١].

وقال ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن أولياء الله المتقين: «ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيارُ أولياء الله كراماتهم لحجةٍ في الدين أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك»[٢].

٣ ـ إن مكانة المرء عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إنما هي على حسب بذله للدين، ودفاعه عن حياض الإسلام، كما يدل على ذلك هنا ما حصل لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لما دخلت عليه أمُّ سعد بنت سعد بن الربيع ـ رضي الله عنهما ـ فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عمر ـ رضي الله عنه ـ فسأله عنها، فقال: «هذه ابنة مَنْ هو خير مني ومنك»، قال: ومَن هو يا خليفة رسول الله ﷺ؟ قال: «رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ وبقيت أنا وأنت».

وهكذا عَظُم سعد في عين أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ لا لكثرة مال، ولا لرفعة منصب، وإنما لدفاعه عن رسول الله ﷺ، وبذله روحه في سبيل الله حتى استشهد يوم أحد.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥٦).

(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص ٢٩١، ٢٩٢ تحقيق: د. عبد الرحمن اليحيى.

وذلك درس لنا جميعًا أن ننظر إلى الناس على حسب دينهم، وقوة إيمانهم، فنوالي المتقين ونحبَّهم، ولو كانوا فقراءَ لا يملكون من الدنيا شيئًا، ونُبغضَ المحادين لله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ، ولو كانوا في أعلى المناصب، وأرفع الدرجات الدنيوية، وذلك هو أوثق عُرى الإيمان، كما في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة، ومعجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله**».

اللهَ تعالى أسأل أن يجعلنا جميعًا من أهل طاعته، المحبين لأهل الإيمان، المبغضين لحزب الشيطان، إنه أكرم مسؤول، وأعظم مأمول.

* * *

ظليلُ الملائكة

أيها الإخوة الكرام:

الصحابة الأبرار أكرم خَلْقٍ، وأعظم رجال عرفهم التاريخ منذ بزوغ شمس الرسالة المحمدية، على صاحبها صلوات الله وسلامه.

نعم إنهم الباذِلون الأموالَ والمهجَ في سبيل الله.

إنهم رجال المغارم يوم يندس المغمورون في ثيابهم.

إنهم لله تعالى أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، قلوبًا وأبدانًا، دماءً وأموالاً.

حفظوا الشرع الحنيف من أهواء الزائغين، وحَمَوا الملة من زحوف المناوئين، شهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، حَمَلوا الوحيين، وحضروا البيعتين، وصلَّوا إلى القبلتين.

«فأي خصلة خير لم يُسبقوا إليها؟! وأي خطة رشد لم يستولوا عليها؟! تاللهِ لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زُلالاً، وأيدوا قواعد الإسلام، فلم يدعوا لأحدٍ بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد والسنان»[1].

وإن من أعجب صفاتِهم الدالة على صدق نياتهم، وقوة توحيدهم، وتوكُلِهم على ربهم عز وجل أنهم قدّموا جماجمهم، وأسالوا دماءهم، واستعذبوا العذاب في ذات ربهم تعالى.

وشهيد الإسلام الذي سأتحدث عنه الآن ـ إن شاء الله ـ هو واحد من أولئك

(١) عن «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (١/ ٥، ٦).

الأبرار، الذين بذلوا أرواحهم لله حتى آخر نَفَسٍ لهم في هذه الحياة.

ذلكم هو المجاهد الكبير عبُد الله بنُ عمروِ بن حرام، والد الصحابي الجليل: جابر بن عبد الله.

اسمه: عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلَمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن جُشَم بن الخزرج، الأنصاريُّ السلميُّ، أحد النقباء ليلة العقبة.

شهد ـ رضي الله عنه ـ معركة بدر، وحين اقترب موعدُ معركة أُحدُ أخذ قلبه يهفو إلى لقاء الله، فظن أنه مقتول، ولذا دعا ابنه جابرًا ليلة معركة أحد، فأوصاه، وحثه على قضاء دين عليه، وحَرَّصه على أخواته، ليرعى شؤونهن، ويسعى في تربيتهن.

أخرج الإمام البخاري في كتاب الجنائز من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما حضر أُحد دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزَّ عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ وإنَّ عليَّ دينًا، فاقضِ، واستوص بأخواتك خيرًا».

ثم حدث ما ظنه واقعًا عليه، إذ قَتَله المشركون، ثم مَثَّلُوا به.

جاء في رواية البخاري السابقة قولُ جابر: «فأصبحنا، فكان أوّل قتيل».

وثبت في صحيح البخاري كذلك، في كتاب الجهاد، باب ظل الملائكة على الشهيد، عن محمد بن المنكدر أنه سمع جابرًا يقول: «جيء بأبي إلى النبي ﷺ وقد مُثل به، ووضع بين يديه..» الحديث.

ووقع عند الإمام الطبراني بإسناد صحيح عن محمد بن المنكدر كذلك عن

جابر، أن أباه قُتل يوم أحد، ثم مَثّلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه. . الحديث[١].

وكُفن ـ رضي الله عنه ـ في نَمِرَة، وهي البُرْدة من الصوف[٢]، كما يَدُلُّ على ذلك ما أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى بإسناد صحيح[٣]، عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ لما خرج لدفن شهداء أُحد قال: «**زمِّلوهم بجراحهم، فأنا شهيد عليهم**، وكَفّن أبي في نَمِرَة».

وقامت أم جابر ـ رضي الله عنهما ـ فحملت زوجها عبد الله، وأخاها على ناقة، وأقبلت بهما إلى المدينة، فنادى منادٍ: «ادفنوا القتلى في مصارعهم»، فُردا، حتى دُفنا في مصارعهما. أخرج ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى، وأحمد في المسند، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه بسند قوي[٤]، وأخرجه كذلك الترمذي في كتاب الجهاد، وقال: حديث حسن صحيح.

وتأثر جابر ـ رضي الله عنه ـ لمقتل أبيه، فبكاه، وبكته كذلك عمته فاطمة بنت عبد الله بن حرام، فطمأنهما النبي ﷺ عندما أخبرهُما أن الملائكة ما زالت تظلله بأجنحتها حتى رُفع.

أخرج أحمد في المسند، والبخاريُّ في كتاب الجنائز، والمغازي، وكتاب الجهاد، ومسلمٌ في فضائل الصحابة، وغيرهم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: لمّا قُتل أبي يوم أُحدٍ، جَعَلْتُ أكْشفُ عن وجهه، وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني، وهو لا ينهاني، وجَعَلتْ عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: «**تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى**

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢١٧).
(٢) «مختار الصحاح» ص ٦٨٠، مادة (نَمِرَ).
(٣) قاله شعيب الأرنؤوط في تخريجه لأحاديث سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٦).
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٢٥).

رفعتموه».

قال الحافظ ابن حجر في شرح قوله ﷺ: «**تبكيه أو لا تبكيه**»: «ومُحصّلُه أن هذا الجليل القدر الذي تُظلُّه الملائكة بأجنحتها لا ينبغي أن يبكى عليه، بل يفرح له بما صار إليه»[١].

ومن إكرام الله ـ عز وجل ـ لعبد الله، أنه كلمه كفاحًا، كما ثبت ما يدل على ذلك، فيما أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة آل عمران، وابن ماجه في المقدمة من سننه، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأخرجه كذلك في كتاب الجهاد، باب: فضل الشهادة في سبيل الله، وأخرجه الحاكم في المستدرك، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك أن الله كلم أباك كِفَاحًا، فقال: يا عبدي! سلني أعطك، قال: أسألك أن تردني إلى الدنيا، فأُقْتَلَ فيك ثانيًا، فقال: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون. قال: يا ربِّ! فأبلغْ مَنْ ورائي. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾**»[٢].

ومعنى قوله ﷺ: «كِفاحًا» أي: مواجهة ليس بينهما حجاب[٣]، كما صرح بذلك في بعض ألفاظ الحديث السابق، حيث قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيى أباك، فكلمه كِفاحًا..**» الحديث.

ومَنَّ الله ـ عز وجل ـ كذلك على عبد الله بن عمرو بن حرام، فحباه كرامة من

(١) «فتح الباري» (٣/ ١٦٣).
(٢) آل عمران (١٦٩).
(٣) انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (٩/ ٨٧).

كرامات الشهداء، حيث بقي جسده لم يتغير منه شيء، كما يدل على ذلك ما أخرجه مالك في الموطأ، وابن سعد في الطبقات الكبرى بإسناد صحيح، كما قال الحافظ ابن حجرٍ في فتح الباري[١]، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَة أنه بَلَغَهُ أن عمرو بن الجموح، وابنَ حرام ـ رضي الله عنهما ـ كان السيل قد خرب قبرهما، فحُفر عنهما ليُغيَّرا من مكانهما، فوُجدَا لم يتغيرا، كأنما ماتا بالأمس. وكان أحدهما قد جُرح، فَوَضَع يده على جرحه، فدُفن كذلك. فأُميطت يده عن جرحه، ثم أُرسلت، فَرَجَعَتْ كما كانت. وكان بين يومِ أحد، ويوم حُفر عنهما ستٌّ وأربعون سنة.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في البداية والنهاية، وهو يتحدث عن عبد الله بن عمرو، وعن شهداء أحد: «ويقال: إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا»[٢].

إخوتي الكرام:

ولقد تقدم معنا أن عبد الله بن عمرو كان قبيل استشهاده قد أوصى ابنه جابرًا بسداد دين كان عليه، وقد امتثل جابر أمر والده، كما ثبت ما يدل على ذلك في طبقات ابن سعد، ومسند الإمام أحمد، وصحيح البخاري، كتاب المناقب، وكتاب الوصايا، وكتاب الهبة، وكتاب الصلح، وهو كذلك عند الإمام النسائي في كتاب الوصايا، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن أباه توفي، وعليه دين. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فقلتُ: «إنَّ أبي ترك عليه دينًا، وليس عندنا إلا

(١) (٣/ ٢١٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٤/ ٤٤، ٤٥).

ما يُخْرجُ نَخْلُه . . ، فانْطَلِقْ معي لئلا يُفْحِشَ علي الغرماء، قال: فمشى حول بيدر من بيادر التمر ودعا، ثم جلس عليه، فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل الذي أعطاهم»[١].

* * *

(١) هذا لفظ ابن سعد (٣/ ٤٢٥).

دروس وعبر وأحكام

١ ـ إن العبد المسلم إذا صدق مع الله ـ عز وجل ـ في نيل الشهادة، فإن الله ـ تعالى ـ يبلغه أمله، ويوصله إلى مطلوبه كما ثبت ما يدل على ذلك في صحيح مسلم، وسنن الترمذي، وأبي داود، والنسائي، عن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**».

وقد تقدم معنا في قصة مقتل عبد الله بن عمرو بن حرام ما يدل على ذلك، إذ قد ثبت كما عند البخاري في كتاب الجنائز، وعند الحاكم، وابن سعد عن جابر قال: قال أبي: «أرجو أن أكون في أول من يصاب غدًا..» يعني في يوم أحد. وقد حقق الله ـ عز وجل ـ أمنيته الشهادة كما جاء ذلك في رواية البخاري، حيث قال جابر: «فأصبحنا، فكان أول قتيل».

٢ ـ إثبات كرامات الأولياء والصالحين كما تدل على ذلك الروايات الواردة في شأن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ.

ومن تلك الكرامات تظليل الملائكة له، كما يدل عليها ما تقدم معنا من قوله ﷺ: «**تبكيه أولا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه**». وفي حصول هذه الكرامة درسان مهمان:

أولهما: إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من مخلوقات الله الأحياء العقلاء، وفي ذلك ردٌّ صريح على الملاحدة المتفلسفة الذين أنكروا وجود الملائكة، وزعموا أن جبريل عليه السلام خيالٌ في نفس النبي ﷺ، واستندوا في إنكارهم للملائكة، وأن كل واحد منهم جوهر قائم بنفسه، استندوا إلى شبهٍ، قد رد عليها عدد من أئمة الإسلام، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في

كتابه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» والإمام ابن القيم في كتابه «الروح».

وثانيهما: أن في تأييد الملائكة وتظليلها بأجنحتها لعبد الله موعظة بليغة للناس كلهم، أن يلزموا الصراط المستقيم الذي دلهم عليه الكتاب والسنة، لينالوا تأييد الملائكة ونصرتهم كما أيدت عبد الله، وقد قال سبحانه: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. وقال ـ عز وجل ـ في شأن المعرضين عن منهجه: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود، والبيهقي في إثبات عذاب القبر، وصححه[3] عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ في حديثه الطويل، وفيه يقول ﷺ في حق المؤمن الصالح إذا مات: «**وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحَنوط من حَنوطها، فيجلسون منه مَدَّ البصر، فإذا قبضها لم يدعوها في يده طرفة**

(١) النحل (٣٠، ٣١، ٣٢).
(٢) النحل (٢٧ ـ ٢٩).
(٣) وانظر: صحيح سنن أبي داود للألباني (٢/ ٦١٩) برقم (٢٧٥١).

عين، فذلك قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾»[١].

وجاء في الحديث نفسه قوله ﷺ في شأن الرجل الكافر الفاجر إذا مات: : **«جاءه ملك فجلس عند رأسه، فقال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، أبشري بسخط الله وغضبه، فتنزل ملائكة سود الوجوه، معهم مُسوح**[٢]**، فإذا قبضها المَلَك قاموا، فلم يدعوها في يده طرفة عين. قال: فتَفَرَّقُ في جسده، فَيَسْتَخْرِجُها تُقْطع معها العروق والعصب كالسفود**[٣] **الكثير الشعب في الصوف المبلول، فتؤخذ من المَلك، فتخرج كأنتن ريح وجدت، فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة، فيقولون: هذا فلان، بأسوأ أسمائه..»**الحديث.

ومن كرامات عبد الله بن عمرو بن حرام كذلك، أن الله تعالى كلمه كِفاحًا أي مواجهة من غير حجاب كما تقدم معنا، وذلك عندما قال ﷺ كما سبق: **«ألا أخبرك أن الله كلم أباك كِفَاحًا، فقال: يا عبدي! سلني أعطك..»**الحديث، وجاء في بعض الروايات: **«ما كلَّم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيى أباك، فكلمه كِفَاحًا..»**الحديث.

وهذه الكرامة التي حصلت لعبد الله ـ رضي الله عنه ـ فيها إثبات مذهب من مذاهب أهل السنة، وهو أن الله عز وجل لم يزل متكلمًا إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، بكلام يقوم به، وأنه يتكلم بصوت يُسْمَع، وأن نوع الكلام أزلي قديم[٤].

---

(١) الأنعام (٦١).

(٢) جمع مسح وهو الثوب الغليظ الخشن يسمى البِلاس. «مختار الصحاح» ص ٦٢٤.

(٣) الحديدة التي يشوى بها اللحم «القاموس المحيط» ص ٣٦٩.

(٤) موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٣/ ١٢٥٣).

وفيه الرد على الأشاعرة ومن نحا نحوهم مِمَّنْ يَزْعم أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من خلقه، إنما هو خَلْقُ إدراكٍ في المستمع، أدرك به مالم يزل موجودًا، وقد ردّ عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وفَنّد شُبْهَتَهُم هذه وغيرها مما له صلة بكلام الله تعالى وهو موجود في الجزء الثاني عشر من مجموع الفتاوى، فارجع إليه إن شئت.

ومن الكرامات التي حدثت لشهيد الإسلام عبد الله بن عمرو بن حرام ـ رضي الله عنه ـ أن جسده قد بقي لم يتغير منه شيء حتى بعد مضي ست وأربعين سنة كما يدل على ذلك ما تقدم معنا عند الإمام مالك في الموطأ، وابن سعد في الطبقات الكبرى بإسناد صحيح عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، أنه بلغه أن عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام ـ رضي الله عنهما ـ كان السيل قد خرب قبرهما، فحُفر عنهما ليُغيَّرا من مكانهما، فوُجدا لم يتغيرا، كأنما ماتا بالأمس. . إلى قوله: وكان بين يوم أحد ويوم حفر عنهما ست وأربعين سنة.

وقد ثبت كذلك في صحيح البخاري، كتاب الجنائز، ورواه كذلك ابن سعد، والحاكم، ولفظ البخاري عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «. . ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر ـ يعني عمرو بن الجموح ـ فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعتُهُ هُنَيّة، غيرَ أذنه».

ومعنى قوله: هُنَيّة: أي شيئًا يسيرًا، وهو تصغير هَنّة أي شيء، صغره لكونه أثرًا يسيرًا[1].

وهذا الحديث يخالف في الظاهر الحديث المتقدم عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، وقد جمع بينهما ابن عبد البر بتعدد القصة، قال ابن حجر معقبًا:

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢١٧).

«وفيه نظر؛ لأن الذي في حديث جابر أنه دفن أباه في قبر وحده بعد ستة أشهر، وفي حديث الموطأ أنهما وُجِدَا في قبر واحد بعد ست وأربعين سنة، فإما أن يكون المراد بكونهما في قبر واحد قرب المجاورة، أو أن السيل خرق أحد القبرين، فصارا كقبر واحد»[1] ا. هـ

ومن كرامات عبد الله ـ رضي الله عنه ـ كما تقدم في صحيح البخاري، أنه لما قال لابنه جابر ليلة أحد: ما أراني إلا مقتولاً في أول مَنْ يقتل من أصحاب النبي ﷺ فوقع ما رآه، وتحقق ظنه، فكان أول شهيد من شهداء أحد، وتلك ميزة عظيمة يهبها الله ـ عز وجل ـ من يشاء من خلقه، وفيها الدلالة الواضحة على مكانة عبد الله عند الله ـ عز وجل ـ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ونحن ندعو الله عز وجل أن يرزقنا الصدق معه في أمورنا كلها، كما صدق معه عبد الله ابن عمرو بن حرام حتى توفاه شهيدًا، وأن يمنَّ علينا بشهادةٍ في سبيله تحت راية دينه مقبلين غير مدبرين، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

٣ ـ سرعة استجابة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لأمر النبي ﷺ، ذلك أن أم جابر بن عبد الله ـ أنيسة بنت غنمة ـ، لما قُتل زوجها عبد الله حملته على ناقة لتدفنه في المدينة، فلما جاء المنادي، يقول: «ادفنوا القتلى في مصارعهم» استجابت لذلك، وتركته حتى رُدَّ، ودُفن في مصرعه ـ رضي الله عنه ـ.

وتلك منقبة عظيمة لهذه الصحابية الجليلة، إذ استجابت للأمر وأذعنت رغم الألم الذي سيطر على قلبها لما فقدت بعلها، ولسوف تجد ذلك في ميزان

(١) المرجع السابق (٣/ ٢١٦).

حسناتها يوم تنشر الدواوين، ويُحَاسَبُ الناس على أعمالهم: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾(١).

وما فعلته ـ رضي الله عنها ـ دعوة لنا جميعًا أن نستجيب لأمر الله ورسوله ﷺ ولو كنا في أحلك الظروف، وأشد المواقف، إذ الاستجابة في حد ذاتها علامة على صدق الإيمان، وقوة اليقين، ولذا نبه الله عز وجل على أهميتها في القرآن، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾(٢).

وقال: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ۝٤٧ ﴾(٣).

والاستجابة نفسها سبب لتفريج الكروب، واطمئنان الصدور؛ لأنها من التقوى، والله ـ تعالى ـ يقول في شأن المتقي: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(٤) ويقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤ ﴾(٥).

وليُعْلَمْ أن الإعراض عن الاستجابة علامة على اتباع الهوى، ولذا قال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠ ﴾(٦)

(١) الزلزلة (٧).
(٢) الأنفال (٢٤).
(٣) الشورى (٤٧).
(٤) الطلاق (٢ ـ ٣).
(٥) الطلاق (٤).
(٦) القصص (٥٠).

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: وفي قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول ﷺ وذهب إلى قول مخالف لقوله، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى»[(١)].

٤ ـ مشروعية دفن الشهداء في مصارعهم، دل على ذلك ما جاء في قصة الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام ـ رضي الله عنه ـ وذلك عندما أرادت أم جابر أن تحمل زوجها بعد استشهاده لتدفنه في المدينة، فنادى منادٍ: «ادفنوا القتلى في مصارعهم».

يقول ابن قدامة ـ رحمه الله ـ في المغني: «ويُستحب دفنُ الشهيد حيث قُتل. قال أحمد: أما القتلى فعلى حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «**ادفنوا القتلى في مصارعهم**» وروى ابن ماجه، أن رسول الله ﷺ أمر بقتلى أُحد أن يُردُّوا إلى مصارعهم..»[(٢)].

٥ ـ جواز إخراج الميت من القبر لعلة، كما حصل من جابر ـ رضي الله عنه ـ لما أخرج أباه من قبره، لما كان مع عمرو بن الجموح مدفونًا، كما يدل على ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: هل يُخرج الميت من القبر واللحد لعلة؟ وفيه قال جابر ـ رضي الله عنه ـ: «ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضَعْتُه هُنيّة، غير أُذنه» وقال ـ رضي الله عنه ـ كذلك: «دفن مع أبي رجل، فلم تطب نفسي حتى أخرجته، فجعلته في قبر على حدة».

يقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قوله: «باب هل يُخرج الميت من القبر واللحد

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ٣٣).
(٢) «المغني» (٣/ ٤٤٢).

لعلة؟» أي لسبب، وأشار بذلك إلى الرد على من منع إخراج الميت من قبره مطلقًا، أو لسبب دون سبب، كمن خصَّ الجواز بما لو دُفن بغير غُسل أو بغير صلاة، فإن في حديث جابر: قال: «أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي بعدما أُدخل حُفرته، فأمر به فأُخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه»، فيه دلالة على الجواز إذا كان في نبشه مصلحة تتعلق به من زيادة البركة.

وعليه يتنزل قوله في الترجمة: «من القبر» وفي حديث جابر لما قال: «ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر» فيه دلالة على جواز الإخراج لأمر يتعلق بالحي؛ لأنه لا ضرر على الميت في دفن ميت آخر معه.

وقد بين ذلك جابر بقوله: «فلم تطب نفسي» وعليه يتنزل قوله: «واللحد» لأن والد جابر كان في لحد، وإنما أورد المصنف الترجمة بلفظ الاستفهام - يعني قول البخاري: «باب هل يُخرج الميت من القبر واللحد لعلة؟» لأن قصة عبد الله بن أبي قابلة للتخصيص، وقصة والد جابر ليس فيها تصريح بالرفع، قاله الزين بن المنير»[1] ا. هـ.

٦ - بيان أن من توكل على الله تعالى كفاه، وأن من اتقاه جعل له مخرجًا، ويسر أمره، فهذا عبد الله بن عمرو بن حرام يستشهد وعليه دين، فيحزن ابنه جابر لذلك، ويتساءل: كيف يقضي دين أبيه، فيأتي الفرج من الله الذي لا يُخلف وعده، وتقع معجزة من معجزات النبي ﷺ الدالة على نبوته، يكشف بها الله عز وجل البلاء عن جابر وأبيه، إذ قد تقدم معنا عند البخاري وغيره عن

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢١٥).

جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ أن أباه توفي، وعليه دين، قال: «فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أبي ترك عليه دينًا، وليس عندنا إلا ما يَخرج من نخله، فانطلق معي لئلا يُفْحِش علي الغرماء، قال: فمشى حول بيدر من بيادر التمر، ودعا، ثم جلس عليه فقال: «**انزعوه**» فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل الذي أعطاهم».

وهذا دليل واضح كما تقدم على حصول معجزة من معجزاته ﷺ الدالة على نبوته، وهي تكثير القليل إلى أن حصل به وفاء الكثير، وفضُلَ منه.

٧ ـ أن المسلم إذا كان عليه للناس ديون وحقوق فعليه أن يسارع في أدائها إلى أهلها، وإذا جاءه أمر يشغله فعليه أن يوصي أهله وولده بقضائها، كما حصل من والد جابر ـ رضي الله عنه ـ فإنه لما جاءت وقعة أحد، ولم يتمكن من قضاء ما عليه من الدين، وظن أنه مقتول، وجّه الوصية إلى ابنه جابر بقضاء ما عليه من الدين، حيث جاء في رواية البخاري عنه ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما حضر أُحد دعاني أبي من الليل، فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول مَنْ يقتل من أصحاب النبي ﷺ وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك، غير نفس رسول الله ﷺ، وإن علي دينًا فاقضِ..

وهذا هو الشاهد، إذ أوصى ابنه بقضاء دينه رغم ظنه ـ رضي الله عنه ـ أنه أول مقتول في معركة أحد، لما يَعْلَمُهُ من خطورة ترك الدين بدون قضاء حتى على الشهيد، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وسنن البيهقي، ومسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**يَغْفِرُ الله للشهيد كل ذنْب إلا الدين**».

٨ ـ بيان منقبة جليلة من مناقب الصحابي المشهور جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وهي حرصه الشديد على تنفيذ وصية أبيه بقضاء دينه، ورعاية أخواته، فأما حرصه على قضاء دين أبيه، فيدل عليه ما تقدم معنا من سعيه ـ رضي الله عنه ـ

في ذلك، وإخباره النبي ﷺ بالدين الذي على والده، وقوله له: «فانطلق معي لئلا يُفْحِش عليَّ الغرماء».

وأما حرصه ـ رضي الله عنه ـ على تنفيذ وصية أبيه برعاية أخواته، لما قال له قبيل وفاته: «واستوص بأخواتك خيرًا»، فيدل على ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب النفقات عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «هلك أبي وترك سبع بنات، أو تسع بنات، فتزوجت امرأة ثيبًا، فقال لي رسول الله: «تزوجت يا جابر؟»فقلت: نعم. فقال: «بكرًا أم ثيبًا». قلت: بل ثيبًا. قال: «فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكُكَ؟» قال: فقلت له: إن عبد الله هلك وترك بنات، وإني كرهت أن أجيئَهُنَّ بِمِثْلِهِن، فتزوجت امرأة تقوم عليهن، وتصلحهن. فقال: «بارك الله لك»، أو «خيرًا»، فهذا دليل واضح على برِّ جابر بأبيه، وحرصه على تنفيذ وصيته برعاية أخواته، فرضي الله عنه وأرضاه، وأكرمه بالحور العين في جنات النعيم.

٩ ـ بيان مشي الإمام في حوائج رعيته، وحرصه على فعل ما يريح قلوبهم، ويطمئن نفوسهم، فإن جابرًا ـ رضي الله عنه ـ لما استشهد والده عبد الله، كلّم النبي ﷺ في دين أبيه، فمشى معه، ولم يتركه حتى قضاه، وهذا فيه حث لكل راع ومسؤول أن ينظر في شؤون رعيته، ويقضي حوائجهم، فإن الله ـ تعالى ـ سائله عنهم يوم القيامة، فليُرِ كلُّ راعٍ ربَّه من نفسه خيرًا، وليسلك المنهج الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته

الكرام، ومن بعدهم من السَّلف الأبرار، جعلنا الله جميعًا من مُتبعيهم، وأماتنا على محبتهم، وحشرنا في زمرتهم. آمين.

* * *

الشهيد المصلوب

إن المؤمن عندما يتمكن الإيمان من قلبه، ويسيطر على كل ذرة من جسده، ويتغلغل في أعماق روحه ووجدانه، لا يهمه بعد ذلك تسلط المتسلطين، ولا تعذيب الماكرين، حتى لو كان ذلك على حساب إذهاب النفس، وإزهاق الروح، إنه لا يتألم لذلك كله الألم النفسي، لعلمه أن المؤمن يؤجر من ربه عز وجل على كل بلوى تصيبه حتى الشوكة يشاكها، ما دام لله ـ تعالى ـ مخلصًا، ولرسوله ﷺ متبعًا منقادًا.

والحادثة التي تُسطَّر وقائعها الآن ـ إن شاء الله ـ تحكي قصة شهيد من أعظم شهداء الإسلام، وبطل من أعظم أبطاله، نعم.. تروي لنا قصة شهيد سطّر بدمه الزكي تاريخًا إسلاميًا عظيمًا، لن ينسى مهما طال الزمان، وسيصدح ذكره في أرجاء المعمورة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

اسمه: خبيب بن عدي بنِ عامر بنِ مَجْدَعَةَ بنِ جحجَبَا، الأنصاريُّ الشهيد.

ذكره ابن سعد فقال: شهدأُحدًا، وكان فيمن بعثه النبي ﷺ مع بني لحيان، فلما صاروا بالرجيع[1] غَدروا بهم، واستَصرخُوا عليهم، وقَتَلوا فيهم، وأسروا خبيبًا، وزيدَ بن الدَّثِنَة، فباعوهما بمكة، فقتلوهما بمن قَتَلَ النبيُّ ﷺ من قومهم، وصلبوهما بالتنعيم[2].

(١) الرجيع: ماء لبني لِحيان من هذيل، بين مكة وعسفان. انظر: «معجم ما استعجم» للبكري (٢/ ٦٤١).

(٢) التنعيم: موضع بمكة في الحل، بينه وبين مكة فرسخان. انظر المصدر السابق (١/ ٣٢١).

وروى ابن اسحاق عن عاصم بن عُمَر قال: لمّا كان من غَدْر عَضَلَ والقَارَةِ بخُبيبٍ وأصحابِهِ بالرجيع، قَدِمُوا به وزيد بنِ الدَّثِنَة. فأما خُبيبٌ، فابتاعه حُجيرُ بنُ أبي إهَاب لعقبة بنِ الحارث بنِ عامر ـ وكان أخا حُجير لأمه ـ ليقتله بأبيه. فلما خرجوا به ليقتلوه، وقد نصبوا خشبته ليصلُبوه، فانتهى إلى التنعيم، فقال: إن رأيتم أن تدعوني أركع ركعتين. فقالوا: دونَك. فصلّ. ثم قال: وا لله لولا أن تظنوا إنما طولت جَزَعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة. فكان أولَ مَنْ سَنَّ الصلاة عند القتل. ثم رفعوه على خشبته، فقال: «اللهم أحصِهم عدَدًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تغادر منهم أحدًا، اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك، فبلِّغه الغداةَ ما أتىٰ إلينا».

قال: وقال معاوية: كنت فيمن حضره، فلقد رأيتُ أبا سفيانَ يُلْقِيني إلى الأرض فَرَقًا من دعوة خُبيب. وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع زلَّت عنه الدعوة.

وقوله: «وكانوا يقولون»؛ يعني أهلَ الجاهلية، ومقولتهم تلك خُرافة من خرافاتهم الباطلة.

إخوتي الكرام:

وقد رُويت قصة خُبيبٍ هذه بأطولَ مما سبق كما عند الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي وغيره، ورواها كذلك الإمام أحمد في المسند من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بَعَثَ رسولُ الله ﷺ عَشْرَةَ عَيْنًا، وأمّر عليهم عاصمَ بنَ ثابت الأنصاريّ، جَدَّ عاصم بنِ عمرَ بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدْأَةِ بين عُسْفَانَ ومكة، ذُكِرُوا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لِحيان. فنفروا لهم بقريب من مائة رجلٍ رامٍ، فاقْتصُّوا آثارهم حتى وجدوا

مأْكَلَهُمُ التمرَ في منزلٍ نزلوه، فقالوا: تمر يثرب. فاتّبعوا آثارهم.

فلماأحَسّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم. فقالوا: انزلوا، فأَعْطُوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاقُ ألاّ نَقْتُلَ منكم أحدًا. فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم! أمّا أنا فلا أنزل في ذمة كافر، ثم قال: اللهم أَخْبِرْ عنا نبيك ﷺ، فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصمًا.

ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خُبيب، وزيد بن الدَّثِنَة، ورجل آخر. فلما استمكنوا منهم أَطلقوا أَوتار قِسِيهم فربطوهم بها. قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أسوة ـ يريد القتلى ـ فجرروه وعالجوه، فأبى أن يصحبهم.

فانْطُلِقَ بخبيبٍ وزيدِ بن الدَّثِنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارثِ بنِ عامرِ بنِ نوفل خبيبًا، وكان خبيبٌ هو قَتَلَ الحارث بنَ عامرٍ يوم بدر، فَلَبِثَ خُبيب عندهم أسيرًا حتى أَجمعوا قَتْلَه، فاستعار من بعض بنات الحارث مُوسَىٰ يستحد بها، فأعارتْه، فَدَرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ على فَخِذِه، والموسىٰ بيده. قالت: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عرفها خُبيب، فقال: أتخشين أن أقتلَه؟ ما كنتُ لأفعلَ ذلك.

قالت: واللهِ ما رأيتُ أسيرًا قط خيرًا من خُبيب. واللهِ لقد وجدته يومًا يأكل قِطفًا من عِنَب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة. وكانت تقول: إنه لرزقٌ رَزَقَهُ اللهُ خُبيبًا.

فلمّا خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خُبيب: دعوني أُصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتينِ، فقال: والله لولا أن تحسبوا أنَّ ما بي جزع لزدت. ثم قال: «اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تبقِ منهم أحدًا»، ثم أنشأ يقول:

فلست أُبالي حين أُقتل مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزَع

ثم قام إليه أبو سِروَعَة عُقبةُ بنُ الحارِث، فقتله، وكان خبيب هو سَنَّ لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاة، وأخْبَرَ ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ أصحابه يوم أُصيبوا خَبَرهم، وبَعَثَ ناسٌ من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أَنه قُتل أن يُؤتَوا بشيء منه يعرف ـ وكان قَتَلَ رجلاً عظيمًا من عظمائهم ـ فَبَعَث الله لعاصم مِثْلَ الظُلة من الدَّبْر، فحمتْهُ من رُسُلِهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا.

وقوله: الدَّبر: «بفتح الدال مشددة، وسكون الباء هي الزنابير، وقيل: ذكور النحل، ولا واحد له من لفظه»[1].

وقد وقع في رواية للإمام البخاري عن عمرو بن دينار أنه سمع جابرًا ـ رضي الله عنه ـ يقول: «الذي قتل خبيبًا هو أبو سروعة» قال الحافظ ابن حجرٍ معلِّقًا: «قوله: «الذي قَتل خبيبًا هو أبو سِروعة» زاد سعيد بنُ منصور عن سفيان: «وإسمه عقبةُ بنُ الحارث»، ووقع عند الإسماعيلي من رواية ابنِ أبي عُمَرَ عن سفيان مُدْرَجًا، وهذا خالف فيه سفيانُ جماعةً من أهل السِّيَر والنسب، فقالوا: أبو سِروعة أخو عُقبةَ ابن الحارث، حتى قال أبو أحمدَ العسكريّ: مَنْ زعم أنهما واحد فقد وَهِمْ. وذكر ابنُ إسحاق بإسنادٍ صحيح عن عقبة بن الحارث قال: «ما أنا قتلت خُبيبًا؛ لأني كُنتُ أصغر من ذلك، ولكنَّ أبا ميسرة البدري أخذ الحربة، فجعلها في يَدِي، ثم أخذ بِيَدِي وبالحربة، ثم طَعَنه بها حتى قتله»[2]. انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

* * *

(١) فتح الباري (٧/ ٣٨٤).
(٢) المرجع السابق(٧/ ٣٨٥).

دروس وعبر

وفي قصة استشهاد خُبيب بن عدي ـ رضي الله عنه ـ جملة وافرة من الدروس والعبر لمن تأمل، أجملها في الأمور التالية:

١ـ الكشف عن أمر عظيم تأصل في نفوس المشركين، وهو أنهم في الغالب لا عهد لهم ولا ذمة؛ ذلك أن خبيبًا وزيدَ بن الدَّثِنَة، لمَّا أحاط بهما وببقية صَحْبهم نفرٌ من المشركين يقال لهم: بنو لِحيان، قال أولئك النفر لهم: «انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدًا»، فنزل إليهم ثلاثةُ نفر منهم خبيب وزيد، فما الذي فعله أولئك المشركون؟ لقد نقضوا العهد الذي أعطوهم إياه بعد أنِ استمكنوا منهم، فأطلقوا أوتار قِسِيهم، فربطوهم بها!

وهذه هي طبيعة الكافرين المحَادِّين لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ كما أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾[1].

ولمّا كان موقف الكافرين من المؤمنين نقضُ العهد، ونكثُ الميثاق، بيّن سبحانه الموقفَ منهم، وهو قتالهم والتصدي لهم، فحث على ذلك، وهيّج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صَدَرَتْ من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون

(١) سورة التوبة: (٨/ ١٠).

بها، المقتضيةِ لقتالهم، فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[1].

٢ـ ومن الدروس: أنَّ في امتناع الصحابي الجليل عاصم بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ من النزول في ذمة الكفار من بني لحيان دليلاً على أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يُمَكِّنَ من نفسه ولو قُتل، أنَفَةً من أن يجري عليه حكمُ كافر، وهذا إذا أراد الأخذَ بالشدّة كما يقول الحافظ ابن حجر، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يَسْتَأمِن، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك[2].

٣ـ أن العبد عندما يكون معتصمًا بالله ـ تعالى ـ، متوكّلاً عليه، كثير اللجوء إليه، فاعلاً للأسباب، مقبلاً على الآخرة فإنه يأتيه رزقه من حيث لا يحتسب، وتلك هي صفة خبيب ـ رضي الله عنه ـ كما جاء في رواية البخاري أن إحدى بنات الحارث[3] قالت: والله لقد وجدته يومًا يأكل قِطْفًا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة. وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبًا، وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا

(١) سورة التوبة: (١٢/ ١٥).

(٢) «فتح الباري»(٧/ ٣٨٤).

(٣) في بعض الروايات أن اسمها زينب بنت الحارث. انظر: «فتح الباري»(٧/ ٣٨٢).

يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١]، ويقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾[٢].

وهذه الحقيقة التي قرّرها الله عز وجل في كتابه، هي ما ينبغي لكل مسلم أن يوقن بها، ويثق بربه، ويتوكل عليه، ويعلمَ جيدًا أنه لا مانع لِما أعطى الله، ولا معطي لِما مَنَع، وما عليه بعد التقوى إلا أن يفعل السبب، وسيرزقه ربُّه كما رزق عبده خبيبًا، وسوف تتيسّر أموره كما تيسرت أمور خُبيب.

وماذا يريد المرء المسلم أكثر من التيسير، والتيسير في الأمور هو غاية ما يرجوه الإنسان، حيث لا عنت ولا مشقة، ولا عسر، ولا ضِيقة؛ يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها ويعيش مِنْ هذا في يسرٍ رخيّ نَدِيّ، حتى يلقىٰ الله تعالى[٣].

وإن ما حصل لخُبيب ـ رضي الله عنه ـ من الرزق، وهو السجين المقيد ليدعونا جميعًا نحن المسلمين أن نعقد بالله تعالى الأمر كله، وأن نتوجه إليه بالأمر كلِّه، وأن نراقبه ونَتَقِيَه، لأن الأمَر كلَّه إليه، وهو المانح المانع، القابض الباسط، وبيده الضيق والفرج، والعسر واليسر، والشدة والرخاء[٤]. فاللهم يارحمن يارحيم مُنَّ علينا بالإنابة إليك، والتوكل عليك، وارزقنا قلوبًا تطمئن بذكرك، وألسنةً لا تسأل الرزق إلا منك وحدك.

٤ـ ومن الفوائد المتعلقة بالفقرة السابقة: أن في الرزق الذي ساقه الله تعالى لخبيب ـ وهو مقيد أعني ذلك القِطفَ من العنب ـ إن في ذلك بيانًا لأصل

(١) سورة الطلاق(٢، ٣).
(٢) سورة الطلاق(٤).
(٣) الظِلال.
(٤) المرجع السابق.

من أصول أهل السنة، وهو إثبات الكرامات، وهي الأمور الخارقة للعادة، يجريها الله تعالى على يد وليٍّ من أوليائه، معونةً له على أمر دنيوي أو ديني، قال الإمام الطحاوي: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحّ عن الثقات من رواياتهم».

ولا يعني إثباتُها أن يحرص المرء على حصولها، ويَحْزَن لفقدها، ولذا قال ابن أبي العز الحنفي نقلاً عن الشيخ شهاب الدين، عمرَ بنِ محمدِ بنِ عبد الله السَّهْرَوَرْدِيِّ البغداديّ، المتوفَّىٰ سنة اثنتين وثلاثين وستمائه، أنه قال في كتابه «عوارفُ المعارف»: «وهذا أصل كبير في الباب، فإن كثيرًا من المجتهدين المتعبدين، سمعوا بالسلف الصالحين المتقدمين، وما مُنحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فنفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يُرزقوا شيئًا منه، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهِمًا لنفسه في صحة عمله، حيث لم يحصل له خارق، ولو علموا بِسرِّ ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلمُ أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابًا، والحكمةُ فيه أن يَزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينًا، فيقوىٰ عزمه على الزهد في الدنيا، والخروجِ عن دواعي الهوى. فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة»[١].

وقال الإمام أبو علي الجوزجاني: «كن طالبًا للاستقامة، لا طالبًا للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة»[٢].

والمقصود أن العبد إن حصلت له الكرامة كما حصلت لخبيب، فإنه يحمد ربه على هذه النعمة، ويحذر من العجب والغرور؛ إذ قد يدخل الشيطان عليه،

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٥.
(٢) المرجع السابق.

وإذا لم تحصل للعبد الكرامة فالواجب هنا ألا يطلبها، ويسعى إليها، وإنما يسأل ربه ـ عز وجل ـ الثبات والاستقامة، وإنه إذا صدق مع الله ـ جل وعلا ـ فربما وهبه الله ـ عز وجل ـ من البصيرة في الدين، والصبر على الابتلاء ما هو أحسن بكثير من حصول الكرامة، فيكون قلبه مطمئنًا بذكر الله ـ تعالى ـ سعيدًا بما وهبه الله ـ تعالى ـ إياه من الصبر ونزول السكينة والطمأنينة، خاصة عند الابتلاء، كما حصل ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عند ابتلائه، حيث كان يقول: «أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة». رزقنا الله جميعًا الصدق والإنابة، وجنبنا طريق الهوى والغواية، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

٥ـ بيان الإيمان العميق الذي تمكن من قلب الصحابي الشهيد خُبيب بن عدي ـ رضي الله عنه ـ، والكشف عن الصبر العجيب الذي اتصف به خُبيب عندما كان يواجه أحلك الظروف، وأقسىٰ اللحظات. نَعَمْ عندما كان يواجه الموت بكل غصصه وآلامه وفجائعه، فما تلكأ، ولا تخاذل، ولا استسلم للمطالب الكفرية، ولا ابتغى من الدنيا عرضًا قليلاً ولا كثيرًا، إنما أراد الصلاة، الصلاة التي تربطه بسيده ومولاه، أراد الصلاة لتكون لحظاته الأخيرة مناجاة الرحمن ـ تبارك اسمه ـ بكلمات يشع منها النور، وتنبثق منها الحكمة والموعظة، وتنزل على الناطق بها السكينة والطمأنينة.

نعم دخل في الصلاة بادئًا إياها بقوله: الله أكبر! فَتَنزِلُ على قلبه بردًا وسلامًا، فيواجه الموت حينئذ بقلب مطمئن، ونفس راضيةٍ بقَدَرِ الله.

تقول الرواية في ذلك:

«فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحِلّ، قال لهم خُبيب: دعوني أُصلي

ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تَحْسَبُوا أنَّ ما بي جزع لزدت . . . »وهنا أطلق عددًا من أبيات الشعر، يبين فيها موقف المؤمن أمام الأهوال والشدائد:

فلستُ أُبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أجزاء شِلوٍ[1] ممزع

وذكر ابن هشام في السيرة زيادةً في هذا الشِعْر، ومنه قوله:

لقد جَمَّعَ الأحزابُ حولي وألَّبُوا ... قبائلهم، واستجمعوا كُلَّ مَجْمَع
إلى الله أشكو غُربتي ثم كُربتي ... وما أرصد الأحزابُ بيْ عند مَصْرَعي
فذا العرش صَبِّرْني على ما يُراد بي ... فقد بضَّعُوا لحمي وقد يَاسَ مطمعي
وكُلُّهُمُ مبدي العداوةِ جاهدٌ ... عَلَيَّ لأني في وَثاقٍ بمضيَعِ
وقد خيّروني الكفر والموتُ دونَهُ ... وقد هَمَلَتْ عيناي من غير مجزعِ
وما بيْ حذارُ الموتِ إني لَميّتٌ ... ولكنْ حِذَاري جحم نار ملفعِ
فو الله ما أرجو إذا مِتُّ مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي
فلست بمبدٍ للعدو تخشعًا ... ولا جَزَعًا، إني إلى الله مرجعي[2]

هكذا نرى موقف المؤمن الصادق أمام المِحن، وإنه لدرس عظيم لكل دارس، وموعظة بليغة لكل متعِظ.

٦ـ الكشف عن الحقد الدفين، والحسدِ الواضح الذي امتلأت به قلوب الكافرين ضد المؤمنين المجاهدين. يُبين ذلك من قصة خبيب ـ رضي الله عنه ـ ما جاء في رواية الإمام البخاري وغيره: «أن ناسًا من قريش بعثوا إلى عاصم بن

(١) الشلو: الجسد. انظر: «مختار الصحاح» للرازي ص ٣٤٥.
(٢) سيرة ابن هشام(٢/ ١٧٦)، وقال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له. أي لخبيب.

ثابت حين حُدثوا أنه قُتل أن يُؤتَوا بشيء منه يعرف . . »فلم يكتفوا بقتله، بل أرادوا التمثيل به، بقطع شيء من جسده بعدما قُتل، ألا إنه الغيظ الكبير، والمكر الكُبّار الذي انطوت عليه قلوب الكافرين ونفوسُهم، وصدق الله: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[١]، ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ ﴾[٢].

وإذا علم المسلم بذلك الكيد والمكر الذي يسعى به أعداؤه ضده، فليس معنى ذلك أن يظلمهم أو يعتدي على المعاهدين منهم[٣]، كلاّ، إنما المقصود هنا أن ندفع كيدهم، ونتقي أذاهم بالصبر والتقوى كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[٤].

يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية: «يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره، ومشيئتِه، ومن توكل عليه كفاه.

وليعلمْ كل مسلم أن الله ـ تعالى ـ عليم بما تنطوي عليه ضمائر القوم، وتُكنه سرائرهم مِنَ البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وسوف يجازيهم ـ سبحانه ـ على ذلك في الدنيا بأن يُريَهم خلاف ما يأملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديدِ في

(١) سورة آل عمران: ١١٨.
(٢) سورة آل عمران: ١١٩.
(٣) لحرمة الاعتداء على الذمي والمعاهد كما نص على ذلك الفقهاء، انظر «المغني»(١٣/ ١٥٣/ ١٥٩).
(٤) سورة آل عمران: ١٢٠.

النارِ التي هم خالدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها[١]، رزقنا الله جميعًا سلوك صراطه المستقيم، وجنبنا طريق أعدائه الضالين، وعمّنا جميعًا برحمته الواسعة، إنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين.

٧ـ جواز دعاء المسلم على غيره إذا اعتدى عليه، فإن خبيبًا لمّا آذاه المشركون، وعزموا على قتله دعا، فقال: «اللهم أَحصهم عددًا، واقتلهم بَدَدًا(أي متفرقين[٢]) ولا تبقِ منهم أحدًا».

ولقد أثار دعاؤه ـ رضي الله عنه ـ فزع القوم، وقَلْقَلَهُمْ، وأَقْلَقَهُمْ، كما يدل على ذلك ما وقع في رواية بريدة بنِ سفيان: «فقال خُبيب: اللهم إني لا أجد من يبلِّغ رسولك مني السلام، فبلِّغْه» وفيه: «فلمّا رُفع على الخشبة استقبل الدعاء، قال: فلَبَدَ رجل بالأرض خوفًا من دعائه، فقال: «اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا»،[٣] وحكى ابن إسحاقَ عن معاويةَ بن أبي سفيان قال: «كنتُ مع أبي، فجعل يلقيني إلى الأرض، حين سمع دعوة خبيب» وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع، زلت عنه الدعوة؛ يعني أهل الجاهلية، وهي خرافة من خرافاتهم كما تقدم بيانه في درس متقدِّم.

وخوف القوم من دعوة خبيب ـ رضي الله عنه ـ دليل على أنهم عالمون بظلمهم له، مستيقنون بأن عاقبته وخيمة، ونهايتهُ مردية. والواجب على المسلمين كلهم إذا تعرض أحدهم منهم لسوء من قبل أعداء الله، وأعداء رسوله ﷺ أن يدعُوَ عليهم، كما ثبت ذلك من فعل النبي ﷺ إذ أخرج البخاري في صحيحه في كتاب المغازي من حديث أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: «دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا

(١) انظر: «تفسير ابن كثير»(١/ ٣٩٩).
(٢) انظر: «فتح الباري»(٧/ ٣٨٣).
(٣) المرجع السابق.

أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، حين يدعو على رعل ولحيان، وعصية، عصت الله ورسوله ﷺ . . . » الحديث.

٨ـ أن المؤمن أمين لا يخون، وَفِيٌّ لا يَغْدِر، وهذا ما نَلْمَسُهُ من قصة خُبيب ـ رضي الله عنه ـ حيث جاء فيها أنه لمّا كان أسيرًا عند بني الحارث، استعار من بعض بنات الحارث موسىٰ يَستحدّ بها، فأعارته، فدرج بني لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجْلِسَه على فخذه والموسى بيده. قالت: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عرفها خُبيب، فقال: أتخشين أن أَقْتله؟ ما كنتُ لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيت أسيرًا قطّ خيرًا من خُبيب.

وهكذا نجد الفرصة سانحةً لخبيب ليقتل ولدًا من أولاد المشركين، فيأبى عليه إسلامه وأمانته رغم ظلمهم له، وسعيهم في قتله! ألا إنه الإسلام الذي يربي في نفوس أبنائه الأمانة والوفاء، فأكرِمْ بها من خِصال عظيمة، وأخلاق فاضلةٍ تفوق الوصف، وهي ما سوف يبقىٰ مشيرًا إلى عدالة الإسلام وسماحته، على مر العصور، وتعاقب الدهور. رزقنا الله جميعًا الاعتزاز به والثبات عليه إلى يوم نلقاه.

٩ـ الكشف عن علامة من علامات النبوة، ومعجزةٍ من معجزات النبي ﷺ؛ ذلك أنه لمّا أُصيبَ خُبيبٌ وعاصم أَخبر النبيُّ ﷺ أصحابَهُ بذلك، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في رواية البخاريّ حيث جاء فيها: «وأَخبَر النبيُّ ﷺ أصحابَه يوم أُصيبوا خبرهم».

وهذا الحَدَث يكشف بوضوح لكل من أراد البحثَ عن الحق والطريق المستقيم، أن محمدًا ﷺ نبيُّ الله ـ تعالى ـ حقًا وصدقًا، وأنه يُوحى إليه من رب العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء كما قال ـ تبارك

اسمه ـ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾(١)، وقال ـ جل شأنه ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾(٢)، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(٣).

وإن ظهور هذه المعجزةِ من معجزاته ﷺ ليدعو كلَّ معرضٍ عن الإسلام والإيمان إلى الدخول في هذا الدين، والانضمام إلى ركب المصدقين بالله ورسله واليوم الآخر، لينال من الأجر مثلَ ما ناله السابقون: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾(٤).

وإنَّ من رأى الحق، واتضحت له دلائله وعلاماته فلم يؤمنْ فإن العقاب ينتظره، وقد يؤجَّلُ إلى حين لكنَّه لن يفلت منه بحال، ولن يجد مَوْئِلاً لفرار، ولن يكون أشدَّ قوة ممن كذّب من السابقين؛ لقد أخذهم الله بذنوبهم، وجعل أخذهم عبرة لمن بعدهم. والأرض هي الأرض، تحكي لكل جيل ما جرى عليها، وما وقع فيها، وفي آثار مَنْ كَذّبوا بآيات الله، ومعجزاتِ رسله، صمتٌ رهيب، ترتجف منه القلوب، وتخشع النفوس. ومن لم يعتبرْ بما يَرى من بوارٍ فليس له من جزاءٍ إلا النار(٥)، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

(١) سورة آل عمران: ٤٤.
(٢) سورة الكهف: ١١٠.
(٣) سورة الأنبياء: ١٠٨.
(٤) سورة المائدة: (٨٣/ ٨٥).
(٥) «حديث القرآن عن القرآن» للشيخ محمد الراوي ص(١١٦، ١١٧).

ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾[١]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢].

تلك هي سنة الله ـ تعالى ـ في المكذبين المعاندين، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

١٠ ـ وفي قصة خُبيب ـ رضي الله عنه ـ بيانٌ بإجابة الله ـ تعالى ـ لدعائه، حيث جاء في رواية ابن هشام أن خبيبًا لمّا وضعه الكفار على خشبته ليقتلوه، قال: «اللهم إنّا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلِّغه الغداة ما أتىٰ إلينا»، وفي رواية البخاري جاء بيانُ استجابة الله ـ عز وجل ـ لهذا الدعاء الذي دعا به خبيب، قال الراوي: «وأخبر ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ أصحابَه يوم أُصيبوا خبرهم».

ولمّا دعَا ـ رضي الله عنه ـ على القوم أُجيبت دعوته كذلك، كما تدل على ذلك رواية بريدةَ بن سفيان: «فلمّا رُفع علىٰ الخشبة استقبل الدعاء. قال: فلَبَدَ رجل بالأرض خوفًا من دعائه. فقال: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بَدَدًا»، قال: فلَمْ يحُلِ الحول ومنهم أحد حيٌّ غيرَ ذلك الرجل الذي لبد بالأرض»[٣].

وهكذا نرى استجابة الله ـ تعالى ـ لمن يُقبلُ عليه من عباده متضرعًا خاشعًا مخبتًا: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٤].

١١ ـ ومن الدروس والعبر: الكشف عن مَنْقَبَة من مناقب الصحابي الجليل عاصمِ بنِ ثابتٍ ـ رضي الله عنه ـ ذلك أن الكفار لمّا قالوا له ولأصحابه: لكم

(١) سورة المائدة: ٨٦.
(٢) سورة غافر: ٢٢.
(٣) «فتح الباري»(٧/ ٣٨٣).
(٤) سورة النمل: ٦٢.

العهد والميثاق ألاّ نقتل رجلاً منكم، قال ـ رضي الله عنه ـ: «أمّا أنافلا أَنْزِلُ في ذمة كافر»، وفي مرسل بريدةَ بنِ سفيان، عن سعيد بن منصور «فقال عاصم: اليوم لا أقبل عهدًا من مشرك، ثم قال: اللهم أخبر عنّا نبيك..» وفي بعض الروايات أنه جعل يرميهم ويقول:

ما عِلّتي وأنا جَلْدٌ نابلُ والقوس فيها وَتَر عُنَابِلُ[1]

تقول رواية البخاري: «فقَاتَلوهم حتى قَتَلوا عاصمًا في سبعة نفرٍ بالنبل» فمات ـ رضي الله عنه ـ شهيدًا. واستجاب الله تعالى دعاءه كما استجاب دعاء خُبيب، كما تدل على ذلك رواية الطيالسي عن إبراهيم بنِ سعد «فاستجاب الله لعاصم، فأخبرَ رسولهُ ﷺ خبرَه، فأخبرَ أصحابَهُ بذلك». وفي رواية بُريدة: «فقال عاصم: اللهم إني أحمي لك اليوم دينكَ، فاحمِ لي ديني». وفي رواية البخاري بيانٌ باستجابة الله تعالى لدعوة عاصم، حيث جاء فيها: «وبَعثَ ناسٌ من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدّثوا أَنه قُتِل أن يُؤتَوا بشيء منه يُعرف ـ وكان قَتَلَ رجلاً عظيمًا من عظمائهم ـ فبعث الله لعاصم مِثْلَ الظُلة من الدَّبْر، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا»!

فانظر ـ أخي المسلم ـ كيف كان أصحابُ محمد ﷺ يلجؤون إلى ربهم، وانظر كيف يدافع الله ـ عز وجل ـ عن أوليائه، ويستجيب دعاءهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾[2].

١٢ـ وأختم هذه الدروس والعِبر المستفادة من قصة استشهاد خبيب ـ رضي الله عنه ـ بالقول: إنَّه ينبغي لكل مؤمن يرجو الله واليوم الآخر أن يتألم

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير(٨/٢٥٩). قال ابن الأثير في معنى(عُنابل): أي الغليظة.

(٢) سورة الحج: ٣٨.

قلبه، وتدمع عيناه إذا فَقَدت أمة الإسلام عَلَمًا من أعلامها المخلصين الصادقين، فإن خبيبًا ـ رضي الله عنه ـ لما قتله الكافرون قام شاعر الإسلام والدعوة في ذلك الوقت، حسانُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ يعزي المسلمين في فقده، ويبكيه، ويقول:

ما بالُ عينك لا تَرْقَا مدامِعُها ... سَحًّا على الصدر مِثْلَ اللؤلؤ القَلِقِ[١]

على خُبيبٍ وفي الرحمن مصْرَعُهُ ... لا فَشِلٍ حين تلقاه ولا نَزِقِ[٢]

فاذهبْ خبيبُ جزاك الله طيبةً ... وجنةَ الخلد عند الحُور في الرفق[٣]

ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ... حينَ الملائكةُ الأبرارُ في الأفُقِ

فيم قتلتم شهيدَ الله في رَجُلٍ ... طاغ قَدَا وْعَثَ في البلدان والطُرُقِ

وينسب كذلك لحسان قولُه يبكي خبيبًا:

يا عين جودي بدمع منك منسَكِب ... وابكي خبيبًا مع الفتيان لم يَؤُبِ

صقرًا توسط في الأنصار مَنْصِبُه ... سمح السجية محضًا غير مؤتَشِبِ[٤]

قد هاج عيني على عِلات عَبْرتها[٥] ... إذ قيل نُص إلى جذع من الخَشَبِ

يا أيها الراكب الغادي لِطَيّتِهِ ... أبلغْ لديك وعيدًا ليس بالكذبِ

بني كُهيبةَ أن الحرب قد لَقِحَت ... مَحْلوبُها الصابُ إذ تُمرى لِمُحْتَلَبِ[٦]

---

(١) القَلِق: المتحرك الساقط.

(٢) الفشِل: الجبان الضعيف، والنزِق: السيىء الخُلُق.

(٣) الرُفق: جمع رفيق.

(٤) مؤتشب: مختلط.

(٥) عِلات: مشقات.

(٦) الصاب: العلقم. تُمرى: تمسح.

فيها أسود بني النجار تقدمهم شهب الأسنة في مُعْصَوْصَبٍ[١] لَجِبِ[٢]

وبعدُ: فجزى الله حسان خيرًا على ما قال، ورحم الله شهيد الإسلام خبيب ابن عدي، ورزقنا الله ـ تعالى ـ اقْتِفاء سيره، وحشرنا معه في زمرة الشهداء الصادقين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

(١) المعصوصب: الجيش الكثير. لجب: الكثير الأصوات. انظر سيرة ابن هشام (٦٢/ ١٧٧/ ١٧٨) «الهوامش» شرح مصطفى السقا وزملائه.

(٢) «ديوان حسان بن ثابت» (١/ ٢١٣/ ٣٧٠)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٧٧/ ١٧٨)، وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم ينكر هذه الأبيات لحسان.

غسيل الملائكة

الحياةُ الدنيا كلُّها أيام قليلة، ولحظات معدودة، تمضي سريعةً لا يَشْعُرُ المرءُ بها، وحالها بالنسبة للآخرة كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾(١)، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾(٣).

وقرر سبحانه ذلك فيما حكاه عن ذلك العبد الصالح عندما توجّه إلى قومه بالنصح والموعظة، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾(٤). وقال سبحانه: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(٥).

نعم تلك هي الحياة الدنيا في عمومها، إنها ليست إلا لهوًا ولعبًا، حين لا يُنظر فيها إلى الآخرة، حين تكون في الغاية العليا للناس. حين يصبح المتاع فيها هو الغاية من الحياة، فأما الحياة الآخرة فهي الحيوان، أي هي الحياة الدائمةُ التي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، ولو كان الناس يعلَمون ذلك لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

(١) سورة الرعد: ٢٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٤.
(٣) سورة التوبة: ٣٨.
(٤) سورة غافر: ٣٩.
(٥) سورة العنكبوت: ٦٤.

والناس في هذه الحياة ما بين شقيٍّ، قد أشقىٰ نفسه، فاتّبع هواه، وانشغل بدنياه، ونسي آخرته، وفرّط في جنب الله، فياليت شعري ما حال هذا في الآخرة؟ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1].

نعم الناس في هذه الحياة ما بين هذا الشقيّ الخاسر، وذلك السعيد المنتصر على هواه، المتبع للحق والنور، لقد استضاء قلبه بطاعة مولاه، واطمأنت نفسه بذكر الله، واستقرت حقيقة الدنيا والآخرة في نفسه، وعمرت قلبه، واختلطت بدمه، وجرت في عروقه، ولم تَعُدْ كلمةً يقولها بلسانه فقط، بل صارت عملاً نفّذه بصموده وتضحياته.

وتلك هي السعادة الحقيقية ـ يا مسلمون ـ حياة البذل والتضحية، حياة الجهاد والدعوة، حياة الصبر. الحياةُ التي لا يُرى فيها المسلم إلا صادقًا مخلصًا، وخاشعًا منيبًا، ومناضلاً باسلاً، يؤثر ما عند الله، ولو كان ذلك على حساب فَقْد اللذة والمُتعة، ولو كان ذلك كذلك على حساب نزيف الدم، وتعدد الجراح والآلام.

وتلك هي حال الصحابي الجليل، والشهيد الكبير، حنظلةَ بن أبي عامر ـ رضي الله عنه ـ أبوه أبو عامر، عمرو بنُ صَيْفِيّ بنِ زيد بن أمية بن ضُبَيْعة، ويقال إن اسم أبي عامر: عبدُ عمرو بنُ صيفي بنِ زيد بن أُمية، وينتهي نسبه إلى

(١) سورة طه: ١٢٤/ ١٢٧.

عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة الأنصاريِّ الأوسي[١].

وأبو عامرٍ هذا هو الذي يُعرف بالراهب في الجاهلية، وكان هو وعبدُ الله ابنُ أُبي بنِ سلول قد حسدا رسول الله ﷺ على مامَنَّ الله به عليه، فأما عبد الله بن أُبيّ فأضمر النفاق، وأما أبو عامر فخرج إلى مكة، ثم قدم مع قريش يوم أحد محاربًا، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق. أخرج ذلك ابن إسحاقَ والواقديُّ، وابن سعد، لكن رواياتِهم وردت من طرق لا تخلو من مقال[٢].

ولمّا رأى حنظلة ـ رضي الله عنه ـ ما عليه أبوه من الكفر والعناد، آلمه ذلك أشد الألم، فتبرأ من أخلاق أبيه الشائنة، وأفعاله القبيحة، وهمَّ أن يقتله، فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، أخرج ابن شاهين بإسناد حسن[٣] إلى هشام بن عروة عن أبيه، قال: «استأذن حنظلة بنُ أبي عامر، وعبد الله بنُ عبدِ الله بنِ أبيّ بن سلول في قتل أبويهما، فنهاهما عن ذلك».

وقد كان من حال أبيه أبي عامر أنه لما فتحت مكة هرب إلى بلاد الروم، وأقام عند هِرَقْلَ حتى مات كافرًا سنة تسع، وقيل سنة عشر، وكان معه كنانة بنُ عبدِ يالِيْل، وعلقمة بنُ عُلاثَة، فاختصما في ميراثه إلى هرقل، فدفعه إلى كنانة، وقال لعلقمة: هما من أهل المدر، وأنت من أهل الوبر. تلك هي حال أبي حنظلة. أما حنظلة نفسه فقد رأى الحق، والنور الذي جاء به رسول الله ﷺ؛ ولذلك أسلم، فحسُن إسلامه، وأقبل على الله ـ تعالى ـ بخشوع وانكسار، وترك حياة الجاهلية، وما فيها من وثنية وضياع، وأنهى قصة الصراع المحتدم في نفسه، بين فطرته التي تفتحت للحق، ورأت فيه روحها، وأملها،

(١) أسد الغابة(٢/ ٨٥، ٨٦).

(٢) «السيرة النبوية في ضوء المصادرالأصلية» لمهدي رزق الله ص ٦٥.

(٣) الإصابة(١/ ٣٦١).

ومصيرها، وطمأنينتها. نعم بين هذه الفطرة، وتلك الجاهلية الصاخبة المتناقضة الهابطة التي تخيم على المجتمع. لقد دخل النور في قلبه، فأضاء له الظلمات. إنها نعمة جديدة، ورضى شامل، ورحمة واسعة، وإنسانية حقة، وحياة كريمة طافحة بالخير. كل ذلك أطيب من فاكهة الجاهلية المحرمة، وألذ من نعيم الضلالة الظالمة. ومن أجل ذلك خلع حنظلة ـ رضي الله عنه ـ على عتبة الإسلام كل جاهلية.

وتهيأ حنظلةُ للمهمة الكبرى، وحفظ اللهُ ـ تعالى ـ به وبأصحابه المِلةَ من أهواء الزائغين، وزحوف المناوئين، وحَفِظَ حنظلةُ اللهَ ـ تعالى ـ فحفظه اللهُ، ولجأ إلى الله ـ تعالى ـ فأكرمه، وسدد خطاه.

وتأتي الساعة الحاسمة، ويخرج المؤمنون إلى لقاء المشركين في أحد، ويُبتلىٰ المؤمنون ابتلاء شديدًا، ويسقط عدد كبير منهم شهداء، وييسر الله ـ تعالى ـ أن يكون حنظلة واحدًا من هؤلاء الشهداء، وتحصل له كرامة لنْ تُنسى مهما طال الزمان.

أخرج ابن إسحاق، والبيهقي، والحاكم في المستدرك، في كتاب معرفة الصحابة عن يحيى بن عبَّاد بنِ عبد الله، عن أبيه عن جده، ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عندما قتل حنظلة بن أبي عامر، بعد أن التقى هو وأبو سفيان بنُ الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف، فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن صاحبكم تغسله الملائكة**»، فسألوا صاحبته، فقالت: «إنه خرج لما سمع الهائعة، وهو جنب»، فقال رسول الله ﷺ: «**لذلك غسلته الملائكة**»، قال الإمام أبو عبد اللهِ الحاكم بعد أن أورد هذا الحديث: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في

التلخيص، وقال الشيخ الألباني[١]: «وإنما هو حسن فقط؛ لأن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم في المتابعات. قال: وله شاهد أخرجه ابن عساكر، عن عبد الوهاب بن عطاءٍ، قال: حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس ابن مالك، قال: «افتخر الحيان من الأوس والخزرج، فقال الأوس: «منا غسيل الملائكة، حنظلة بن الراهب..»الحديث، قال ابن عساكر: هذا حديث حسن صحيح.

وهكذا يمضي حنظلة الشهيد إلى الله ـ عز وجل ـ مؤثرًا ما عند الله من النعيم المقيم والسعادة الأبدية، وتَرَكَ الزوجة التي لم تدم الصلة بينه وبينها إلا ليلةً واحدة[٢]، امتثالاً واستجابة لأمر الله الذي يقول: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[٣].

وكان من آثار تلك الاستجابة، وذلك الانقيادأن يُقتل شهيدًا في سبيل اللهِ أولاً، وأن ينال شرف تغسيل الملائكة له ثانيًا، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا.

ودلت قصته ـ رضي الله عنه ـ على إثبات كرامات الأولياء التي يؤيد الله ـ تعالى ـ بها عباده المخلصين الصادقين، ودلت كذلك على وجود الملائكة، وأنهم خلق من مخلوقات الله الأحياء العقلاء، كما دلت على ذلك نصوص

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، المجلد الأول، الحديث رقم(٣٢٦).

(٢) وقد حملت زوجه جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فولدت الصحابي الجليل عبد الله بن حنظلة، الذي رأى النبي ﷺ وروى عنه، وقتل مع أبنائه الثمانية شهداء في معركة الحرة سنة ٦٣، انظر أسد الغابة(٣/ ٢٢٠)، وفي ذلك أكبر دليل على أن من ترك شيئًا لله عرضه الله خيرا منه.

(٣) سورة التوبة: ٤١.

الكتاب والسنةِ الصحيحةِ الأخرى، وهي ردٌّ صريح على الملاحدة المتفلسفة الذين أنكروا وجود الملائكة، وزعموا أن جبريل ـ عليه السلام ـ خيال في نفس النبي ﷺ، واستندوا في إنكارهم للملا ئكة، وأن كل واحد منهم جوهر قائم بنفسه، استندوا إلى شُبْهَةٍ رد عليها أئمة الإسلام، كشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[١]، والإمام ابن قيم الجوزية في كتابهِ: «الروح».[٢]

رزقنا الله جميعًا علمًا نافعًا، ومن علينا بالقلوب الخاشعة، والألسنة الصادقة، ورحم الله ـ تعالى ـ شهيدالإسلام أبا عبدالله، حنظلة بن أبي عامر، ورضي عنه وأرضاه، وأماتنا على محبته، وحشرنا جميعا في زمرة الشهداء والصالحين. آمين.

* * *

(١) ص: ٢١١ـ٢١٦.

(٢) ص: ٣٢٤.

شهداء بئر معونة

إخوتي الكرام:

أعظم تاريخ عرفته البشرية إلى اليوم تاريخُ الإسلام، وأعظم رجال عرفتهم الدنيا، وأشاد بهم التاريخ هم أبناء الإسلام البررة المخلصون، الذين باعوا أنفسهم رخيصة في سبيل الله، مضحيةً أعظم ما تكون التضحية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[١].

إنهم حملة الرسالة، وقادة الأمم، وأبطال المعركة، وفرسان الميدان. تقدموا بأرواحهم نحو الساحة، وأمنيتهم الوحيدة: شهادة في سبيل الله ـ عزوجل ـ يرضىٰ بها عنهم في الدنيا والآخرة. تمنَّوا ذلك صادقين مخلصين، فصدقهم الله، وأكرمهم جزاء ذلك ذكرًا حسنًا في الدنيا، وفوزًا مبينًا في الآخـــرة: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾[٢].

إخوتي الكرام:

والحادثة المفجعة الدامية التي أتحدث عن وقائعها الآن ـ إن شاء الله ـ تحكي نموذجًا فريدًا من شهداء الملة، وحماةِ الشريعة، ألا إنهم شهداء بئر معونة،[٣] الذين قضوا نحبهم سنة أربع من الهجرة، ولنترك الروايات

(١) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٢) سورة محمد: (٤/٦).

(٣) هي بئر بين أرض بني عامر ومرة بني سُلَيم، وهي إلى هذه أقرب. وقيل: هي من =

الصحيحة في كتاب المغازي من صحيح الإمام البخاري تفصل لنا تلك الحادثة، وقصةَ أولئك الشهداء، ثم أُبرِز بعد ذلك ما فيها من دروس وعِبَر.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «إن رِعلاً وذكوان وعُصيّة.. استمدُّوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار، كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة، فقتلوهم، وغدروا بهم.

فبلغ النبيَّ ﷺ، فقنت شهرًا يدعو في الصبح على أحياءٍ من أحياء العرب: على رِعل وذكوان وعُصية.. قال أنس: فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رُفع: بَلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربّنا، فرضي عنا وأرضانا. وعن قتادة عن أنس بن مالك حدَّثه أن نبي الله ﷺ قنت شهرًا في صلاة الصبح، يدعو على أحياء من أحياء العرب: على رِعل وذكوان وعُصية..

وعنه ـ رضي الله عنه ـ كذلك أن النبي ﷺ بعث خاله أخٌ ـ لأم سُليم ـ في سبعين راكبًا، وكان رئيس المشركين عامرُ بنُ الطُفيل خَيّر بين ثلاث خِصال. فقال: يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدَر، أو أكونُ خليفتك، أو أغزوْك بأهل غَطَفانَ ألفٍ وألف. فطُعن عامر في بيت أم فلان، فقال: غُدة كغدة البَكر، في بيت امرأة من آل بني فلان.

ائتوني بفرسي، فمات عل ظهر فرسه. فانطلق حَرام أخو أمِّ سُليم هو ورجل أعرج، ورجل من بني فلان، قال: كونا قريبًا حتى آتيهم، فإن آمَنُوني كُنْتم. ولأبي نعيم في المستخرج عن همام: «فإن آمنوني كنتم قريبًا مني».

= جبال يقال لها أُبلى، في طريق المُصعِد من المدينة إلى مكة، لبني سُليم. انظر «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» للبغدادي (١/ ١٤٢).

قال: وإن قتلوني أتيتم أصحابكم. فقال: أتؤمنوني أبلغُ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، فجعل يُحدِّثُهم، وأَومَئُوا إلى رجلٍ، فأتاه مِنْ خلفه، فطَعَنه، قال همام: أَحْسَبُهُ حتى أنفذه بالرمح، قال: الله أكبر، فزت وربِّ الكعبة، فلحق الرجل، فقُتلوا كلُّهم غيرَ الأعرج، كان في رأس جبل، فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ: «إنا قد لقينا ربَّنا، فرضي عنَّا، وأرضانا» فدعا النبيُّ ﷺ عليهم ثلاثين صباحًا، على رِعْلٍ وذكوان. وعُصية، عَصَوا الله ورسوله ﷺ. وقد صرح ابن هشام في السيرة باسم الرجل الأعرج المذكور، وأنه كعب بن زيد، وهو من بني دينار بن النجار.

وعند البخاري كذلك في كتاب المغازي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما طعن حَرَامُ بنُ مِلْحَان ـ وكان خالَه ـ يوم بئر معونة، قالَ بالدَّم هكذا، فنضَحَهُ على وجهه ورأسه، ثم قال: فُزتُ وربِّ الكعبة».

وروى البخاري زيادة أخرى في قصة شهداء بئر معونة، في كتاب المغازي كذلك عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «استأذن النبيَّ ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى، فقال له: «**أَقِمْ**». فقال: يا رسول الله، أتطمع أن يؤذن لك؟ فكان رسول الله ﷺ يقول: «**إني لأرجو ذلك**». قالت: فانتظره أبو بكر. فأتاه رسولُ الله ﷺ ذات يوم ظهرًا، فناداه، فقال: «**أَخْرِجْ مَنْ عندك**». فقال أبو بكر: إنما هما ابنتاي. فقال: «**أشعرتَ أنه قد أُذنَ لي في الخروج؟**» فقال: يا رسول الله، الصحبة. فقال النبي ﷺ: «**الصحبة**». قال: يا رسول الله، عندي ناقتان، قد كنتُ أعددتهما للخروج، فأعطى النبيَّ ﷺ إحداهما، وهي الجدعاء فَرَكِبَا، فانطلقا حتى أتيا الغار، وهو بِثَور، فتواريا فيه، فكان عامر بن فُهيرة غلامًا لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة، أخو عائشة

لأُمِّها، وكانت لأبي بكر مِنْحَة، فكان يروح بها، ويغدو عليهم، ويُصْبحُ، فيُدلج إليهما، ثم يَسْرَح، فلا يَفْطِنُ به أحد من الرِّعاء، فلما خَرَجَ خَرَجَ معهما، يُعقبانه[1] حتى قدما المدينة. فقُتل عامر بن فهيرة ـ رضي الله عنه ـ يوم بئر معونة»، وهذا هو الشاهد هنا. وعن أبي أسامة قال: قال هشام بن عروة: فأخبرني أبي، قال: لَمَّا قُتل الذين ببئر معونة، وأُسر عمرو بن أُمية الضَمْريّ، قال له عامر بن الطُفيل: مَنْ هذا؟ فأشار إلى قتيل. فقال له عمرو بن أُميةَ: هذا عامر بن فُهيرة. فقال: لقد رأيتُه بعدما قُتل رُفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء، بينه وبين الأرض، ثم وُضِع. فأَتىٰ النبيَّ ﷺ خبرُهم، فنعاهم، فقال: «**إن أصحابكم قد أُصيبوا، وإنهم قد سألوا ربَّهم، فقالوا: ربَّنا أَخبرْ عنّا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيتَ عنا**»، فأَخْبَرَهُم عنهم، وأُصيب فيهم يومئذٍ عُروة بن أسماءَ بن الصلت، فسُمي عروة به، ومنذر بن عمرو، سُمي به منذرًا. تلك هي جَمع من الروايات الصحيحة الواردة في قصة شهداء بئر معونة. ويتبقّى معنا إلقاء الضوء عليها ببيان الدروس والعبر المستفادة منها.

* * *

(١) أي: يركبانه عقبة، وهو أن ينزل الراكب، ويركب رفيقه، ثم ينزل الآخر، ويركب الماشي، قال ابن حجر: هذا الذي يقتضيه ظاهر اللفظ في العقبة، ويحتمل أن يكون المراد: أن هذا يركبه مرة، وهذا يركبه أخرى، ولو كان كذلك لكان التعبير بـ «يردفانه» أظهر. «فتح الباري» (٧/ ٣٩٠).

دروس وعِبَر

١ ـ إن الصدق مع الله ـ تعالى ـ وإيثارَ الآخرة على الدنيا، بالسعي في خدمة الملِة، ونصر الشريعة، ذلك سبب من أعظم أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة. فهاهم شهداءُ بئر معونة: الحارثُ بنُ الصِّمة، وحرامُ بنُ مِلحان، ورافعُ بنُ بُدَيل، وعُروة بنُ أسماء، وعامرُ بنُ فُهيرة وغيرهم، هؤلاء الصحب الأبرار أمرهم النبي ﷺ أن يتوجهوا إلى حيث أراد، فما تخاذلوا لحظة، ولا أبطئوا برهة، لقد سمعوا، واستجابوا، فكان من آثار هذه الاستجابة والطاعة أن أكرمهم الله ـ تعالى ـ بالشهادة في سبيله، وكانوا بذلك فرحين أعظم ما يكون الفرح، راضين أعظم ما يكون الرِّضى، يدل على ذلك ما جاء في رواية البخاري عن أنسٍ قال: «فقرأنا فيهم قرآنًا. ثم إن ذلك رُفِع: بلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربَّنا، فرضيَ عنا، وأرضانا».

وهكذا نجد أن من يصدق مع ربه ـ عز وجل ـ فإن الله ـ تعالى ـ يصدقه، وأنَّ من يتوكلُ عليه يكفيه، كما قال ـ تبارك اسمُه ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[1].

٢ ـ إدراك الشهداء الكرام ـ رضيَ الله عنهم ـ أهمية العمل في الإسلام،

(١) آل عمران (١٧٢ ـ ١٧٤).

والبحثِ عن الرزق، ذلك أن السبعين من القُرّاءِ الذين بعثهم رسول الله ﷺ لِمَا أراد، نجد أنهم كانوا قد جمعوا بين العمل بالنهار، والصلاةِ والتهجُّدِ بالليل، جاء في رواية البخاري قولُ أنسٍ ـ رضيَ الله عنه ـ: «إن رِعلاً وذَكوان وعُصية استمدُّوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار، كُنّا نسميهم القراءَ في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل..». وهذا فيه ردٌ صريح على مَنْ يكتفون بأداء العبادات، ويتركون البحث عن الرزق، وهؤلاء هم الذين ذمّهم السلف، وبينوا أن فعلهم هذا مخالف للشرع، وأن ظنهم أن ترك العمل والبحث عن الرزق هو الموافقُ للتوكل على الله ـ تعالى ـ باطل بنص القرآن، لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾[1]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وإذا تَركَ العبدُ ما أُمر به متكلاً على الكتاب، كان ذلك من المكتوب المقدور الذي يصير به شقيًا، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول: أنا لا آكُلُ، ولا أشرب، فإن كان الله قَضىٰ بالشِبَعِ والرِّيّ حصل، وإلا لم يحصُل... وكذلك من غَلِط، فترك الدعاء، أو ترك الاستعانة، والتوكل، ظانًا أن ذلك من مقامات الخاصة، ناظرًا إلى القَدَر، فكل هؤلاء جاهلون ضالون، ويشهد لهذا ما رواه مسلم في صحيحه[2]، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**احرِص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تَعجَز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّر الله، وما شاء فَعَل، فإنَّ لَوْ تفتح عمل الشيطان**». فأمره بالحرص على ما ينفعُه، والاستعانةِ بالله، ونهاه عن العجز الذي هو الاتكال على القدر،

(١) الأنفال (٢ ـ ٣).

(٢) كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

ثم أمره إذا أصابه شيء ألاّ ييأسَ على ما فاته، بل ينظرُ إلى القَدَر، ويُسلِّمُ الأمرَ لله، فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك، كما قال بعض العقلاء: «الأمور أمران: أمر فيه حِيْلَة، وأمر لا حيلةَ فيه، فما فيه حيلة لا يُعْجَز عنه، وما لا حيلة فيه لا يُجزع منه»[1] ا. هـ.

والمقصود الذي أردتُ بيانَهُ هُنا أننا نستفيد من اهتمام أولئك الشهداء ـ رضيَ الله عنهم ـ شهداءِ بئر معونة بالعَمل الردَّ على كل متكاسل عن العمل والبحث عن الرزق، مكتفيًا بالتوكل على الله ـ تعالى، فقط، كما نلمَسُ ذلك واضحًا من خلال كلام شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ بيان مكانة الشهيد عامرِ بنِ فهيرة ـ رضي الله عنه ـ حيث جاء في بعض الروايات المتقدِّمة مَعَنَا قولُ هشامِ بنِ عروةِ: فأخبرني أبي، قال: لمّا قُتل الذين ببئر معونة، وأُسرِ عمرو بنُ أمية الضمري قال له عامر بن الطُفيل: مَنْ هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهيرة. فقال: لقد رأيتُهُ بعد ما قتل، رُفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وُضِع. أي إلى الأرض.

ووقع عند الواقدي في روايته: أن الملائكة وارته ولم يَرَهُ المشركون، قال ابن حجر: وهذا وقع عند ابن المبارك عن يونس عن الزهري. وفي بعض الروايات: «فأشار عامر بن الطفيل إلى رجل، فقال: هذا طَعَنَه برمْحِهِ ثم انتزع رمْحَهُ، فذهب بالرجل علوًا في السماء، حتى ما أراه». قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ تعليقًا على ذلك: «وفي ذلك تعظيم لعامر بن فُهيرة، وترهيب

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٨٤، ٢٨٥).

للكفار وتخويف»[١] انتهى.

وإن المتأمِّل للروايات الواردة هنا، في شأن عامرٍ ـ رضي الله عنه ـ يجد من فوائد ذلك، أن الكافر ربما يسلم لِما يَرىٰ من تمسك المسلم بدينه، وفرحه بلقاء ربه ـ رغم الألم والدم الذي ينزف منه ـ كما هو حال عامرٍ ـ رضي الله عنه ـ لَمَّا قُتل.

جاء في بعض الروايات، كما يقول ابن حجر: «وكان الذي قتله ـ يعني عامرَ بنَ فُهيرة ـ رجلاً من بني كِلاب، جَبّارَ بنُ سُلمى، ذَكَر أنه لَمَّا طَعَنَه قال: فُزتُ والله، قال: قلتُ في نفسي: ما قولُه: فزت؟ فأتيت الضحاك بن سفيانَ، فسألتُهُ: فقال: بالجنة. قالَ: فأسلمت، دعاني إلى ذلك ما رأيتُهُ من عامر بن فُهيرة».

وإن في ذلك لدرسًا أيَّ درس، وموعظة أيَّ موعظة، لكل مسلم يتعامل مع الكفار، ويذهب إلى بلادهم لهدف مباح، أن يمثل الإسلام وآدابه العالية، وأخلاقه السامية، تلك التي حثه عليها شرعه الحنيف، وأن يكون قدوة صالحة، وشعلة هادية، لعلَّ أولئك المشركين أن يروا ذلك الثبات على الدين، والاستقامة على المنهج، فيقودَهُم ذلك إلى الدخول في الإسلام تأثرًا بما يرون من الحق والصدق، وليحذر ـ ولو كان هدفه من السفر لبلاد الكفر مباحًا ـ ليحذر أن يرتاد أماكن الفسوق والموبقات، ويُهْدِرَ كرامته بالولوج فيها، فيكونَ بذلك سببًا في تشويه صورة الإسلام وآدابه في أعْيُن القوم، فيكرهوا الإسلام، ويزهدوا فيه، ويزدادوا كفرًا إلى كفرهم، وفسوقًا إلى فسوقهم. ولتكن ـ أخي المسلم ـ قصة الشهيد عامر بن فهيرة مع ذلك الكافر

(١) فتح الباري (٧/ ٣٩٠).

الذي أسلم بسبب الحق الذي رآه مِن عامر، لتكن هذه القصة راسخة في قلبك وذهنك أينما كنتَ، وإلى أيِّ بلد توجهت، فلأن يهديَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمُر النَّعَم.

٤ ـ بيان معجزةٍ باهرةٍ من معجزات النبي ﷺ. حيث عَلِم بأمر شهداءِ بئرِ معونة، كما يدل على ذلك قولُ أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: «فأتَىٰ النبيَّ ﷺ خبرُهم، فنعاهم، فقال: «**إن أصحابكم قد أُصيبوا**». قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وقد ظهر من حديث أنس أن الله ـ تعالى ـ أخبره بذلك على لسان جبريل»[1].

٥ ـ جواز الدعاء على الظالم إذا ظَلَم؛ فإن أولئك المشركين من رِعلٍ وذكوان وعُصية، لَمّا قتلوا الصحابة القراء ـ رضي الله عنهم ـ دعا عليهم رسولُ الله ﷺ ـ كما يقول أنس ـ رضي الله عنه ـ: «دعا عليهم شهرًا في صلاة الغداة»، وفي الرواية الأخرى: فدعا عليهم ثلاثين صباحًا».

وقد ظهر أثر دعائه ﷺ حيث هلك رئيسُ القوم عامرُ بن الطفيل، كما تدل على ذلك رواية البخاري، وهي قول أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: «فطُعن عامِرٌ في بيت أم فلان، فقال: غدة كغدة البَكْر، في بيت امرأة من آل فلان. ائتوني بفرسي، فمات على ظهر فرسه».

وقولُهُ في الحديث هنا «كغُدة البكر» المراد بالغُدة: مَرَضٌ من أمراض الإبل وهو طاعونُها. وقوله(في بيت امرأة من آل فلان) بينها الطبراني في

(١) فتح الباري ووقع عند الطبراني في معجمه الكبير (٦/١٢٦) برقم (٥٧٢٤): «فأوحى الله إلى نبيه ﷺ يوم قتلوا خبر أصحابه، فقال: « قد قُتل أصحابكم، فرُؤوا رأيكم».

معجمه الكبير[١] بقوله: «في بيت امرأة من سَلول» وزاد: «وأقبل ينزو وهو يقول: يا لعامرٍ من غدة كغدة الجمل في بيت سَلولية، يرغب أن يموت في بيتها، فلم يزل كذلك حتى مات في بيتها».

وفي دعائه ﷺ على هؤلاء القوم في صلاة الصبح دليل على مشروعية القنوت في صلاة الصبح عند النوازل والمصائب التي تحل بديار المسلمين، لكن ينبغي أن ينتبه المسلم هٰهنا إلى أن القنوت إنما هو خاص بالنوازل ـ كهذه النازلة التي آلمت رسول الله ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ عندما قُتل القُراء ـ لكنّ هذا القنوت لا يكون مستمرًا، بدليل الروايات المتقدِّمَة معنا في البخاري كقول أنس ـ رضي الله عنه ـ: «دعا عليهم شهرًا في صلاة الغداة»، وقولِه في الرواية الأخرى: «فدعا عليهم ثلاثين صباحًا» فجعل في الرواية الأولى المدةَ في الدعاء مُحَدّدةً بأنها كانت شهرًا، وفي الرواية الأخرى بأنها كانت ثلاثين صباحًا، والمعنى واحد.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه، والإمامُ أحمدُ في مسنده، والنسائيُّ في سننه، وغيرهُم من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «قنت رسول الله ﷺ يدعو على حيّ من أحياء العرب، ثم تركه» وقولُهُ: «ثم تركه» دليل صريح على أن النبي ﷺ لم يكن يقنت دائمًا. وإن اعترض معترض فقال: إنه قد جاء في الحديث: «ما زال رسول الله ﷺ يقنت في الصبح حتى فارق الدنيا» قيل له: نَعَم هذا حديث رواه الإمام عبد الرزاق في مصنَّفه، والإمام أحمد في مسنده، وغيرهما، لكنه لا يصح؛ لأن مداره على أبي جَعْفَرٍ الرازي، وهو ضعيف، كان ينفرد بالمناكير على المشاهير، كما بيّن ذلك الإمام الذهبي في ميزان

(١) (٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦) برقم (٥٧٢٤).

الاعتدال، وابن حَجَر في تهذيب التهذيب.

٦ ـ أنه إذا كان الغالبُ على المشركين نقضَ العهد كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[١]، فإن منْهم كذلك من يفي بالعهد، ولا ينقضه حتى لو طَلَبَ قومُهُمْ منهم نقض العهد، وأصرُّوا على ذلك، يفيد هذا الأمرَ ما جاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ بعث أولئك القراءَ الشهداءَ ـ رضي الله عنهم ـ إلى قوم من المشركين، فقتلهم قوم مشركون دون أولئك، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، قال ابن حجر: فظن أن الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ العهد غيرُ الذين قَتَلوا المسلمين، وقد بيّن ابن إسحاقَ في المغازي عن مشايخه، وكذلك موسى بنُ عقبة، عن ابن شهابٍ أصحابَ الطائفتين، وأن أصحاب العهد هم بنو عامر، ورأسُهُم أبو بَراء، عامرُ بنُ مالك بنِ جعفر، المعروف بمُلاعب الأسنَّة، وأن الطائفة الأخرى من بني سُلَيْم، وأن عامر بنَ الطفيل وهو ابن أخي ملاعبِ الأسنة، أراد الغدر بأصحاب النبي ﷺ، فدعا بني عامر إلى قتالهم، فامتنعوا، وقالوا: لا نخفِر ذِمة أبي براء. فاستصرخ عليهم عُصيةَ، وذكوانَ من بني سُليم، فأطاعوه، وقتلوهم. وذكر ابن إسحاق لحسان ـ رضي الله عنه ـ شعرًا، يَعيب فيه أبا براء، ويحرضه على قتال عامر بن الطفيل فيما صنع فيه[٢]، فعَمِدَ ربيعة بن أبي براء إلى عامر بن الطفيل، فطَعَنه، فأرداه، فقال له عامر بن الطفيل: إنْ عشتُ نظرتُ في أمري، وإنْ مِتُّ فدمِي لعَمِّي، قالوا: ومات أبو براء عقب ذلك أسفًا على ما صَنَعَ به عامر بن الطُفيل، وعاش عامر بن الطفيل بعد ذلك، ومات بدعاء النبي ﷺ[٣] كما تقدَّم.

---

(١) التوبة (١٠).

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٨٧) و«تاريخ الأمم والملوك» (٢/ ٨٢).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٣٩١، ٣٩٢).

وهكذا نجد الوفاء بالعهد من قبل بني عامر ورئيسهم الذي مات غمًا وكَمَدًا، لمّا اعتدى قريبه على أصحاب النبي ﷺ، وتلك خصلة حميدة وخلق رفيع يذكر لهؤلاء، حتى لو كانوا كفارًا؛ لأن هذا من العدل الذي أمرنا الله ـ تعالى ـ به، حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الجزء الثاني من كتابه «الاستقامة»، معلِّقًا على الآية الكريمة: «فنَهى أن يَحْمِلَ المؤمنين بغضُهُم للكفار على ألاّ يعدلوا عليهم...»[2].

٧ ـ أن الله ـ تعالى ـ قريب، يجيب دعوة الداع إذا دعاه، ذلك أن شهداء بئر معونة ـ رضي الله عنهم ـ سألوا الله ـ تعالى ـ فقالوا: «ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنّا». وصَدَق هؤلاء البررة في دعائهم، فصدَقَهم الله ـ تعالى ـ فاستجاب دعاءهم، قال النبي ﷺ: «فأخبَرَ عنهم»، ونزل كما تقدم معنا قرآن ثم نُسخ: «إنا قد لقينا ربَّنا، فرضي عنا، وأرضانا».

٨ ـ الكشف عن المكانة العظمى للصحابي الشهيد حرامِ بنِ مِلْحان ـ رضي الله عنه ـ. ذلك أن الكفار لمّا غَدَرُوا به، وأومئوا إلى رجل منهم، فطعَنَهُ حتى أنفذه بالرمح، قال ـ رضي الله عنه ـ كلمته العظيمة الصامدة: «الله أكبر! فزتُ وربِّ الكعبة».

---

(١) المائدة (٨).

(٢) الاستقامة (١/ ٣٨) تحقيق الأستاذ محمد رشاد سالم.

وفي رواية الإمام أبي جعفرٍ الطبري من طريق عكرمةَ عن عمّارٍ عن إسحاقَ ابنِ أبي طلحةَ في هذه القصة: «فخرج حَرَام فقال: يا أهلَ بئرِ معونة، إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم، فآمِنُوا بالله ورسولِه، فخرج رجل من كِسْرِ البيتِ برمحٍ، فضربه في جنبه، حتى خرج من الشِّق الآخر»[١].

وإن هذا الفخر والاعتزاز الذي صَدَر من حرام ـ رضي الله عنه ـ لَمّا طُعِن ينبغي أن يثير في نفس كل مسلم، وقلب كل مؤمن زيادةَ الإيمان واليقين بالله العظيم، فإذا دعا الداعي إلى الجهاد انطلق في ساحات النضال، ومواطن النِزال مجاهدًا، مضحيًا بكل ذرة في جسده، مبتغيًا بذلك ـ رحمة الله ـ تعالى ـ وجنته.

إخوتي الكرام: تلك هي السمة العظيمة، التي تربى عليها حرام بنُ مِلحان، وأصحابُهُ الشهداء، لقد زهدوا في الدنيا، وآثروا ما عند الله ـ تعالى ـ الذي هو خير وأبقى، وصدقوا في ذلك فأكرمهم الله ـ تعالى جزاء ذلك جنةً عرضها السموات والأرض، ورضي عنهم، ورضوا عنه، فما أعظمه من فوز، وما أجملها من سعادة: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٢].

فرحم الله شهداءَ بئر معونةَ الصابرين الصادقين، ورضي عنهم، وأرضاهم، ورزقنا جميعًا الاقتداءَ بهم، والتخلقَ بأخلاقهم، وأماتنا على محبتهم، وحشرنا في زمرتهم يوم الدين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا. والله ـ تعالى ـ أعلم.

(١) «تاريخ الأمم والملوك» (٢/ ٨٣).
(٢) الأعراف (١٦٩).

ليرينَّ الله ما أصنع

إخوتي الكرام:

في ساحات الجهاد، وميادين النزال، يظهر إيمان الصادقين، وتنكشف دعاوى المنافقين والكاذبين، حيث لا ترى في المعركة إلا رؤوسًا تُقطع، ونفوسًا تُزهق، ودماءً تسيل.

نَعَم ترى الهول والفزعَ الذي لا يثبت أمامه إلا المؤمنون الصادقون.

ومعركة أحد هي إحدى معارك الإسلام الكبار، التي امتُحن فيها المؤمنون امتحانًا عظيمًا، بينه الله ـ تعالى ـ في القرآن العظيم، لتكون الآيات النازلة في هذا الحدث الكبير عبرةً ودرسًا للناس جميعًا، إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرضَ ومَنْ عَليها، وليمحص الله القلوب، ويميز الصفوف، ولِيُعِدَّ الجماعة المسلمة للمهمة العظمىٰ التي ناطها بها، مهمةُ القيادة الراشدة للبشرية، وإقرار منهج الله ـ عز وجل ـ في الأرض في صورته المِثالية الواقعية.

قال ـ سبحانه ـ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

إنها سنن الله ـ تعالى ـ التي لا تتخلف، ولا تتبدل، عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ومداوَلةُ الأيام بين الناس، والابتلاءُ لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاقُ النصر للصابرين، والمَحْقِ للمُكذبين.

وفي هذه المعركة الكبرى في تاريخ الإسلام ـ معركةِ أحد ـ برزت لنا شخصيةُ رجلٍ من أعظم الأبطال، وعَلَمٍ مجاهدٍ من أكبر المجاهدين. أبىٰ إلا أن يُقحم نفسه، ويُبْذِلَ روحه في سبيل الله، وتحت راية دينه، وصَدَقَ اللهَ ـ تعالى ـ فَصَدَقَهُ الله.

ذلكم هو شهيد الإسلام، أنس بنُ النضر ـ رضي الله عنه ـ.

ذكر ابن حجرٍ في الإصابة اسمه ونسبه، فقال: أنس بن النضر بن ضَمْضَم ابنِ زيدِ بنِ حرام، بنِ جندبِ، بنِ عامرِ بنِ غَنم بن عدي بن النجار، الأنصاريُ الخزرجيُ، عمُّ أنس بن مالك، خادمِ رسول الله ﷺ.

لقد قام أنس بن النَضْر ـ رضي الله عنه ـ معتزًّا بإسلامه، معرضًا عن الدنيا وزينتها، مقبلاً على الآخرة ونعيمها، سالاً سيفه في معركة أحد، ينشد الموت مظانَّه، ويحرض المؤمنين على القتال، ويحذرهم من التخاذل والانهزام، بعدما أصابهم من الجراحات والآلام.

أخرج ابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع، أَخي بَني عدي بن النجار، قال: انتهى أنس بن النضر، عمُّ أنس بن مالك، إلى عمرَ بنِ الخطاب، وطلحةَ بن عبيد الله، في رجالٍ من المهاجرين والأنصار، وقد أَلقَوا بأيديهم،

(١) آل عمران (١٣٧ ـ ١٤٢).

فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ. قال: فماذا تصنعون بعده؟ قوموا فموتوا على مَا ماتَ عليه رسول الله ﷺ.

قال ذلك لمّا ظُنَّ أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ثم سُرعان ما انكشف الحق، وظهر للمسلمين أن رسول الله ﷺ لم يَمُت. حيث قال كعب بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ كما أخرج ابن إسحاق: عرفتُ عينيه تَزْهَرَان (أي تضيئان) من تحت المِغْفر، فناديتُ بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أَبشروا، هذا رسول الله ﷺ.

ولْنَدَع رواية الإمام البخاري في كتاب الجهاد تصف لنا حادثة أنس بن النضر، وبلاءَه في غزوة أحد، ثم إكرام الله ـ تعالى ـ له بالشهادة. يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «غابَ عَمِّي أنس بن النضر عن قتال بدر. فقال: يا رسول الله، غِبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئنِ اللهُ أشهدني قتال المشركين، ليَرَيَنَّ الله ما أَصنَع».

فلمَّا كان يومُ أحد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صَنَعَ هؤلاء ـ يعني أصحابَه، وأَبْرأُ إليك مما صَنَعَ هؤلاء، يعني المشركين». ثم تقدم، فاستقبله سعدُ بنُ معاذ، فقال: يا سعدُ بنَ معاذ، الجنة وربِّ النضر، إني أجد ريحها مِنْ دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صَنَعْ. قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنةً برمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مَثّل به المشركون، فما عَرَفَه أحد إلا أُختُهُ ببنانِه. قال أنس: كُنا نرى أو نظن أن هذه الآية نَزَلَتْ فيه، وفي أشباهِه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

(١) الأحزاب (٢٣).

وعندما انجلت الغُمة، وانتهت المعركة أرسل النبي ﷺ زيدَ بن ثابتٍ ـ رضي الله عنه ـ ليتفقد أنسًا كما روى ذلك ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات[١]، قال: فوجَدَه، وبه رمَقٌ، فردّ سلامَ الرسول ﷺ ثم قال: «أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار: «لا عُذْرَ لكم عند الله أنْ يُخلَصَ إلى رسول الله ﷺ، وفيكم شَفْر يَطْرِف».

وهكذا تنتهي حياةُ الصحابي الجليل أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ بَعَدَما بَذَلَ روحه لله ـ عز وجل ـ مبتغيًا بذلك جنةً عرضها السموات والأرض، أُعدت للمتقينَ من أمثاله ـ رضي الله عنه ـ ولْيكفه فخْرًا أن النبي ﷺ، قال فيه كما في كتاب الجهاد، وكتاب القصاص من صحيح البخاري: «**إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبرّه**».

وليكفه فخرًا كذلك أن النبي ﷺ قال فيه، وفي أصحابه من شهداء أحد، كما أخرج ابن إسحاق وغيرُه بإسناد حسن: «**أنا شهيد على هؤلاء، ما مِنْ جريح يجرح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة، يَدْمَىٰ جُرْحُه، اللون لون دَمْ، والريح ريح مسك**»، وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾[٢].

(١) انظر «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» للأستاذ مهدي رزق الله ص ٣٨٧.
(٢) آل عمران (١٦٩ ـ ١٧٠).

فاللهم يا رحمن يا رحيم؛ ارزقنا الاهتداء بهدي أصحاب نبيك ﷺ، والسيرَ على منهجهم، وأَمِتْنَا على محبتهم، واحشرنا في زمرتهم يوم الدين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *

دروس وعبر

في قصة استشهاد الصحابي الجليل أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ جمع من الدروس والعبر والفوائد، ومنها:

١ ـ أن المرء يُعرف صدقه بأفعاله، فقد يقول كثيرًا، لكنه يعمل قليلاً، أو لا يعمل البتة. وذلك ما ذمّه الله ـ عز وجل ـ وحذّر منه، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «أي لِمَ تقولون الخير، وتحثون عليه، وربما تمدحتم به، وأنتم لا تفعلونه. وتنهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون، متصفون به. فهل يليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس مبادرة إليه، والناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس عنه، قال تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ ﴾[٢] وقال شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾[٣]»[٤]. انتهى كلامه.

---

(١) الصف (٢، ٣).

(٢) البقرة (٤٤).

(٣) هود (٨٨).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٧/ ٣٦٥، ٣٦٦).

وقد ذهب جمهور أهل العلم ـ كما يقول ابن كثير[١] ـ إلى أن الآية نزلت حين تمنى بعض المسلمين فريضة الجهاد عليهم، فلما فُرض نكل عنه بعضهم، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[٢] وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾[٣] وهكذا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لَوَدِدْنا أن الله ـ عز وجل ـ دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله ـ تعالى ـ نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهادُ أهل معصيتِهِ الذين خالفوا الإيمان، ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشقَّ عليهم أمرُه، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

إخوتي الكرام:

والدرس الذي أريد بيانَه هنا هو: أن الشهيد أنسَ بن النضر ـ رضي الله عنه ـ أثبت قولَه بالفعل، وصدق مع الله ـ تعالى ـ فصدقه الله. إنه قال: لئن الله أشهدني قتال المشركين لَيَرينَّ الله ما أصنع، وقال: الجنة وربِّ النضر،

(١) تفسيره (٤/ ٣٥٨).
(٢) النساء (٧٧، ٧٨).
(٣) محمد (٢٠).

إني أجد ريحها من دون أحد. وصدَّق ـ رضي الله عنه قولَه: لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أَصْنع، صدّق هذا القول بالفعل، فدخل ـ رضي الله عنه ـ معركة أحد، صادقًا في طلب الشهادة، فصدقه الله ـ عز وجل ـ، وأناله الشهادة في سبيله، تحت راية دينه، ولِذا جاء في رواية البخاري أن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مَثّل به المشركون، فماعرفه أحدٌ إلا أختُهُ، عرفتْه ببنَانِه». ولا نعجب بعد ذلك إذا علمنا أن النبي ﷺ قال فيه ـ رضي الله عنه ـ: **«إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبره»**.

وقولُ النبي ﷺ هذا، له قصة أخرجها الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، والإمامُ مسلمٌ في كتاب القسامة، وأصحابُ السنن، وأحمدُ، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ولفظ البخاري: أن الربيّع عمته كَسَرتْ ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو، فأبَوا، فعرضوا الأرش (أي العوض) فأبوا. فأتوا رسول الله ﷺ، وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله، أَتُكسرُ ثنيةُ الرُبيّع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تُكسَرُ ثنيتُها. فقال رسول الله ﷺ: يا أنس. كتاب الله القصاص. فَرضي القوم، فعَفَوا، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبرَّه**». قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في فتح الباري: «زاد مُعتَمِر: فعجب النبي ﷺ وقال: «**إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبره**» أي لأبر قسمه. وَوَقع في رواية خالد الطحان، عن حُميد عن أنس في هذا الحديث عند ابن أبي عاصم: «**كم مِنْ رجلٍ لو أقسم على الله لأبره**» قال ابن حجر: «ووجه تعجبه ﷺ أن

أنس بن النضر أقسم على نفي فعلِ غيره مع إصرار ذلك الغير على إيقاع ذلك الفعل، فكان قضيةَ ذلك في العادة أن يحنث في يمينه، فألْهَمَ اللهُ الغيرَ العفوَ، فَبرَّ قسمُ أنس، وأشار بقوله: «**إنَّ من عباد الله**» إلى أن هذا الاتفاق إنما وقع إكرامًا من الله ـ تعالى ـ لأنس، لِيَبَرَّ يمينَه، وأنه من جملة عباد الله الذين يجيب دعاءهم، ويعطيهم أربَهم[1] (أي حاجتهم) ا. هـ.

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في شرحه لصحيح مسلم: «وأمّا قوله ﷺ: «**إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبره**» فمعناه: لا يحنثه لكرامته عليه»[2] ا. هـ.

٢ ـ بيان الصبر العظيم الذي كان عليه أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ. يدل على ذلك تلك الجراحاتُ العظيمة التي أصابته، فلم تصدَّه عن إيمانه الذي رسخ في قلبه، وجرى في كل عِرق من عروق دمه، وصبر ـ رضي الله عنه ـ على تلك الآلام والجراحات حتى استُشهد، ولذا قال أنس بن مالك: «فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنةً برمح، أو رَميةً بسهم، ووجدناه قَدْ قُتل..».

ووقع عند يزيدَ بن هارون، عن حميد أن سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال: فقلتُ: أنا معك، فلم أستطعْ أن أَصنع ما صنع. قال ابن حجر: وظاهره أنه نَفَىٰ استطاعةَ إقدامِهِ الذي صَدَرَ منه حتى وَقَع له ما وَقَع من الصبر على تلك الأهوال، بحيث وُجِد في جسده ما يزيد على الثمانين من طعنةٍ وضربة ورَمية، فاعترف سعد بأنه لم يستطع أن يَقْدُم إقدامه، ولا يصنعَ صنعه، قال ابن حجر:

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٢٤).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١١/ ١٦٣). مكتن

وهذا أولى مما تأوله ابن بطّال، من أنه يريد: ما استطعتُ أنْ أصف ما صنع أنس، من كثرة ما أبلى في المشركين.

٣ـ فضل الوفاء بالعهد، ولو شَق على النفس حتى يصل إلى إهلاكها، كما حَصَلَ ذلك من أنس ـ رضي الله عنه ـ فإنه عاهد الله ـ تعالى ـ بقوله: لئنِ اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. ووقع في رواية ثابت عند الإمام مسلم (لَيَراني الله)، وفي روايةِ محمدِ بنِ طلحة عن حميد: لَيَرَينَّ الله ما أُجِدّ أوْ أَجُدّ، مأخوذ من الجِد، ضدُّ الهَزْل. وزاد ثابت: «وهاب أن يقول غيرها» أي خشِي أن يلتزم شيئًا، فيعْجِزَ عنه، فأبَهم.

قال ابن حجر: «وعُرف من السياق أن مراده أنه يبالغ في القتال وعدم الفرار».

وهكذا عاهد أنسٌ ربَّهُ ـ عز وجل ـ على صدق اللقاء، فوفىٰ بما عاهد عليهُ الله، وقاتل قتال الأبطالِ المستميتين حتى قُتل شهيدًا، مضرجًا بدمائه الطاهرة، ولذا قال أنسٌ ـ رضي الله عنه ـ أعني أنس بن مالك: كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه، وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

٤ـ أنَّ طلب الشهادة في الجهاد لا يتناوله النهي عن الإلقاء إلى التهلكة[2].

دَلَّ على ذلك فعلُ أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ إذْ أَلقى بنفسه في ساحة المعركةِ معركةِ أُحد، حتى أصابته جراحاتٌ عظيمة، سقط بعدها شهيدًا. ولو كان

(١) الأحزاب (٢٣).
(٢) فتح الباري.

حرصُهُ على الشهادة، وطلبه لها، وجراحاتُه المتعددة ـ لو كان ذلك من الإلقاء إلى التهلكة لبيّنه النبي ﷺ.

إنَّ بذل النفس في سبيل الله ـ عز وجل ـ، وتقديمَها إلى ساحات الجهاد، وميادينِ النضال أمر عظيمٌ، يتسابق إليه المؤمنون الصادقون؛ لأنهم منقادون، مستجيبون لأمر الله ـ تعالى ـ لهم بذلك، إذْ قال ـ سبحانه ـ: ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

نَعَمْ لابد أن يُعلم هٰهنا أن تقديم النفس إلى صف الكفار، والوقوفَ أمام زحوفهم، والتصديَ لأسلحتهم مع إعداد العُدة، لابد أن يُعلم أن ذلك ليس من الإلقاء باليدين إلى التهلكة.

ثبت في سنن الإمام أبي داود، والترمذي، والنسائي، ومسندِ أبي يَعْلىٰ، وتفسيرِ ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومعجم الطبراني الكبير، وسننِ البيهقي، وصححه الترمذي، والحاكم، عن أسلم أبي عِمرانَ قال: كنا بالقُسْطُنْطِيْنيّة، وعلى أهل مصرَ عقبةُ بنُ عامر، وعلى أهل الشام فَضالةُ بن عُبيد، فخرج صف عظيم من الروم، فصففنا لهم، فَحَمل رجلٌ من المسلمين على صف الروم، حتى دخل فيهم، فصاح الناسُ، وقالوا: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة! فقام أبو أيوب، صاحب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار؛ إنا لمّا أعز الله دينه، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعضٍ سِرًا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قَدْ ضاعت،

(١) النساء (٧٤).

وإن الله قد أعز الإسلام، وكَثُر ناصروه، فلو أَقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاعَ فيها، فأنزل الله على نبيه يردّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] فكانت التهلكةُ الإقامةَ في الأموال وإصلاحَها وَتركَنَا الغزو».

وأخرج وكيعٌ، وسفيانُ بن عيينة، والفِرْيابي، وعَبْدُ بن حميد، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، والبيهقي، عن البراءِ بن عازب، رضي الله عنه ـ أنه قيل له: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ هو الرجل يَلْقىٰ العدو، فيقاتلُ حتى يقتل؟ قال«: لا، ولكنْ هو الرجل يذنب، فيُلقي بيديه، فيقول: لا يغفر اللهُ ليَ أبدًا».

وهكذا ثبت لنا أن بذل النفس في سبيل الله، والتضحيةَ بها لنيل الدرجات العُلى في جنات النعيم ـ كما فعل أنس بن النضر رضي الله عنه ـ ذلك ليس من الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة، إنما ذلك كائن إذا أقبل المرء على شهواته، واتخذ إلهه هواه، ونسي الله والدار الآخرة.

٥ ـ أنه ينبغي على المؤمن إذا نزلت به وبأهل الإسلام مصيبةٌ من المصائب، وهم يواجهون الكفار في أي معركة من المعارك، ينبغي عليه أن يستحث الخُطى، ويُثير في النفوس الشجاعة والإقدام، ويُحذّر من التقهقر والانهزام. وذلك مَا سلكه أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ كما تدل على ذلك روايةُ ابنِ إسحاقَ عن القاسمِ بنِ عبد الرحمن بنِ رافع قال: انتهى أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك إلى عمرَ بنِ الخطاب، وطلحةَ بنِ عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقَوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل

(١) البقرة (١٩٥).

رسول الله ﷺ. قال فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا، فموتوا على مَا ماتَ عليه رسول الله ﷺ. قال ذلك لَمّا أُشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل، ولمّا يحدثْ ذلك.

٦ ـ حرص أنس ـ رضي الله عنه ـ على النصح لله، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، رغم أنه مشغول بنفسه، وجِراحاته، ورغم أنه كذلك يواجه الموت بكل غُصصه وسكراته وشدائده، دَلَّ على ذلك ما تقدم معنا أن النبي ﷺ أَرسل زيدَ ابن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ليتفقد أنسًا بعد معركة أحد ـ كما روى ذلك ابنُ إسحاقَ بإسناد حسن ـ قال: فوجده، وبه رمق، فرد سلام الرسول ﷺ ثم قال: أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شَفْر يطرِف، ودمعت عيناه ـ رضي الله عنه ـ.

٧ ـ أنه يمكن أن يستنبط من قول أنس ـ رضي الله عنه ـ: «الجنةَ وربِّ النضر إني أجد ريحها من دون أحد» بيانُ كرامةٍ من كرامات أنس حيث وجد ريح الجنة، فعلم أنه مقتول. وقد نقل الحافظ ابنُ حجرٍ ـ رحمه الله ـ عن ابن بَطّال أنه وغيرَهُ قال في معنى قولِ أنس: «إني أجد ريح الجنة من دون أحد»: «يحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة، وأنه وجد ريح الجنة حقيقة، وأضاف: أو وجد ريحًا طيبة ذكّره طيبها بطيب ريح الجنة، وَيجوز أن يكونَ أراد أنه استحضر الجنة التي أُعدت للشهيد، فتصور أنها في ذلك الموضع الذي يقاتل فيه، فيكونُ المعنى: إني لأعلم أن الجنة تُكتسب في هذا الموضع، فأشتاق لها»[1] ا. هـ.

والظاهر ـ والله أعلم ـ هو المعنى الأول، أنه وجد ريح الجنة حقيقة؛ حملاً للكلام على ظاهره وحقيقته؛ إذ ذلك جائز، ممكن الوقوع، تؤيده الأخبار

(١) فتح الباري (٦/ ٢٣).

الكثيرة عن عدد من الصحابة والتابعين، كما قرره أهل العلم قديمًا وحديثًا، والله أعلم.

* * *

لكنّي أفقد جليبيبًا

أيها المسلمون:

في ظل تعاليم الإسلام العالية وقيمه السامية تسقط جميعُ الفوارق، وتنهار جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان. ألا إنه ميزانُ التقوى في ظل طاعة المولى ـ عز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

نَعَمْ، ذلكم هو لواء التقوى ـ يا مسلمون ـ. اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبيةِ للأرض، والعصبيةِ للقبيلة، والعصبيةِ للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتّى الأزياء، وتُسمىَ بشتّى الأسماء، وكلها جاهليةٌ عارية من الإسلام.

إخوتي الكرام:

وهذا الكلام السابق أقوله بمناسبة الحديث عن شهيد من شهداء هذا الدين. لم يكن على تلك المكانة من الجاه أو المال أو المنصب، ولولا الإسلام الذي جعل المعاملة بين الناس على حساب التقوى فقط لم يكن له ذكر أبدًا.

نعم إنه لم يكن ذا مال عريض، ولا جاه كبير، ولا نسبٍ مشهور، لكنّ الله ـ عز وجل ـ أكرمه بأعظم من ذلك، أكرمه بالشهادة في سبيله، ومات ورسول الله ﷺ

(١) الحجرات (١٣).

راضٍ عنه، يقول فيه بعد أن رآه ساقطًا في ساحة المعركة، مضرجًا بدمائه الطاهرة: «**هذا مني وأنا منه**»، يقول فيه ذلك ﷺ مرتين أو ثلاثًا، فيلغي ﷺ بذلك كلَّ عادات الجاهلية بالتعصب للجنس أو القبيلة، ويُثبت بقوله ذلك أنه لا مكانة عند الله ـ تعالى ـ إلا للمتقين، وللمتقين فحسب، ولو كان الواحدُ منهم دميمَ الخِلقة، قليل المال.

فهل عرفتَ ـ أخي المسلم ـ هذا الصحابي الشهيد؟

إنه الشهيد جليبيبٌ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ. أخرج قصته مطّولة الإمام أحمد في مسنده، وأخرج بعضها مسلم في صحيحه، ولفظ الإمام أحمد: عن أبي بَرْزَةَ الأسلمِّي ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يَعْلَمَ: هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا؟ فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «**زوجني ابنتك**» فقال: نَعَمْ وكرامةً يا رسول الله، ونعم عين، قال: «**إني لست أريدها لنفسي**» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: «**لجليبيب**» قال: يا رسول الله أشاور أُمَّها. فأتى أمها، فقال: إن رسول الله ﷺ يخطُب ابنتك، قالت: نَعَم ونعمةُ عين، قال: إنه ليس يخطُبها لنفسه، وإنما يخطُبها لجليبيب، فكان مما ردت به: لا، لعمرُ الله لا نزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتيَ النبي ﷺ ليخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: مَنْ خطبني إليكم؟ فأخبرتْها أمُّها، فقالت: أَتردون على رسول الله ﷺ أمْرَه، ادفعوني إليه، فإنه لم يضيعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: **شأنك بها**، فزَوَّجهَا جليبيبًا، قال: فخرج رسول الله ﷺ في غَزاةٍ له، قال: فلما أفاء الله ـ عز وجل ـ قال: «**هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: لا قال: «**لكني أفقد جليبيبًا**» قال:

فاطلبوه، فوجدوه إلى جنب سبعةٍ قتلهم، ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قتلهم، ثم قتلوه، فأتاه النبي ﷺ فقال: «**قَتَلَ سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه**»مرتين أو ثلاثًا. ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، وحَفَر له، ما له سرير إلا ساعدا النبي ﷺ، ثم وضعه في قبره، ولم يَذْكُرْ أنه غَسَّله. قال ثابت: فما كان في الأنصار أيم أنفقُ منها.

وحدّث إسحاق بنُ عبد الله بنِ أبي طلحةَ ثابتًا قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ قال: «**اللهم صُبَّ عليها الخير صَبًّا، ولا تجعل عيشها كَدًّا كَدًّا**». قال: فما كان في الأنصار أيم أنفقُ منها.

قال الإمام أبو عبد الرحمن، عبدُ اللهِ بنُ الإمام أحمد عن هذا الحديث: «ما حدّث به في الدنيا أحد إلا حمادَ بنَ سلمة، ما أحَسَنهُ من حديث»[1].

وهذا الحديث قد أخرج جزءًا منه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، وهو ما يتعلق باستشهاد جليبيب، وما قاله النبي ﷺ في شأنه، وَوَضْعِهِ إياه على ساعديه حتى وضعه في قبره.

والذي يتأمل قصة جليبيب ـ رضي الله عنه ـ يقف فيها على درسين عظيمين:

أولهما: عناية النبي ﷺ بشؤون أمته، وقضاؤه حاجاتهم، حيث سعىٰ ﷺ في أمر جليبيب ـ رضي الله عنه ـ حتى زوجه، وعندما فقده في تلك المعركة سأل أصحابه: «**هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: لا، قال: «**لكني أفقد جليبيبًا**». قال: «**فاطلبوه**» فلما بحثوا عنه وجدوه مقتولاً، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**قَتَلَ سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه**». وهكذا نرى اهتمامه ﷺ

(١) المسند (٤/ ٤٢٢).

بشأن هذا الصحابي الشهيد، رغم أنه لم تكن له تلك المكانةُ الكبرى في النسب أو الجاه، لكنَّ رسول الله ﷺ أكبره لأنه كان يملك أعظم من ذلك. كان يملك قلبًا ممتلئًا بالإيمان، يكشف عن ذلك شجاعته وإقدامه، وإيثاره الآخرة بطلب الشهادةِ التي نالها. ذلك هو ما جعل النَّبي ﷺ يُكْبره ويقول: «**هذا مني وأنا منه**»، وذلك دليل واضح على أن مكانة المرء في الإسلام ليست على حَسَب جمال المظهر، ولا كثرةِ المال، ولا عُلوِ المنصب، وإنما هي على حسب ما في القلب من قوة الإيمان وصدق النية، وسلامةِ القصد، كما ثبت ما يدل على ذلك فيما أخرجه الإمام مسلم في كتاب البِّر والصلة والآداب من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يَنظرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وإن ما فعله النبيُّ ﷺ مع جليبيب لهو درس عظيم في التعامل مع الناس، وهو: أن تكون مكانةُ الناس في قلوبنا وتعاملنا على حسب إيمانهم وصدق نياتهم فقط، فنكرمَ المجاهد العابد ونحبَّهُ ولو كان أفقر فقير، ونبغض الفاسق المعاند ولو كان أكثر الناس مالاً، وأعلاهم منصبًا، وأجملهم مظهرًا، وذلك هو أوثق عرى الإيمان.

وثاني الدروس والعبر: الحث على امتثال أمر النبي ﷺ، وبيانُ عاقبةِ طاعته والرضا بما اختاره، ذلك أن تلك الجارية لما علمت بردِّ أُمها لجليبيب ورغبةِ النبي ﷺ في زواجها بِجُليبيب، قالت: «أتردون على رسول الله ﷺ أمره، ادفعوني إليه، فإنه لم يضيعني»، وفي رواية: «أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان رضي لكم فأنكِحوه» قال الراوي: فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: «إن كنتَ رضيتَه فقد رضيناه. فقال: إني قد رَضِيْتُه،

فزَوَّجَها».

ولقد كان من آثار تلك الاستجابة من هذه الفتاة لأمر رسول الله ﷺ أن الله تعالى صبّ عليها الخير صبًّا، فلم يكن في الأنصار أيم أنفق منها، كل ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ لما قال: «**اللهم صُبّ عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشها كدًّا كدًّا**». وكان من آثار تلك الاستجابة كذلك أن هذه الجارية الصالحة قد خَفّفَتْ ذلك الألم الذي سيطر على قَلْبَيْ والديها عندما قبلتِ الزواجَ بجليبيب، كما جاء ذلك في رواية البزار: «فكأنما حَلّت عن أبويها عقالاً».

وأكرمها الله ـ عز وجل ـ بأن جعل زوجها شهيدًا في سبيله، لا يزال ذكره مدونًا في سجل الشهداء الأبرار إلى قيام الساعة.

فهنيئًا لجليبيب بالشهادة، وهنيئًا لهذه الزوجة الصالحة الصابرة بهذا الزوج الشهيد السعيد، ولا حَرَمَها الله من شفاعته يوم الدين، ومَنَّ علينا جميعًا بالسعادة بطاعته حتى نلقاه، إنه سميع قريب.

* * *

شيخ عزم على أن يطأ بعرجته في الجنة!

إن المؤمن عند ما يتمكن الإيمان من قلبه، ويسيطر على روحه ووجدانه، ويتغلغل في أعماق نفسه فإنه سيقف أمام الأهوال والشدائد كالجبل الشامخ، لا يتزعزع له إيمان، ولا يضعف له حماس، بل لا تراه إلا حريصًا على الخيرات، سباقًا إليها، وربما كان به عاهة، يُعذر بسببها، فلا تطيب نفسه، ولا يطمئن قلبه إلا في أداء الواجب الذي يرى فيه صلاحَ قلبه، وزوالَ همِّه.

وممن يصدق عليه هذا الوصف الجليل: الصحابي الشهيد عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ ذلك الشيخُ الكبيرُ الذي عزم على أن يطأ بعرجته في الجنة، يوم عَزَمَ على دخولِ معركةِ أحد، سائلاً ربَّه ـ عز وجل ـ الشهادة في سبيله.

يذكر الذهبي في السِّيَر اسمَه ونسبَه، فيقول: «عمروُ بنُ الجموح بنِ زيدِ بنِ حرام بنِ كعب بنِ غَنْم بنِ كعب بنِ سَلِمَةَ بنِ سعد بنِ علي بنِ أسد بنِ ساردة بنِ تزيد بنِ جُشَم بنِ الخزرج، الأنصاري السَلَمِيّ الغَنْمِيّ»[1].

يحدّث ابنُ إسحاقَ في المغازي عن حاله قبل إسلامه، فيقول: «كان عمرو بن الجموح سيدًا من سادات بني سَلِمَة، وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صَنَمًا مِنْ خشبٍ يعظمه، فلما أسلم فتيان بني سَلِمة، منهم ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل، كانوا يدخلون على صنم عمرو، فيطرحونه في بعض حفر بني سَلِمة، فيغدو عمرو، فيجده منكبًا لوجهه في العَذِرة، فيأخذه،

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٢).

ويغسله، ويطيبه، ويقول: لو أعلم مَنْ صَنَعَ هذا بك لأخزينه، ففعلوا ذلك مرارًا، ثم جاء بسيفه، فعلقه عليه، وقال: إن كان فيك خير فامتنِعْ، فلما أمسىٰ أخذوا كلبًا ميتًا، فربطوه في عنقه، وأخذوا السيف، فأصبح، فوجده كذلك، فأبصر رشده وأسلم، وقال في ذلك أبياتًا، منها:

تالله لو كنت إلهًا لم تكن أنت وكلب وَسْطَ بئر في قَرَن

ويوم أعلن عمرو دخوله في الإسلام، تمكن الإيمان من قلبه، فاجتث منه الضلال والزيف، ووجد في الإسلام متعة ولذة، فقد اكتشف حياته من جديد، بعد أن قضىٰ زمنًا طويلاً في ظلمات الجاهلية ومتاهاتها، ورأى بعينه ما في الشرك والوثنية من ضلال يهوي بنفس صاحبه إلى درك ليس له قرار، وتبين له أن أُفُقه بدأ يتسع، وأن أموره تيسرت، وأن نفسه الكبيرة قد تحولت إلى الخير، وعمله أضحى ذا هدف بَعْدَ أن كان لا معنى له.

وقد ثبت في السُنة الثناءُ عليه، كما أخرج ما يدل على ذلك البخاري في الأدب المفرد، وأبو الشيخ في الأمثال، وأبو نُعيم في المعرفة، وغيرُهم من طريق حجاج الصواف، عن أبي الزبير، قال: حدثنا جابر، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «**مَنْ سيدكم يا بني سَلِمَة**، قالوا: الجَد بن قيس، على أنا نبخله، فقال بيده هكذا، ومدّ يده: **وأيُّ داءٍ أدوأ من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح**» قال: وكان عَمْرٌو يَوْلِمُ على رسول الله ﷺ إذا تزوج. ورواه أبو نُعيم في المعرفة، وفي الحِلْيَة، وأبو الشيخ أيضًا، والبيهقي في الشُعَب، من طريق ابن عيينة، عن ابن المنكدر، عن جابر نحوه، ورَوىٰ الوليد بن أبان في كتاب السخاء من طريق الأشعث بن سعيد، عن عمرو بن دينار، عن جابرٍ نَحْوَه، ورواه أبو نعيم أيضًا من طريق حاتم بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن عطاء، عن عبد الملك

ابن جابر بن عَتِيْك عن جابر بن عبد الله نحوه، وقال فيه: بل سيدكم الأبيض الجعْد، عمرو بن الجموح، ورواه أبو الشيخ، والحسن بن سفيان في مسنده من طريق رشيد، عن ثابت، عن أنس مُخْتَصَرًا، ورواه الحاكم في المستدرك، وأبو الشيخ عن أبي سَلَمة عن أبي هريرة نحوه لكن إسناده غريب[1]. ورواه الوليد بن أبان من طريق الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن النبي ﷺ مُرْسَلاً، وروى أبو خلَيفة عن ابن عائشة، عن بشر بن المفضل عن أبي شبرمة، عن الشعبي نحوه، قال ابن عائشة: فقال بعض الأنصار في ذلك:

وقال رسول الله والقول قولُه ... لِمن قال منا مَنْ تُسمون سيدًا؟
فقالوا له جَدُّ بنُ قيس على التي ... نبخله منها وإن كان أسودًا
فَسوّد عمروَ بن الجموح لجوده ... وحُقّ لعمرو بالندى أن يُسوَّدَا
فلو كنتَ يا جَدُّ بنَ قيسٍ على التي ... على مثلها عمرو لكنت المسوَّدا[2]

إخوتي الكرام:

لقد أوقف شهيد الإسلام عمرو بن الجموح حياته كلَّها لله، ولم يمنعه عرجه الشديد من أن يجود بنفسه في سبيل الله، لكن أولاده مَنَعوه من الخروج إلى بدر، فلما كان يومُ أحد قال رسول الله ﷺ قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.. فقام عمرو وهو أعرج، فقال: والله لأقحزنَّ عليها في الجنة، أي لأثبنَّ، فقاتل حتى قُتل ـ رضي الله عنه ـ.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن من حديث أبي قتادة، قال: أتى عمروُ بنُ الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن قاتلتُ

(١) الإصابة (٢/ ٥٣٠).
(٢) المرجع السابق.

في سبيل الله حتى أُقتل، أأمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ وكانت رجله عرجاء ـ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**». فقتلوا يوم أحد هو وابنُ أخيه، ومولىٰ له. فمّر رسول الله ﷺ فقال: «**كأني أَنْظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة**». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما، فجُعلوا في قبرٍ واحد.

إخوتي الكرام:

وما مضى من قصة عمرو بن الجموح فيه درسان عظيمان، ينبغي لنا الوقوف عليهما:

فأولهما: أنه ينبغي للمرء العاقل إذا اتضحت له معالم الحق أن يسلك طريقه عاجلاً دون إبطاء أو تخاذل أو تسويف، كما حصل ذلك من عمرو بن الجموح، لمّا علم أن الإسلام هو دين الحق دخل فيه، وحمد الله تعالى الذي أنقذه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وصفائه، ولذا كان يقول:

أتوب إلى الله سبحانه ... وأستغفر الله من ناره

وأثني عليه بآلائه ... بإعلان قلبي وإسراره

والتوبة إلى الله بالرجوع إلى الحق، والاستسلام لله ـ عز وجل ـ بالطاعة والخلوص له من الشركِ والكفر، كما فعل عمرو بن الجموح هو سبيل من يريد السعادة في دنياه وأُخراه.

ومن رأى الحق والنور ثم حاد عنه فليعلم أنه ليس له جزاء إلا النارُ، وبئس القرار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[1].

وثاني تلك الدروس: أنَّ في إصرار عمرو بن الجموح على دخول معركة

(١) آل عمران (٩١).

أحد رغم أنه معذور لعرجه الشديد، إن في ذلك لدرسًا عظيمًا للشيوخ والشباب من المسلمين.

إنه درس للشيوخ في أن يطلبوا ما طلبه عمرو، باتباع الصراط المستقيم، والثباتِ عليه، والاجتهادِ في الطاعات، والتقربِ إلى الله ـ تعالى ـ بالأعمال الصالحات، وأن يقبلوا على الآخرة، ويعرضوا عن الأمور التي تنسيهم إياها، وتحببُ إليهم الدنيا، وليعلموا أنهم عن قريب راحلون، فليُروا الله ـ تعالى ـ من أنفسهم خيرًا، وليطمئنوا إلى أنهم على خير عظيم إن ثبتوا على طاعة الله ـ عز وجل ـ فقد أخرج أحمد في المسند، والبيهقيُّ في السنن الكبرى، وفي شعب الإيمان من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «. . **ما من مسلم يَشِيْبُ شيبةً في الإسلام إلا كُتب له بها حسنة، ورُفع بها درجة، أو حُط عنه بها خطيئة**» وهو حديث صحيح[١]، وعند الطبراني في الكبير بإسنادٍ قوي[٢]: «**من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة**».

وما مضى من قصة عمرو بن الجموح فيه درس عظيم كذلك للشباب المسلم، أن تكون لهم همة في الدفاع عن حياض الإسلام كهمة عمرو بن الجموح، الشيخِ الكبيرِ الذي لم يمنعه كِبَرُ سِنّه، وعرجه الشديد أن يسلك سبيل الشهادة في سبيل الله بدخول معركة أحد!

أَوَليس مَنْ كان في سن الشباب والقوة أجدرَ بأن يهيىء نفسه، ويشحذَ همته لينال الدرجات العلا من الجنة، فيجعل من نفسه جنديًا من جنود الإسلام

(١) انظر مسند الإمام أحمد (١١/ ٢٥٤) بتحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه.
(٢) انظر مسند الإمام أحمد (١١/ ٢٥٤) بتحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه.

المخلصين، ويوطِّنَ نفسه على فعل الخيرات، ومجانبة المنكرات؟ ألا فليعلمْ كل شاب مسلم أن سن الشباب محدود، وأن الله ـ تعالى ـ سيسأله عنه، فليُرِ الله ـ تعالى ـ من نفسه خيرًا.

وفقني الله وإياكم لطاعته، وأماتنا على محبته، وثبتنا على عبادته، إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

* * *

قاهر أحفاد القردة والخنازير

الدفاع عن حياض الشريعة، والتصدي لدعوات المكذبين، والوقوفُ في وجوه المبطلين حتى لو أدى ذلك إلى إزهاق الروح ونزفِ الدم، هذا كلُّهُ منهجُ المسلم الصادق الذي لا يخشى في الله لومة لائم.

والصحابيُّ الجليلُ سعدُ بنُ معاذ ـ رضي الله عنه ـ أحد المؤمنين الصادقين الذين ساروا على هذا المنهج حتى آخر لحظة من حياتهم.

يقول عنه الإمام الذهبي في بداية ترجمته: «السيد الكبير الشهيد، أبو عمرو الأنصاري الأوسي الأشهلي، البدري الذي اهتز العرش لموته. ومناقبه مشهورة في الصحاح وفي السيرة، وغيرِ ذلك»[1] اهـ.

أسلم ـ رضي الله عنه ـ على يد مصعب بن عمير. قال ابن إسحاق: لما أسلم وقف على قومه، فقال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا فضلاً، وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلامكم عليَ حرام؛ رجالُكم ونساؤكم، حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما بقي في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وأسلموا[2].

وإن الواحد منا عندما يلقي نظرة في حياة هذا الإمام الشهيد يجد أنه كان في ساحات الجهاد، ومواطنِ النزال العلمَ المناضل والفارسَ المِغوار.

وقد كتب الله ـ تعالى ـ وقدّر أن تكون بدايةُ نهايته ـ رضي الله عنه ـ يوم

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٧٩).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٧).

الخندق، يوم تجمّعت الأحزاب من كل مكان، تحارب الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ والمؤمنين، حيث ضربه رجل من قريش، اسمه حِبّان بن العَرِقة، ضربه بسهم، فأصاب أَكْحَلَهُ ـ وهو عرق في اليد يُفصد ـ فحسمه رسول الله ﷺ كَيًا بالنار، فاستمسك الجرح ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ وكان سعد قد دعا الله ـ تعالى ـ أن لا يميته حتى يُقر عينه من بني قريظة. وذلك حين نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهود والمواثيق والذِمام، ومالوا عليه مع الأحزاب، فلما ذهب الأحزاب وانقشعوا عن المدينة وباءت بنو قريظة بسواد الوجه، والصفقةِ الخاسرةِ في الدنيا والآخرة، وسار إليهم رسول الله ﷺ ليحاصرهم، فلما ضيق عليهم وأخذهم من كل جانب أنابوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فيحكم فيهم بما أراه الله، فردّ الحكمَ فيهم إلى رئيس الأوس، وكانوا حلفاءَهم في الجاهلية، وهو سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فرضوا بذلك، ويقال: بل نزلوا ابتداء على حكم سعد؛ لما يرجون من حنوه عليهم، وإحسانِه وميلِهِ إليهم، ولم يعلموا بأنهم أبغض إليه من أعدادهم من القردة والخنازير، لشدة إيمانه وصِدّيقيته ـ رضي الله عنه ـ فبعث إليه رسولُ الله ﷺ وكان في خيمة في المسجد النبوي، فجيء به على حمار، ولما قارب خيمةَ رسولِ الله ﷺ أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ منْ هناك بالقيام له؛ قيل: لينزل من شدة مرضه، وقيل توقيرًا له بحضرة المحكوم عليهم ليكون أبلغ في نفوذ حكمه، والله أعلم، فلما حَكم فيهم بالقتل والسبي، وأقر الله عينه، وشفى صدره منهم، دعا اللهَ ـ عز وجل ـ أن تكون له شهادة، واختار الله له ما عنده، فانفجر جرحه من الليل، فلم يزل يخرج منه الدم حتى مات ـ رضي الله عنه ـ.

وقد أخرج الإمام البخاري قصة سعد في كتاب المغازي عن عائشة ـ رضي الله

عنها ـ قالت: «أصيب سعد يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش، يقال له: حِبان ابنُ العَرِقة؛ رماه في الأَكْحَل، فضرب النبيُّ ﷺ خيمةً في المسجد ليعودَه من قريب، فلما رجع رسولُ الله ﷺ من الخندق وَضَعَ السلاحَ واغتسل، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو ينفُض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعتَ السلاح، والله ما وضعته، أُخرج إليهم. قال النبيُّ ﷺ: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردَّ الحكم إلى سعد. قال: فإني أحكم فيهم: أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. قال هشام بن عروة: فأخبرني أبي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن سعدًا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولَك وأخرجوه. اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها، واجعل موتي فيها. فانفجرت من لَبته (وهي موضع القِلادة من الصدر). فلم يَرُعْهُمْ وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدمُ يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات منها ـ رضي الله عنه ـ.

وقد بُين سببُ انفجار الجرح في مرسل حميد بن هلال عند ابن سعد، ولفظه: إنه مرت به عنزَ، وهو مضطجع فأصاب ظَلفُها موضعَ الجرح، فانفجر حتى مات. ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري.

وقد أخرج الإمام أحمد قصة سعد بن معاذ من وجه آخر عن عائشة مطولاً جدًا، أذكره هٰهنا لأن فيه جمعًا من الفوائد.

تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس،

قالت: فسمعت وئيد الأرض ورائي، فالتفتُ فإذا أنا بسعد بن معاذ، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مِجَنه (أي ترسه) قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم. فمر وهو يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يشهد الهيجا جمل ما أحسن الموتَ إذا حان الأجل

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا نفر من المسلمين، فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سَبْغَة له تعني المغفر، فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوُز (أي هزيمة) قالت: فما زال يلوموني حتى تمنيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذٍ فدخلت فيها، قالت: فرفع الرجل السبغة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيد الله، فقال: يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله ـ عز وجل ـ، قالت: ويرمي سعدًا رجل من المشركين من قريش يقال له: ابن العَرِقَة بسهم له، فقال له: خذها وأنا ابن العَرِقة، فأصاب أَكْحَلَه، فقطعه، فدعا الله ـ عز وجل ـ سعد فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة.

قالت: وكانوا حلفاءه وموالِيَه في الجاهلية، قالت: فرقأ كَلْمُه وبعث الله ـ عز وجل ـ الريح على المشركين، فكفى الله ـ عز وجل ـ المؤمنين القتال، وكان الله ـ عز وجل ـ قويًا عزيزًا. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولِحق عيينةُ بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة، فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول ﷺ إلى المدينة فوضع السلاح، وأمر بقبة من أدَم، فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: قد

وضعت السلاح؟ والله ما وضعت الملائكة بعدُ السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم، قالت: فلبِس رسول الله ﷺ لأمته وأذّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ، فمّر على بني غنم وهم جيران المسجد حوله، فقال: من مر بكم؟ فقالوا: مَرّ بنا دِحْية الكلبي، تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل ـ عليه السلام ـ فقالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فقال رسول الله ﷺ: انزلوا على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا.

وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأتي به على حمار، عليه إكافٌ من ليف، قد حُمل عليه، وحف به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو: حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية، ومَن قد علمت، قالت: ولا يرجع إليهم شيئًا، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه، فقال: قد آن لي أن لا أُبالي في الله لومة لائم، قالت: قال أبو سعيد: فلما طلع على رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فقال عمر: سيدنا الله عز وجل، قال: أنزلوه، فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله ـ عز وجل ـ وحكم رسوله. قالت: ثم دعا سعد، فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك ﷺ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلْمه، وكان قد بَرِىء منه إلا مِثْلَ الخُرص ـ وهي الحلْقة من الذهب والفضة ـ ورجع إلى قبته التي ضَرَب

عليه رسول الله ﷺ، قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله ـ عز وجل ـ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾،[1] قال علقمة: قلت: أي أُمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وَجَد فإنما هو آخذ بلحيته»[2].

قال الإمام ابن كثير بعد ذكره هذه الرواية من مسند الإمام أحمد: «وهذا الحديث إسناده جيد، وله شواهد من وجوه كثيرة، وفيه التصريح بدعاء سعد مرتين، مرة قبل حكمه في بني قريظة، ومرة بعد ذلك»[3].

تلك هي حياة الصحابي الشهيد سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ الذي بذل روحه ووقته في الدفاع عن الحق، وتلك هي مواقفه التي أبان فيها عن صدقه مع الله ـ عز وجل ـ ومع رسوله ﷺ، والتي أعلن فيها كذلك أنه لا ولاء ولا نصرة إلا لله وحده، وأنه مع الحق ولو كان واحدًا، وأنه كذلك واقف وقفه صامدة ضد الباطل وأهله ولو كان المنتمون إليه حلفاءه ومواليه، وتلك هي صفات المؤمنين الصادقين فأنعم بها من أخلاق، وأنعم بها من مُثُل.

* * *

(١) الفتح (٢٩).
(٢) المسند (٦/ ١٤٢).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ١٢٦).

دروس وعِبَر

ولا تخلو قصة سعد بن معاذ من الدروس والعبر، وهذا موجز لها:

١ـ بيان المكانة الكبرى لسعد ـ رضي الله عنه ـ دلّ على ذلك قول النبي ﷺ للأنصار لما قدم سعد من المسجد: «**قوموا إلى سيدكم**»، وأخذنا ذلك كذلك من أمره ﷺ أصحابه أن يضربوا لسعد خيمة في المسجد، وذلك لمّا ضربه ابن العرقة بسهم في أَكْحَلِه، ليعوده من قريب، ومن قوله: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**».

ولسعد ـ رضي الله عنه ـ كذلك مكانته العالية في الإسلام، كما كشفت عن ذلك السنة الشريفة في أحاديث أخر.

أخرج الإمام أحمد في مسنده، والبزار، والطبراني في معجمه الكبير بأسانيد، رجالها رجال الصحيح[1]، من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**».

وروى الحاكم في مستدركه بسند صحيح، وافقه عليه الذهبي من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما مات سعد بن معاذ صاحت أمه، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَلا يرقأ دمعُكِ، ويذهبُ حزْنُكِ، فإن ابنك أول من ضحك الله إليه، واهتز له العرش**»، وأخرج عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة عن الحسن بسند صحيح أنه فسّر اهتزاز

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٥٠٩).

العرش، قال: فرحًا بروحه[١].

وأخرج الحاكم كذلك بإسناده، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته؟ وما ذاك إلا لحكمه في بني قريظة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**لا، ولكن الملائكة كانت تحْمِلُه**» وقال ابن كثير عن إسناد الحديث: إنه جيِّد.

وأخرج كذلك بإسناد صحيح وافقه عليه الذهبي من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «قدمنا من سفر، فتلقونا بذي الحليفة، وكان غلمان الأنصار يتلقونهم إذا قدموا، فلقُوا أُسيد ين حُضير، فنعَوا إليه امرأته، فتقنع يبكي، قالت: فقلت له: سبحان الله، أنت من أصحاب رسول الله ﷺ ولَكَ في السابقة مالَكْ، تبكي على امرأة، فكشف عن رأسه، فقال: صدقت لَعَمْرُ الله،[٢] والله ليحق لي أن لا أبكي على أحد بعد سعد بن معاذ، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال. قالت له: وما قال؟ قال: قال: «**لقد اهتز العرش لوفاة سعد بن معاذ**» قالت: وهو يسير بيني وبين رسول الله ﷺ».

وأخرج البزار بسند رجاله رجال الصحيح، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن أُكيدر الدَّومةَ بعث إلى رسول الله ﷺ جبة سندس، فلبسها رسول الله ﷺ، فتعجب الناس منها، فقال: «**أتعجبون من هذه!! فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها**» ثم أهداها إلى عمر

(١) انظر «السنة» (٢/ ٤٦٦) بتحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني.

(٢) أسلوب قسم، واللام فيه للتوكيد، وعَمْرُ مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: قسمي أو ما أقسم به. وإذا لم تُدخل اللام نصب على المصدرية، تقول: عَمْرَ الله ما فعلت كذا. «مختار الصحاح» ص(٤٥٤).

فقال: يا رسول الله، تكرهها وألبسها! قال: «**يا عمر، إنما أرسلت بها إليك لتبعث بها وجهًا، فتصيبَ بها مالاً**» وذلك قبل أن ينهى عن الحرير.

قال الهيثمي: هو في الصحيح باختصار، بعثها إلى عمر إلى آخره.

٢ـ ومن الدروس والعبر المستفادة من قصة سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ بيان استجابة الله ـ تعالى ـ لسعد في دعائه، فإنه دعا مرتين واستجاب الله دعاءه، لقد دعا في المرة الأولى لما ضربه ابن العرقة فقال: «اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة»، فاستجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه، ورقأ كلمُه بفضل الله ـ عز وجل ـ ورحمته، وقد جاء في إحدى الروايات أن النبي ﷺ حسم الجرح كيًا بالنار، فاستمسك.

وأما الدعوة الثانية التي استجابها الله تعالى من سعد ـ رضي الله عنه ـ فهي قوله: «اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا، فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك». قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ مبينة إجابة الله ـ تعالى ـ دعوة سعد: فانفجر كلمُه، وكان قد برىء حتى لا يُرى منه إلا مثل الخُرص أي: الحلْقة من الذهب والفضة.

ثم مات سعد ـ رضي الله عنه ـ شهيدًا، وهذه الرواية هي رواية الإمام أحمد، وإسنادها جيد كما تقدم ذكره.

وعند الإمام البخاري أن سعدًا دعا قائلاً: «اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء، فأبقني حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها، واجعل موتي فيها». قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «فانفجرت من لَبّته، فلم يَرُعْهُم ـ وفي المسجد

خيمة من بني غِفار ـ إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: ياأهل الخيمة، ماهذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد ـ رضي الله عنه ـ يغذو جرحه دمًا، فمات منها رضي الله عنه.

يقول الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ عند شرحه هذا الحديث: «والذي يظهر لي أن ظن سعد كان مصيبًا، وأن دعاءه في هذه القصة كان مجابًا، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين، فإنه ﷺ تجهز إلى العمرة، فصدوه عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم، فلم يقع، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ثم وقعت الهدنة، واعتمر ﷺ من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد، فتوجه إليهم غازيًا، ففتحت مكة. فعلى هذا، فالمراد بقوله: «أظن أنك وَضَعْتَ الحرب» أي: أن يقصدونا محاربين، وهو كقوله، كما في الحديث الوارد في أواخر غزوة الخندق: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**»ا. هـ

إذن فالمقصود هاهنا بيان أمر مهم، وهو أن سعدًا ـ رضي الله عنه ـ بلغ منزلة كبرى من الإيمان بالله ـ تعالى ـ والتصديق به، والانكسار له، ما جعله مستجاب الدعوة، وهذه موعظة لنا وللمسلمين جميعًا، أن نسلك مسلك أولئك الرجال الصادقين بالإيمان الصادق بالله ـ تعالى ـ واليوم الآخر، وبخشوع القلوب والجوارح له سبحانه، حتى إذا رفعنا أيدينا إلى الله ـ عز وجل ـ استجاب دعاءنا، وحقق آمالنا.

ولنعلم جميعًا أن المسلم إذا دعا الله بصدق أن يرزقه الشهادة في سبيله، فإن الله ـ تعالى ـ يبلغه أمله، ويوصله إلى مطلوبه بنيته الصالحة، وعزمه

الصادق حتى لو مات على فراشه، كما دل على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي من حديث سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**». رزقني الله وإياكم الشهادة في سبيله، والموت تحت راية الإسلام مقبلين غير مدبرين، إنه سبحانه ولي ذلك، والقادر عليه.

٣ـ جواز تمني الشهادة، وهذا مخصوص من عموم النهي، ودل على ذلك قول سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك» فدل إذن قوله «فاقبضني إليك» على جواز تمني الشهادة، ومفارقة الدنيا، وهذه السمة هي التي كان عليها أصحاب محمد ﷺ.

٤ـ لجوء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى الله ـ عز وجل ـ واعتصامهم به ـ سبحانه ـ كما هو واضح من قول طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ لعمر: «يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله ـ عز وجل ـ». وقد قال طلحة هذا القول لما قال عمر لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز» أي هزيمة.

٥ـ الكشف عن تطلع سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ إلى الآخرة، وزهده في الدنيا، أبان عن ذلك دعاؤه عندما قال: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك»!

نعم إنه لا يتمنى الحياة ليعيش حياة المترفين، والمنعمين، يسكن القصور الشامخة، يأكل ملء فيه، ويشرب ملء فيه، وينام ملء عينيه، ويروي غليل شهوته، ويعيش حياة كحياة الأنعام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ .

كلا إن سعدًا تأبى عليه نفسه المتطلعة إلى الجنان، المشبعة بالإيمان العميق أن تكون حياته كحياة التافهين والبطالين، إنه يريد حياة الأبرار الصادقين، الذين لا تراهم إلا في ميادين النزال، ومكرِّ الرجال، يدافعون عن حياض الشريعة، يذبون عنها عدوان الكفرة والملحدين، ويقتلعون منها صروح اليهود الخائنين. وكأنما شعاره قول القائل:

أنا لا أهاب الموت إن هو أقبلا بل أستحث له خطاي مهرولاً.

فهو السبيل لنصر شعب مبتلى ووراءه الفردوس طابت منزلاً.

نعم إن سعدًا لا يريد إلا هذه الحياة، فإن كان الله ـ تعالى ـ قد قضى أن تنتهي الحرب مع قريش، فإنه يريدها شهادة في سبيل الله، يلحق فيها بركب الشهداء في سبيل رب العالمين، لينال أجرهم الذي وعدهم الله ـ تعالى ـ إياه وهو سبحانه لا يخلف الميعاد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾[1] .

٦ـ بيان الرحمة، والرأفة التي كان عليها أصحاب محمد ﷺ، يؤخذ ذلك ويستفاد من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ كما في رواية الإمام أحمد: «فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾».

إن الذي تقوله عائشة ـ رضي الله عنها ـ يعني أن أبا بكر وعمر ـ رضي الله

(١) ال عمران(١٦٩ / ١٧١).

عنهما ـ تأثرًا تأثُّرًا كبيرًا لانفجار جرح سعد ـ رضي الله عنه ـ حتى بكيا ـ رحمة به ـ رضي الله عنهم أجمعين، وهذا كله هو الذي ذكر الله ـ تعالى ـ في كتابه المبين، حيث قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾[1].

وإن هذه الشفقة والرحمة التي كانت بين أصحاب محمد ﷺ، كما تدل عليها قصة سعد ـ رضي الله عنه ـ دعوة لنا جميعًا، أن نلزم المنهج الذي كانوا عليه، من الرأفة والرحمة والمحبة، لننال رحمة الله ـ تعالى ـ وجنته، وهو أمر يسير على من يسره الله ـ تعالى ـ له.

٧ـ في قصة سعد بن معاذ مع بني قريظة وقوله لهم: «قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم» ما يوضح منهج المسلم مع الكفار، حتى لو كانوا حلفاءه ومواليه من قبل، وهو أن يعاديهم، ويبغضهم، لكفرهم، وحربهم لله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ، وأن لا تأخذه معهم في الله لومة لائم، فيحكم فيهم إذا طلب منه ذلك بحكم الله ورسوله ﷺ، محققًا في ذلك ومطبقًا عقيدة البراءة من الكفار، ومعاداتهم، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾[2] وقوله ـ سبحانه ـ:

(١) سورة محمد(٢٩).

(٢) سورة الممتحنة(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

٨ـ أهمية الحكم بما أنزل الله ـ تعالى ـ في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ وأن الاحتكام إلى الكتاب والسنة هو سبيل السعادة، وسفينة النجاة، ولذلك فرح النبي ﷺ بحكم سعد في بني قريظة أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، فرح النبي ﷺ بهذا الحكم، لأنه الموافق لحكم الله ـ تعالى ـ وحكم رسوله ﷺ، وقد كان ذلك الحكم هو جزاء كل كافر معاند، ناقض للعهود، خائن للأمانات. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ مقرًا سعدًا على حكمه في بني قريظة: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**».

وهذا يستفاد منه كذلك: الحذر من الاحتكام إلى غير الكتاب والسنة من القوانين الوضعية، والدساتير الأرضية، التي تحمل كل معاني الفساد من الظلم والجور، ومحاداة الله ورسوله ﷺ.

رزقنا الله جميعًا الاحتكام إلى شريعته، والرضىٰ بحكمه، وجنبنا آراء المبطلين، وأهواء المنافقين، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين. والله ـ تعالى ـ أعلم.

* * *

(١) سورة الممتحنة(١٣).

شهيد تُسْتَر

إخوتي الكرام:

الحديث عن البطولة والأبطال الشهداء شهي إلى كل نفس، حبيب إلى كل قلب، يستوي في الشوق إليه الكبار والصغار، والنساء والرجال... لا تَمَلُّ الأسماع روايتَه، ولا يُخْلِقُ التكرار جِدَّته، ففي ذات كل منا بطل، مستكِنّ في ضميره، فهو إما أن يحققه في واقع حياته، وإما أن يصنعه بخَياله وأشواقه.

وما يقال في هذا الصدد عن الأفراد، يقال عن الشعوب أيضًا، فهي ما تزال تبحث في حياتها عن البطل في كل مجال، فإن لم تجده في الحقيقة اخترعته من خيالها اختراعًا، ثم ألصقت به من روائع البطولات ما لا يصدقه عقل، ولا يقره منطق. حتى إذا غدا هذا الذي ألصقته بأبطالها على مَرِّ الأيام في نظرها حقيقةً، لا تقبل الجدل، أَلَّهَتِ البطل وعبدته، كما فعل اليونان والرومان بأبطالهم.

لكننا ـ نحن معشر المسلمين ـ لسنا بحاجةٍ لأن نخترع الأبطال لأنفسنا اختراعًا، ولا أن نبتدع لهم البطولات من عندنا ابتداعًا، فتاريخنا ـ كما يشهد المؤرخون ـ من أحفل تواريخ الأمم بالبطولات، وأغناها بالأبطال. وهي بطولات على فذاذتها وروعتها حقائق واقعة موثقة بالأسانيد، روتها في الكثير الغالب جموع عن جموع، تحيل العادة تواطؤهم على الكذب. وما ذلك ـ أيها المسلمون ـ إلا لأن تاريخنا يمتاز من تواريخ الأمم الأخرى بميزات ثلاث:

أولها: أنه تاريخ طويل، دام أربعة عشر قرنًا، تتابعت حَلَقاتها من غير انفصام، واتصل آخرها بأولها برباط من كتاب الله أجل كتاب، وحبل من لغة

القرآن أكرمِ اللغات، مما جعل السلف يعيشون تجارب الخلف على الدوام، فكان ذلك سببًا في تكاثر البطولات لدينا وتنوعها.

وثانية تلك الميزات من ميزات تاريخنا: أنه تاريخ عريض، لأنه تاريخ أمة امتدت من المحيط إلى المحيط. وانضوت تحت لواء قرآنها أُمم وشعوب لها من الكفايات، والطاقات، والمآثر والمفاخر، ما يفوق كل تقدير.

وثالثة الميزات هي: أنه تاريخ عميق، لأن دولته قامت على عقيدة التوحيد لرب العالمين، والدولة حين تقوم على ذلك، تحفل حياتها بالبطولات من كل لون وصنف[1].

أيها المؤمنون:

ومن يتأمل في تاريخ الإسلام الطويل، يجده حافلاً بجمع كبير من قصص الأبطال، الذين صاحبت بطولتهم تاريخ هذا الدين الطويل، إلى يوم الناس هذا، وسيبقى بإذن الله ـ تعالى ـ سِمَةً من سمات الأمة الإسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

نَعَمْ إنها بطولات عظيمة عظيمة، يبعث عليها تقوى الله ـ تعالى ـ، والشعور العميق بالكرامة، والإحساس الشديد بالعزة، ويبعث عليها كذلك الحب في الله ـ تعالى ـ والإيثار على النفس، والزهد في الدنيا.

والزهد في الدنيا أجمل صفة للأبطال، فكم سجل التاريخ في أسفاره من بطولات الزهاد، وتضحياتهم، قصصًا تستلين القلوب القاسية، وتستدر الدموع العاصية.

(١) عن «البطولة»، للدكتور محمد رأفت الباشا ـ رحمه الله تعالى ـ.

والمتحدث هنا إنما يقدِّم هذه المقدمة عن البطولة والأبطال، لأن مِنْ أجمل الصفات التي يتحلّى بها شهيد الإسلام الذي يُتَحدَّث عنه الآن ـ إن شاء الله ـ هي صفة البطولة.

فمن هو هذا الشهيد البطل، وما تفصيل العمل الذي قدمه في الإسلام حتى نال الشهادة؟

إنه الصحابي الجليل البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

ذكر الذهبي اسمه ونسبه فقال: البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الأنصاري النجاري المدني، البطل الكرار، صاحب النبي ﷺ، وأخو خادم النبي ﷺ أنس بن مالك، شهد أحدًا، وبايع تحت الشجرة.

وقال الذهبي في نهاية ترجمته: «استشهد يوم فتح تُسْتَر، سنة عشرين» ا. هـ.

وسوف يأتي تفصيل ذلك ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن كيفية استشهاده.

ومن أعظم مناقب البراء ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ نوّه بذكره في حديثه الشريف، إذ أخرج الإمام الحاكم في المستدرك، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرج كذلك الترمذي في كتاب المناقب من سننه، باب مناقب البراء بن مالك، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك**»، قال الترمذي بعد أن ساق هذا الحديث بإسناده: هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه.

وسيأتي بيان وشرح لهذه السِمَة التي اتصف بها البراء ـ رضي الله عنه ـ عند

الحديث عن الدروس والعبر المستفادة من قصته إن شاء الله .

وإن قال قائل : قد ذكرت آنفًا أن من أبرز صفات البراء ـ رضي الله عنه ـ هي البطولة والشجاعة ، فما الدليل على ذلك؟ قيل له : دل على ذلك المعاركُ التي خاضها مدافعًا عن الإسلام ، والضربات والطعنات التي كانت تنزل به ، فيستقبلها بقلب مطمئن ، يشع منه إيمان عظيم ، ويقين بالله ـ تعالى ـ لا تُزعزعه الأحداثُ مهما بلغت شدتها ، وتفاقم خطرها ، وإن شاء السائل التمثيل لذلك ، فليستمع إلى الحدثين التاليين :

فأما الأول : فهو ما أخرجه خليفة بن خياط في تاريخه عن بكر بن سليمان ، عن ابن إسحاق ، أن البراء يوم حرب مسيلمة الكذاب أمر أصحابه أن يحتملوه على ترس ، على أسنة رماحهم ، ويلقوه في الحديقة . فاقتحم إليهم ، وشدّ عليهم ، وقاتل حتى افتتح باب الحديقة ، فجرح يومئذ بضعة وثمانين جرحًا ، ولذلك أقام خالد بن الوليد عليه شهرًا ، يداوي جراحه .

وأما الحدث الثاني : فهو ما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد حسن[1] ، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة قال : بينما أنس بن مالك وأخوه البراء بن مالك عند حصن من حصون العدو ، والعدو يلقون كلاليب في سلاسل محماة ، فَتَعْلَقُ بالإنسان ، فيرفعونه إليهم ، فعلق بعض تلك الكلاليب بأنس بن مالك ، فرفعوه حتى أقلوه من الأرض ، فأُتي أخوه البراء ، فقيل له : أدرك أخاك ، وهو يقاتل الناس ، فأقبل يسعىٰ حتى نزا في الجدار ، ثم قَبَضَ بيده على السلسلة وهي تدار ، فما برح يجرهم ويداه تدخنان حتى قطع الحبل ، ثم نظر إلى يديْهِ ، فإذا عظامه تلوح ، قد ذهب ما عليها من اللحم ، وأنجى الله ـ عز

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٥٤٠).

وجل ـ أنسَ بنَ مالك ـ رضي الله عنه ـ.

إخوتي الكرام:

وبسبب ذلك الإيمان العميق الذي امتلأ به قلب البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فقد تمنّى أن تكون نهايةَ حياته الشهادةُ في سبيل الله ـ جل وعلا ـ، بل كان يظن ذلك، ويتفاءل بحصوله، كما أخرج ما يدل على ذلك البغوي بإسناد صحيح، كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة[1] عن محمد بن سيرين، عن أنس قال: «دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى، فقلت له: قد أبدلك الله ما هو خير منه، فقال: أترهب أن أموت على فراشي، لا والله، ما كان الله ليحرمني ذلك، وقد قتلت مائة منفردًا، سوى من شاركت فيه».

ووقع عند الإمام الطبراني في معجمه الكبير بإسناد رجاله رجال الصحيح لفظ قريب من لفظ البغوي، عن أنس، قال: «استلقى البراء بن مالك على ظهره، ثم ترنم، فقال له أنس: اذكر الله أي أخي، فاستوى جالسًا، وقال: أي أنس، أتراني أموت على فراشي، وقد قتلت مائة من المشركين مبارزةً، سوى من شاركت في قتله».

وقد تحقق ما ظنه البراء واقعًا، حيث استشهد يوم فتح تُسْتَر سنة عشرين، عندما دعا الله ـ عز وجل ـ أن يمنح المسلمين أكتاف الكافرين، وأن يرزقه الشهادة، فنصر الله ـ تعالى ـ المسلمين، ووفقه للشهادة، فقتل في هذه الحادثة.

وهذه الحادثة، التي قُتل فيها البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ شهيدًا هي معركة فتح تُسْتَر، وهي بلدة معروفة في العراق، وقع فيها القتال بين المسلمين

(١) (٢/ ١٤٣).

والفرس سنة عشرين من الهجرة كما تقدم، وفيها كلم المسلمون البراء ـ رضي الله عنه ـ أن يلجأ إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء، أن ينصرهم على الكافرين، ويمنحهم أَكتافهم، ففعل، فاستجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه، فنصر المسلمين، واتخذه شهيدًا عنده.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ تفصيل هذه الحادثة في البداية والنهاية، وبين سبب وقوعها، فقال: «وكان سبب ذلك أن يزدجرد كان يحرض أهل فارس في كل وقت، ويؤنبهم بملك العرب بلادَهم، وقصدهم إياهم في حصونهم، فكتب إلى أهل الأهواز، وأهل فارس، فتحركوا، وتعاهدوا، وتعاقدوا على حرب المسلمين، وأن يقصدوا البصرة.

وبلغ الخبر إلى عمر، فكتب إلى سعد ـ وهو بالكوفة ـ أن ابعث جيشًا كثيفًا إلى الأهواز مع النعمان بن مقرِّن، وعَجِّل، ولْيكونوا بإزاء الهرمزان، وسَمَّىٰ رجالاً من الشجعان الأعيان الأمراء يكونون في هذا الجيش، منهم جرير بن عبد الله البجلي، وجرير بن عبد الله الحميدي، والنعمان بن مقرن، وسويد بن مقرن، وعبد الله بن ذي السهمين.

وكتب عمر إلى أبي موسى وهو بالبصرة أن ابعث إلى الأهواز جندًا كثيفًا، وأَمِّرْ عليهم سهيل بن عدي، وأمره كذلك أن يجعل عددًا من الأبطال الشجعان، وذكر في أول مَنْ ذكر شهيد الإسلام، الذي هو سبب ذكر هذه الحادثة البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال له: وليكن معه البراءُ بن مالك، وعاصم بن عمرو، ومجزأة بن ثور، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن حصن، وعبد الرحمن بن سهل، والحصين بن معبد. وليكن على أهل الكوفة، وأهل البصرة جميعًا أبو سبرة بن أبي رهم، وعلى كل من أتاه من المدد.

قالوا: فسار النعمان بن مقرن بجيش الكوفة، فسبق البصريين، فانتهى إلى رامهرمز، وبها الهرمزان، فخرج إليه الهرمزان في جنده، ونقض العهد بينه وبين المسلمين، فبادره طمعًاأن يقتطعه قبل مجيء أصحابه من أهل البصرة، رجاء أن ينصرأهل فارس، فالتقىٰ معه النعمان بن مقرن بإرْبِل، فاقتتلا قتالاً شديدًا، فَهُزِم الهرمزان، وفرَّ إلى تُسْتَر، وترك رامهرمز، فتسلمها النعمان عنوة، وأخذ مافيها من الحواصل، والذخائر، والسلاح، والعُدَدِ.

فلما وصل الخبر إلى أهل البصرة، بما صَنَعَ الكوفيون بالهرمزان، وأنه فر فلجأ إلى تُسْتَر، ساروا إليها، ولحقهم أهل الكوفة حتى أحاطوا بها فحاصروها جميعًا، وعلى الجميع أبو سَبْرَة، فَوَجدوا الهرمزان قد حَشَدَ بها خلقًا كثيرًا، وجمعًاغفيرًا. وكتبوا إلى عمر في ذلك، وسألوه أن يمدهم، فكتب إلى أبي موسىٰ، أن يسير إليهم، فسار إليهم وكان أمير أهل البصرة، واستمر أبو سبرة على الإمرة على جميع أهل الكوفة والبصرة، فحاصرهم أشهرًا، وكثر القتل من الفريقين..

قال ابن كثير مبينًا العمل الجليل الشجاع الذي قام به البراء شهيد هذه المعركة، معركة تستر، قال: وقتل البراء بن مالك أخو أنس بن مالك يومئذ مائة مبارز، سوى من قتل غير ذلك، وكذلك فعل كعب بن ثور، ومجزأة بن ثور، وأبو يمامة، وغيرهم من أهل البصرة.. حتى إذا كان في آخر زحف، قال المسلمون للبراء بن مالك وكان مجاب الدعوة: يابَراء، أَقْسِم على ربك ليهزمنَّهم لنا. فقال: اللهم اهزمهم لنا، واستشهدني، قال: فهزمهم المسلمون، حتى أدخلوهم خنادقهم، واقتحموها عليهم، ولجأ المشركون إلى البلد، فتحصّنوا به، وقد ضاقت بهم البلد، وطلب رجل من أهل البلد

الأمان من أبي موسى، فأمّنه، فبعث يدل المسلمين على مكان يدخلون به البلد، وهو من مدخل الماء إليها.

فَنَدَبَ الأمراءُ الناسَ إلى ذلك، فانتُدب رجال من الشجعان والأبطال، وجاءوا فدخلوا مع الماء كالبط إلى البلد، وذلك في الليل، فيقال: كان أول من دخلها عبد الله بن مغفل المزني، وجاءوا إلى البوابين، فأناموهم، وفتحوا الأبواب، وكبر المسلمون، فدخلوا البلد، وذلك في وقت الفجر، إلى أن تعالىٰ النهار، ولم يصلوا الصبح يومئذ إلا بعد طلوع الشمس.

كما حكاه البخاري عن أنس بن مالك، قال: «شهدتُ فتح تُسْتَر، وذلك عند صلاة الفجر، فاشتغل الناس بالفتح، فما صلوا الصبح إلا بعد طلوع الشمس، فما أُحبُّ أن لي بتلك الصلاة حمرَ النَعَم.

قال ابن كثير: احتج بذلك البخاري لِمكحولٍ والأوزاعيِّ في ذهابهما إلى جواز تأخير الصلاة لعذر القتال، وجَنَحَ إليه البخاري، واستدل بقصة الخندق في قوله ﷺ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ، ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا**»وبقوله يوم بني قريظة: «**لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة**» فأخرها فريق من الناس إلى بعد غروب الشمس، ولم يُعَنِّفْهُمْ..

والمقصود: أن الهرمزان لَمَّا فتحت البلد، لجأ إلى القلعة، فتبعه جماعة من الأبطال، مِمَنْ ذكرنا وغيرهم، فلما حصروه في مكان من القلعة، ولم يبق إلا هلاكه أو هلاكهم، قال لهم بعدما قتل البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور: إن معي جعبة فيها مائة سهم، وإنه لا يتقدم إليّ أحد منكم إلا رميته بسهم، ولا يسقط لِيَ سهم إلا في رجل منكم، فماذا ينفعكم إن أسرتموني بعدما قتلتُ منكم مائة رجل؟ قالوا: فماذا تريد؟ قال: تؤمنوني حتى أسلمكم يدي،

فتذهبوا بي إلى عمر بن الخطاب، فيحكم فيّ بما يشاء. فأجابوه إلى ذلك، فألقىٰ قوسه ونشابه، وأسروه، فشدوه وثاقًا، وأرصدوه ـ أي راقبوه ـ ليبعثوا إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ثم تسلموا ما في البلد من الأموال والحواصل، فاقتسموا أربعة أخماسه، فنال كل فارس ثلاثة آلاف، وكل راجِل ألف درهم»[1] ا. هـ

إخوتي الكرام:

والمقصود الذي يراد بيانه هنا من خلال إيراد هذه المعركة، معركة فتح تُستَر، هو الكشف عن الموقف الشجاع الذي وقفه البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عندما قتل ذلك الجمع الكبير من فرسان المشركين، وبيان إجابة الله تعالى لدعوته بنصر المؤمنين، وبإكرامه له بالشهادة يوم سأل ربه ـ عز وجل ـ ذلك بصدق، ولسوف يبقى هذا الحدث الكبير محفوظًا في سجل التاريخ، إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، يشهد لهذا الصحابي الشهيد، بإخلاص نيته، وصدق طويته، ثم بشجاعته وإقدامه النابِعَيْن، من قوة الإيمان، والتجرد، للحق.

جعلنا الله ـ تعالى ـ جميعًا من الصادقين المخلصين، وجنبنا طريق المرائين والمخادعين، إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

* * *

(١) البداية والنهاية(٧، ٨٧، ٨٨، ٨٩).

دروس وعبر

١ـ الكشف عن عدد من المناقب التي نالها البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ منها:

أ ـ بيان محبة الله ـ تعالى ـ للبراء، كما يدل عليها الحديث الذي تقدم معنا، وهو ما رواه الحاكم في مستدركه، والترمذي في كتاب المناقب، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كم من أشعث أغبر ذي طِمْرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله ـ عز وجل ـ لأبره، منهم البراء بن مالك**»، فبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن البراء لو أقسم على الله ـ عز وجل ـ لأبر الله قسمه وما ذاك إلا للمكانة الكبرى التي تبوأها البراء ـ رضي الله عنه ـ حتى نال هذا الشرف العظيم، ومثل ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ ـ قال في شأن عمه أنس بن النضر ـ رضي الله عنه ـ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**».

وتلك المنقبة العظيمة التي نالها البراء ـ رضي الله عنه ـ إنما نالها بسبب ذلك الإيمان العميق الذي تنور به قلبه، وهو ما ظهر في شدة جهاده للكافرين، ولذلك أخبر الله ـ عز وجل ـ في القرآن، أن من صفات القوم الذين يحبهم ويحبونه، كونهم أعزة على الكافرين، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1].

(١) سورة المائدة: ٥٤

فأخبر الله تعالى أن من صفات هؤلاء المحبوبين عنده كونهم يعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم، والغلظة لهم، كما قال جل شأنه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]، يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ في كتابه (جامع العلوم والحكم)[2]: «فإن تمام المحبة، مجاهدة أعداء المحبوب».

فهذه الصفة التي اتصف بها البراء ـ رضي الله عنه ـ وهي امتثاله أمر الله ـ تعالى ـ بمقاومة أعداء الله ـ تعالى ـ وجهادهم، وإظهار الشجاعة والإقدام عند مواجهتهم، والشدة عليهم، هذه الصفة، كانت والله أعلم من أسباب محبة الله ـ عز وجل ـ له، حتى كان من آثار هذه المحبة، أنه لو أقسم على الله ـ تعالى ـ لأبره، وهذا ما قد فطن له المسلمون يوم فتح تُسْتَر؛ لما اشتد الكرب والبلاء عليهم، طلبوا من البراء أن يقسم على ربه أن يهزم الكافرين، فقال: «اللهم اهزمهم لنا»، فاستجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه فهزم الكافرين.

فتبين من خلال ما تقدم أن الإيمان القوي الذي توصل إليه طاعة الله ـ تعالى ـ ورسوله ـ ﷺ ـ سبب لإجابة دعاء العبد، وإعاذته مما استعاذ منه، كما ثبت ما يدل على ذلك في كتاب الرقاق من صحيح البخاري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه**».

(١) سورة الفتح: ٢٩.
(٢) ص٣١٧.

ب ـ ومن مناقب البراء كذلك الشجاعة النادرة التي اتصف بها، كما مثلنا لذلك في موطن متقدم، ومنه ما فعله ـ رضي الله عنه ـ في المعركة التي استشهد فيها لما قتل مائة فارس، وذلك ينبىء بأمر عظيم يتعلق بجناب التوحيد، وهو صدق التوكل على الله ـ تعالى ـ وتفويض الأمر كله إليه، فإن أبرز سبب لتلك الشجاعة التي اتصف بها البراء ـ رضي الله عنه ـ هو ذلك اليقين بالله عز وجل، والاعتقاد الجازم أنه لا يحصل له إلا ما كتبه الله ـ تعالىٰ ـ عليه، ولو اجتمعت عليه قوىٰ الأرض جميعًا، كما ثبت في سنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت خلف النبي ﷺ: يومًا فقال «**يا غلام إني أعلمك كلمات**»، وكان من تلك الكلمات قوله ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فهذه هي صفة المؤمن الصادق كالبراء ـ رضي الله عنه ـ، وهذا بخلاف المنافق، فإنه جبان، يظن أن التخلف عن المعركة سبب لرد الموت عنه؛ لأنه غير واثق بقدر الله ـ عز وجل ـ، وأنه لن يأتيه إلا ماكتبه الله له، ولذا قال سبحانه في شأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.(١)

وبذلك يتقرر جليًا أن الموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان، ولا يرده حرص ولا حذر، ولا يؤجله جبن ولا قعود. والواقع هو

(١) سورة آل عمران: ١٦٨.

البرهان الذي لا يقبل المراء، وهذا الواقع هو الذي يواجههم به القرآن، فيرد كيدهم اللئيم، ويضع الحق في نصابه، ويثبت قلوب المسلمين، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين.

ج ـ ومن مناقب البراء كذلك، أنه لما ظن أنه سيقتل في سبيل الله ـ تعالى ـ وقع ذلك كما ظنه، حيث قتل في معركة تستر كما تقدم، وتحقق قوله لأخيه أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ كما رواه الإمام البغوي بإسناد صحيح: «أترهب أن أموت على فراشي، لا والله ما كان الله لِيَحْرِمَنِي ذلك، وقد قتلت مائة منفردًا، سوى من شاركت فيه».

وفي ذلك دلالة واضحة على قوة إيمانه، وصدق توكله على الله ـ عز وجل ـ، وعظيم ثقته بربه ـ تبارك وتعالى ـ، وكثرة لجوئه إليه؛ فإنه لما طلب منه المسلمون أن يدعو لهم بالنصر، فعل ذلك، وأضاف قوله: «واستشهدني»، فاستجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه، وأكرمه بالشهادة.

ودعاؤه هذا فيه بيان واضح بزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة؛ إذ لو كان يريد الدنيا وزينتها لدعا أن يمتع بأموال الكافرين، والغنائم التي تسلب منهم، لكنه ـ رضي الله عنه ـ آثر ما يبقى على ما يفنى، وذلك خير له وأبقى، لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1]، ويقول: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2]، ويقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[3]، جعلنا الله ـ تعالى ـ من أهل الآخرة، العاملين لها، المؤثرين لما فيها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٩.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٣) سورة الأعلى: (١٦، ١٧).

٢ـ جواز اللجوء إلى الصالحين أيام الشدائد بطلب دعائهم، كما فعل المسلمون يوم تُسْتَر، لما طلبوا من البراء بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن يقسم على ربه من أجل نصرهم، وسحق الكافرين، فاستجاب لهم، فقال: «اللهم اهزمهم لنا»، فاستجاب الله ـ عز وجل ـ دعاءه، فهزم أعداءهم الكافرين، وفي ذلك إشارة إلى اليقين الذي كان عند المؤمنين بصدق النبي ﷺ يوم قال: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم: البراء بن مالك**».

٣ـ أن مكانة العبد في الإسلام ليست على شكله، وجمال مظهره، وإنما مكانته عند الله ـ تعالى ـ على حسب قوة إيمانه، وعمله لدينه، وقد يكون في الناس لا يؤبه له لشدة فقره، أو دمامة خِلقته، فيزدريه الناس، ولا يهتمون به، ولا ينظرون إليه، لكنه بسبب قوة إيمانه، وإقباله على ربه، وزهده في الدنيا، وتطلعه إلى الآخرة، ينال محبة الله ـ عز وجل ـ ورضاه، وماذا يريد المرء أكثر من محبة الله ـ تعالى ـ ورضاه؟ وهو إذا لجأ إلى ربه بالدعاء فإن الله ـ تعالى ـ يستجيب دعاءه، كما استجاب دعاء البراء يوم دعا الله ـ عز وجل ـ صادقًا أن ينصر المسلمين، ويجعله شهيدًا، فاستجاب له، فهزم أعداءهم، وأكرمه بالشهادة، وهو الذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له**...».

وذلك ما يدعو كل مسلم أن يكون عمله لدينه، وإخلاصه لربه، أهم شيء لديه حتى لو سخط الناس عليه، أو احتقروه، فإن ذلك لا يضره ما دام قلبه صادقًا، وعمله لله ـ تعالى ـ خالصًا، لأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

(١) الحجرات: ١٣.

وأخرج الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وثبت في صحيح البخاري من حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: «مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**»فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع. فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**»فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**».

ولابد أن يعلم هاهنا أن المرء الصالح، إذا لم يكن على تلك المكانة في الدنيا، فإن ذلك لا يعني السماح باحتقاره وازدرائه؛ بل هذا محرم، وصاحبه متوعد بالحرب من قبل الله ـ عز وجل ـ كماتقدم معنا في الحديث القدسي أن الله ـ تعالى ـ يقول: «**من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب**».

جعلنا الله ـ تعالى ـ من أوليائه المفلحين، وجنبنا صفات الضالين والمنحرفين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الشهيد رافع بن خديج رضي الله عنه

أيها الإخوة:

تاريخ الإسلام، وتاريخ أصحاب محمد ﷺ أعظم تاريخ عرفته البشرية إلى اليوم، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، فهم الرجال الأوفياء الذين حملوا نور الإسلام والقرآن في قلوبهم، وأروه الناس من خلال سلوكهم وأخلاقهم، ولأجل هذه العظمة التي كانت واضحة في تاريخهم كوضوح الشمس في رابعة النهار، سعى أعداء الملة والدين من مستشرقين وغيرهم إلى تشويه تاريخهم، ووصف معارك الجهاد التي قاموا بها، وتمنى كل واحد منهم أن يكون أول شهيد فيها، بأنها كانت لأجل جمع الأموال، وسفك الدماء، وإرواء غليل الشهوات، والذي دعاهم إلى ذلك كله الحقد والغيظ من اعتزاز المسلم بإسلامه وإيمانه، وحتى يأخذ أبناء الإسلام أخلاقهم من أتباع هؤلاء الحاقدين من سَفَلَة وساقطين.

إلا إنه الحسد القَتّال، والمكر الكُبار، واتباع الهوى المردي: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾[1].

وإنَّ ما ذكرته من قصص استشهاد بعض أولئك الرجال الأفذاذ في لقاءات سابقة، وما بينته من حرصهم على نيل الشهادة، لهو أعظم دليل، وأصدق برهان يدمغ به باطل هؤلاء الحاقدين: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا

(١) القصص: (٥٠).

﴿هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[1].

ومن كان مغترًا بكلام أولئك الأعداء الحاقدين، فليستمع إلى كلام الصحابي الجليل عُبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وهو يفصح عن هدفه وهدف أصحابه من الجهاد، وذلك يوم لقي المقوقس عظيم مصر، فقال له: «وإني بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي؛ لأن رغبتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوًّا لله لرغبة في الدنيا.. وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب، أم كان لا يملك درهمًا؛ لأن غاية أمرنا من الدنيا أُكْلَةٌ يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملةٌ يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان لأحدنا قنطار من ذهب، أنفقه في طاعة الله تعالى واقتصر على هذا الذي بيده.

ولمّا قال له المقوقس: «وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم مَن لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لم تَقْوَوْا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم»

فأجابه عبادة بقوله: «يا هذا لا تغرنَّ نفسك ولا أصحابك، أمّا ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنَّا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه. وما منَّا رجل إلا ويدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألاّ يرده إلى بلده ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلّفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله، وولده، وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك: إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع

(١) الأنبياء: (١٨).

السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد، فبينه لنا. .»

فانظر ـ يا رعاك الله ـ كيف يقاوم سلاحُ الإيمان، ونورُ البصيرة ظلمات البغي والظلم، وتأمل كيف تحطم عزة المؤمنين العاملين ليوم الدين كبرياء المتخمين بالشهوات الدونية، والمنافع الدنيوية البائدة.

ولنعد مرة أخرى إلى شبهة أولئك الحاقدين لندمغها بقصة شهيد من شهداء هذا الدين، يوم آثر الآخرة على الدنيا بطلب الشهادة.

فمن هو هذا الصحابي الشهيد، وما تفصيل العمل الذي قدمه حتى نال هذا الشرف العظيم؟.

إنه رافع بن خديج بن عدي بن يزيد، الأنصاري الخزرجي المدني، صاحب النبي ﷺ.

عرض على النبي ﷺ يوم بدر، فاستصغره، وأجازه يوم أحد، فخرج بها، وشهد ما بعدها، وروى عن النبي ﷺ، وعن عمه ظهير بن رافع، وروى عنه ابنه عبد الرحمن، وحفيده عباية بن رفاعة، والسائب بن يزيد، ومحمود بن لبيد، وسعيد بن المسيب، ونافع بن جبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو النجاشي مولى رافع، وسليمان بن يسار، وآخرون[١].

قال الذهبي: «وكان صحراويًا، عالمًا بالمزارعة، والمساقاة»[٢].

وقد استوطن ـ رضي الله عنه ـ المدينة إلى أن انتقضت جراحة به، كانت قد أصابته يوم أحد أو خيبر ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ فمات ـ رضي الله عنه ـ شهيدًا

(١) الإصابة (١/ ٤٩٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٢).

في أول سنة ثلاث وسبعين، وهو ابن ست وثمانين سنة.

أخرج الطبراني في معجمه الكبير وأحمد في المسند عن امرأة رافع بن خديج أن رافعًا رُمي مع رسول الله ﷺ يوم أحد أو خيبر بسهم في ثندوته ـ أي ثديه ـ فأتى رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله، انزع السهم، فقال: «**يا رافع، إن شئت نزعت السهم والقُطْبَة جميعًا، وإن شئت نزعت السهم وتركت القطبة** ـ يعني نصل السهم ـ **وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد**». قال: فنزع رسول الله ﷺ السهم وترك القطبة، فعاش بها، حتى كان في خلافة معاوية فانتقض به الجرح، فمات بعد العصر...» الحديث.

قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون بين الانتقاض والموت مدة»[1] انتهى.

وقد شهد جنازته ـ رضي الله عنه ـ عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ وصلّى عليه، قال ابن حجر: «وقد ثبت أن ابن عمر صلى عليه..». وقال كذلك: «فإنه ثبت أن ابن عمر شهد جنازته.. قال أبو نصرة: خرجت جنازة رافع بن خديج، وفي القوم ابن عمر، فخرج نسوة يصرخن، فقال ابن عمر: «اسكتن فإنه شيخ كبير لا طاقة له بعذاب الله»[2].

وقال بشر بن حرب: «كنت في جنازة رافع بن خديج، ونسوة يبكين ويولولن على رافع، فقال ابن عمر: «إن رافعًا شيخ كبير لا طاقة له بعذاب الله، وإن رسول الله ﷺ قال: «**الميت يعذب ببكاء أهله عليه**» وقوله: إن رسول الله ﷺ، قال: «**الميت يعذب ببكاء أهله عليه**» مخرج في الصحيحين.

وأخرج الحاكم في المستدرك عن يوسف بن ماهَكَ قال: رأيت ابن عمر

(١) الإصابة (١/ ٤٩٦).
(٢) الإصابة (١/ ٤٩٦).

أخذ بعمُودَي جنازة رافع بن خديج، فجعله على منكبه، يمشي بين يدي السرير، حتى انتهى إلى القبر، وقال: «إن الميت يعذَّب ببكاء الحي».

والمتأمل في قصة استشهاد رافع ـ رضي الله عنه ـ يقف على معجزة من معجزات النبي ﷺ حيث أخبر رافعًا أنه سيشهد له يوم القيامة أنه شهيد، فمات شهيدًا بعد عشرات السنين من إخباره ﷺ بذلك، متأثرًا بذلك الجرح الذي أصابه.

وفيها كذلك دلالة واضحة على إيثار رافع ـ رضي الله عنه ـ الآخرة على الدنيا وشهواتها، وذلك يوم خيره رسول الله ﷺ بين نزع السهم والقُطبة، وبين نزع السهم وترك القطبة، فاختار الأمر الثاني حبًا منه ـ رضي الله عنه ـ للشهادة، كما تدل على ذلك رواية الإمام أحمد، حيث قال ـ رضي الله عنه ـ مجيبًا رسول الله ﷺ: «يا رسول الله، بل انزع السهم واترك القطبة، واشهد لي يوم القيامة أني شهيد»، وفي ذلك ردٌ صريح على كل طاعن في جهاد الصحابة كما تقدم آنفًا.

وفي هذه الحادثة كذلك منقبة جليلة من مناقب الصحابي الجليل عبد الله ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يوم عرف لأهل السابقة من الصحب الكرام فضلهم، فسعى لأجل ذلك في جنازة رافع، حتى صلى عليه، وحضر دفنه، ولم يكتف بذلك، بل نصح الأمة ووجهها يوم نهى عن البكاء على موت رافع ـ رضي الله عنه ـ لأن الميت يتأذى ببكاء أهله عليه.

فرضي الله عن ابن عمر الناصح لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، ورحم الله شهيد الإسلام رافع بن خديج، وجمعنا به وبسائر الصحب الكرام في جنات النعيم، إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

* * *

شهيد كربلاء

أيها المسلمون:

الحديث في هذا اللقاء عظيم جد عظيم، محزن أعظم ما يكون الحزن.

أما كونه عظيمًا فلأنه عن صحابي كبير من آل محمد ﷺ، وكيف لا يكون كبيرًا، ويكون الحديث عنه عظيمًا، وجده قدوة الخلق، وصفوة البشر، وإمام المجاهدين، ورسول رب العالمين، محمد بن عبد الله ﷺ!

أبوه: رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، شهيد الإسلام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فالمتحدث عنه شهيدٌ، ابن شهيد.

أمه: فاطمة الزهراء، بنت رسول الله ﷺ التي كان يحبها حبًا عظيمًا.

ذلكم هو الذي دعانا أن نقول: إن الحديث عن هذا الشهيد عظيم جد عظيم.

وأما كونه محزنًا أعظم ما يكون الحزن فلأن قتله كان ظلمًا وعدوانًا، كما سيتضح ذلك فيما بعدُ ـ إن شاء الله تعالى ـ.

فمن هو شهيد الإسلام هذا؟، وما هي مناقبه وفضائله؟، وما صفة قتله؟ وما الذي نستفيده من ذكرنا لحادثة استشهاده؟

ذلكم هو الإمام الشريف الكامل، سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا، ومحبوبه، أبو عبد الله، الحسين ابن أمير المؤمنين أبي الحسن، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، القرشي الهاشمي.

أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه، والترمذي في السنن،

والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، عن يَعلى العامري، قال رسول الله ﷺ: «**حسين سبط من الأسباط، من أحبني فليحب حسيناً**»، وفي لفظ: «**أحب الله من أحب حسيناً**».

وأخرج البخاري في كتاب فضائل الصحابة من صحيحه وغيُره، عن ابن أبي نُعْم قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن دم البعوض فقال: ممن أنت؟ فقال: من أهل العراق. قال: انظر إلى هذا يسألني عَنْ دم البعوض، وقد قَتَلُوا ابنَ رسول الله ﷺ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا**»

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «عاصر الحسين رسول الله ﷺ وصحبه إلى أن توفي وهو عنه راض، ولكنه كان صغيرًا، ثم كان الصديق يكرمه ويعظمه، وكذلك عمر وعثمان، وصحب أباه وروى عنه، ولم يزل في طاعة أبيه حتى قُتل، فلما استقرت الخلافة لمعاوية كان الحسين يتردد إليه مع أخيه الحسن، فيكرمهما معاوية إكرامًا زائدًا[1] ا. هـ.

وأخرج الخطيب في تاريخه عن عبيد بن حُنين عن الحسين قال: صعدت المنبر إلى عمر، فقلت: انزل عن منبر أبي، واذهب إلى منبر أبيك. فقال: إن أبي لم يكن له منبر! فأقعدني معه، فلما نزل، قال: أي بني! مَنْ عَلَّمك هذا؟ قلتُ: ما علَّمنيه أحد. قال: أي بُني! وهل أنبت على رؤوسنا الشَعْر إلا الله ثم أنتم! ووضع يده على رأسه، وقال: أَيْ بُني! لوَ جَعَلْتَ تأتينا وتغشانا.

قال الذهبي في السِّير: «إسناده صحيح»[2].

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٥٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٨٥).

إخوتي الكرام:

والأمر الذي يلفت نظر المتأمل لسيرة الحسين ـ رضي الله عنه ـ هو حادث استشهاده ـ رضي الله عنه ـ لما سار إلى العراق. وقد أُخبر النبي ﷺ به عن طريق الوحي، إذ أخرج أحمد بإسنادٍ رجاله رجال الصحيح ـ كما قال الهيثمي ـ عن عائشة أو أم سلمة أن النبي ﷺ، قال لإحداهما: «**لقد دخل عليَّ البيت مَلَكٌ لم يدخل عليَّ قبلها، قال: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء**».

وقد وقع الأمر كما أُخبر به النبي ﷺ، فقُتل الحسين بالعراق سنة إحدى وستين.

وهذا بيانٌ مختصر بمسير الحسين إلى العراق، ثم حادث مقتله، مأخوذ من كلام أئمة الإسلام لا كما يزعمه الكذابون:

يقول عمار الدهني: قلت لأبي جعفر الباقر: حدثني بقتل الحسين. فقال: مات معاوية، فأرسل الوليد بن عتبة والي المدينة إلى الحسين ليبايع، فقال: أَخِرني، ورفق به، فأخره، فخرج إلى مكة، فأتاه رسل أهل الكوفة وعليها النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ، فبعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل، فقال: سر إلى الكوفة، فانظر ما كتبوا به إليّ، فإن كان حقًا قدمت إليه.

فخرج مسلم حتى أتى المدينة، فأخذ منها دليلين، وسار، فعطشوا في البرية، فمات أحد الدليلين، فقدم مسلم الكوفة، فنزل على رجل يقال له عوسجة، فلما علم أهل الكوفة بقدومه دَنَوا إليه، فبايعه منهم اثنا عشر ألفًا.

فقام رجل ممن يهوى يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشير، فقال: إنك ضعيف أو مستضعف، قد فسد البلد، قال له النعمان: لأن أكون ضعيفًا في

طاعة الله أحبّ إليّ من أن أكون قويًا في معصيته، ما كنتُ لأهتك سِترًا.

فكتب الرجل بذلك إلى يزيد، فدعا يزيد مولى له يقال له سرحون، فاستشاره، فقال له: ليس للكوفة إلا عبيد الله بن زياد، وكان يزيد ساخطًا على عبيد الله، وكان قد همّ بعزله عن البصرة، فكتب إليه برضاه عنه، وأنه قد أضاف إليه الكوفة، وأمره أن يطلب مسلم بن عقيل، فإن ظفر به قتله.

فأقبل عبيد الله بن زياد في وجوه أهل البصرة حتى قدم الكوفة متلثمًا، فلا يمر على أحد فيسلم، إلا قال له أهل المجلس: عليك السلام يا ابن رسول الله ﷺ يظنونه الحسين بن علي قدم عليهم، فلما نزل عبيد الله القصر دعا مولى له، فدفع إليه ثلاثة آلاف درهم، فقال: اذهب حتى تسأل عن الرجل الذي يبايعه أهل الكوفة، فادخل عليه، وأعلمه أنك من حمص، وادفع إليه المال، وبايِعْه، فلم يزل المولى يتلطف حتى دَلُّوه على شيخ يلي البيعة، فذكر له أمره، فقال: لقد سرني إذ هداك الله، وساءني أن أمرنا لم يستحكم، ثم أدخله على مسلم بن عقيل، فبايعه، ودفع له المال، وخرج حتى أتى عبيد الله، فأخبره.

وتحول مسلم ـ حين قدم عبيد الله ـ من تلك الدار إلى دار أخرى، فأقام عند هانىء بن عروة المرادي، وكان عبيد الله قال لأهل الكوفة: ما بال هانيء بن عروة لم يأتني؟ فخرج إليه محمد بن الأشعث في أناس من وجوه أهل الكوفة، وهو على باب داره، فقالوا له: إن الأمير قد ذكرك، واستبطأك، فانطلق إليه.

فركب معهم حتى دخل على عبيد الله بن زياد وعنده شريح القاضي، فلما سلم عليه قال له: يا هانيء أين مسلم بن عقيل، فقال له: لا أدري، فأخرج له المولى الذي دفع الدراهم إلى مسلم، فلما رآه سقط في يده، وقال: أيها الأمير: والله ما دعوته إلى منزلي، ولكنه جاء فطرح نفسه عليّ، فقال: ائتني

به، فتلكأ، فضربه وسجنه.

وكان من خبر مسلم بن عقيل أن قُبض عليه من قبل محمد بن الأشعث، ثم أتى به عبيد الله بن زياد، فأمر به فأُصعد إلى القصر، ثم قتله، وقتل هانىء بن عروة، وصلبهما، فقال شاعرهم في ذلك أبياتًا منها:

فإن كنتِ لا تدرين ما الموت فانظري إلى هانىء في السوق وابن عقيل

ولم يبلغ الحسينَ ذلك، حتى كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، فلقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال له: ارجع، فإني لم أدعْ لك خلفي خيرًا، وأخبره الخبر، فهم أن يرجع وكان معه إخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل، فساروا.

وكان عبيد الله بن زياد والي الكوفة قد جهز الجيش لملاقاته، فوافوه بكربلاء، فنزلها ومعه خمسة وأربعون نفسًا من الفرسان، ونحو مائة راجل، فلقيه الحسين وأميرهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان عبيد الله ولاه الري، وكتب له بعهده عليها إذا رجع من حرب الحسين، فلما التقيا قال له الحسين: «اختر مني إحدى ثلاث؛ إما أن ألحق بثغر من الثغور، وإما أن أرجع إلى المدينة، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية، فقبل ذلك عمر منه، وكتب به إلى عبيد الله، فكتب إليه: «لا أقبل منه حتى يضع يده في يدي»، فامتنع الحسين، فقاتلوه، فقُتل معه أصحابه، وفيهم سبعة عشر شابًا من أهل بيته.

ثم كان آخر ذلك أن قُتل وأُتي برأسه إلى عبيد الله، فأرسله ومن بقي من أهل بيته إلى يزيد، ومنهم علي بن الحسين كان مريضًا، ومنهم عمته زينب، فلما

قدموا على يزيد أدخلهم على عياله ثم جهزهم إلى المدينة[١].

وكان مقتله ـ رضي الله عنه ـ يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين.

قال ابن حجر: وكذا قال الجمهور، وشذ من قال غير ذلك[٢].

(١) الإصابة (١/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٣٥).

وقفات متأنية مع قصة قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ

ما تقدم معنا من قصة قتل الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ يستدعي الوقوف بتأنٍ على ملابسات الحادثة، والكشف عن السبب الذي من أجله قتل الحسين، ثم الحال المردية التي صار إليها قاتلوه، والقول الحق العدل في شأن يزيد بن معاوية، والدروس والعبر التي يستفيدها المتأمل والناظر في قصة مقتله ـ رضي الله عنه ـ وهذا ما سأبينه في النقاط التالية:

١ ـ لقد أُخبر النبي ﷺ كما تقدم معنا عن طريق الوحي أن الحسين ـ رضي الله عنه ـ سيقتل، وقد وقع الأمر كذلك بعد مضي سنين طويلة، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ الدالة على نبوته، وأنه رسول الله حقًا وصدقًا، وقد عرف ذلك عدد من الصحابة، فنهوا الحسين عن المسير إلى العراق.

جاء في تهذيب ابن عساكر عن الشعبي قال: كان ابن عمر قدم المدينة، فأُخبر أن الحسين قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ليلتين، فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم. قال: هذه كتبهم وبيعتهم، فلم يزل ابن عمرُ ينهاه عن مواصلة المسير وهو يأبى، فلما رأى إصراره على المضي، اعتنقه وقال: أستودعك الله من قتيل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وكان أهل الرأي والمحبة للحسين كابن عباس وابن عمر وغيرهما، أشاروا عليه بألاَّ يذهب إليهم، ولا يقبل منهم، ورأوا أن خروجه إليهم ليس بمصلحة، ولا يترتب عليه ما يسر،

وكان الأمر كما قالوا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا»[١].

٢ ـ وأما قاتلو الحسين ـ رضي الله عنه ـ فإنهم عبيد الله بن زياد الذي كان والي الكوفة والبصرة، وجماعته، وقد كان السبب من وراء قتلهم الحسين الظلم والعدوان ـ نعوذ بالله ـ تعالى ـ منه ـ؛ ذلكم أن الحسين لما خرج ورأى أن الأمور قد تغيرت، طلب منهم أن يدعوه يرجع، أو يلحق ببعض الثغور، أو يلحق بابن عمه يزيد، فمنعوه هذا وهذا حتى يستأسر، وقاتلوه، فقاتلهم، فقتلوه وطائفة ممن معه ـ كما تقدم ـ، مظلومًا شهيدًا شهادة أكرمه الله تعالى بها، وألحقه بأهل بيته الطيبين الطاهرين، وأهان بها من ظلمه واعتدى عليه، وأوجب ذلك شرًا بين الناس[٢].

وبذلك يُعلم جيدًا أن ما يعتقده بعض الناس من أن الحسين إنما جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها، وليخلع مَنْ بايعه من الناس واجتمعوا عليه، ليعلمْ أن هذا الظن باطل من القول وزور، وظلم.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد ذكره هذا الاتهام والافتراء: «وقد ورد في صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك، والتحذير منه، والتوعد عليه»[٣] ا. هـ

ولقد صح عن إبراهيم النخعي أنه كان يقول: «لو كنت فيمن قاتل الحسين ثم أُدخلت الجنة لاستحييت أن أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ»[٤].

٣ ـ ولئن كان قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ عظيمًا، وشرًا كبيرًا، فإنه بالنسبة له خير وإكرام، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فلما قُتل

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠٧).
(٢) المرجع السابق.
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٤).
(٤) «الإصابة» (١/ ٣٣٥).

الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ يوم عاشوراء، قتلته الطائفة الظالمة الباغية، وأكرم الله ـ تعالى ـ الحسين بالشهادة، كما أكرم بها مَنْ أكرم من أهل بيته. أَكرمَ بها حمزة وجعفرًا، وأباه عليًا، وغيرهم، وكانت شهادته مما رفع الله بها منزلته وأعلى درجته، فإنه هو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة، والمنازلُ العالية لا تنال إلا بالبلاء، كما قال النبي ﷺ لما سئل: أي الناس أشد بلاء؟، فقال: «**الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**» رواه الترمذي وغيره.

فكان الحسن والحسين قد سبق لهما من الله ـ تعالى ـ ما سبق، من المنزلة العالية، ولم يكن قد حصل لهما من البلاء ما حصل لسلفهما الطيب، فإنهما وُلِدا في عز الإسلام، وتربيا في عز وكرامة، والمسلمون يعظمونهما، ويكرمونهما، ومات النبي ﷺ ولم يستكملا سن التمييز، فكانت نعمة الله عليهما أن ابتلاهما بما يُلحقهما بأهل بيتهما، كما ابتلى مَنْ كان أفضل منهما، فإنَّ علي بن أبي طالب أفضل منهما، وقد قُتل شهيدًا»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ كذلك: «والحسين ـ رضي الله عنه ـ أكرمه الله تعالى بالشهادة في هذا اليوم ـ يعني يوم عاشوراء ـ وأهان بذلك مَنْ قتله، أو أعان على قتله؛ أو رضي بقتله، وله أسوة حسنة بمن سبقه من الشهداء، فإنه وأخوه سيدا شباب أهل الجنة، وكانا قد تربيا في عز الإسلام، لم ينالا من الهجرة والجهاد والصبر على الأذى في الله ما ناله أهل بيته، فأكرمهما الله تعالى بالشهادة تكميلاً

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

لكرامتهما، ورفعًا لدرجاتهما»[١].

٤ ـ إن من علامات المؤمنين الصادقين الحزنَ عند فقد الصالحين، والتأثر لموتهم، خاصة لمن قتل منهم ظلمًا وعدوانًا كالحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ. فقد آلم هذا الحدث الدامي قلوب المسلمين، وأقلقهم، حتى قامت زينب بنت عقيل بن أبي طالب ترثي الحسين، وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم؟
بعترتي وبأنصاري وذريتي ... منهم أُسارى وقَتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

فقال أبو الأسود الدؤلي:

أقول وزادني حنقًا وغيظًا ... أزال الله ملك بني زياد
وأبعدهم كما بَعدُوا وخانوا ... كما بَعُدت ثمود وقوم عاد
ولا رجعت ركائبهم إليهم ... إذا قُفت إلى يوم التنادي[٢]

وقال سليمان بن قتة التيمي الذي عرض القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات:

وإن قتيل الطَّفِّ من آل هاشم ... أذل رِقَابًا من قريش فذلَّتِ
فإن يتبعوه عائذ البيت يصبحوا ... كعادٍ تعمت عن هُداها فَضَلَّتِ
مررت على أبيات آل محمد ... فألفيتُها أمثالها حين حَلَّتِ
وكانوا لنا غُنْمًا فعادوا رزيةً ... لقد عظمت تلك الرزايا وَجَلّتِ
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمِي تَخَلَّتِ
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لفقد حسينٍ والبلادُ اقشعرت[٣]

(١) المرجع السابق (٤/ ٥١١).
(٢) «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢٢).
(٣) السير (٣/ ٣١٩).

والمقصود الذي يراد بيانه هنا أن المسلم ينبغي أن يتأثر ويتألم لمقتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ لكن ذلك يكون باقتصاد، ولا يبالغ فيه كما يفعله بعض الناس من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء، وقد كان أبوه أفضل منه فقتل، وهم لا يتخذون مقتله مأتمًا كيوم مقتل الحسين، فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وكذلك عثمان كان أفضل من علي عند أهل السنة والجماعة، وقد قتل وهو محصور في داره في أيام التشريق من شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقد ذُبح من الوريد إلى الوريد، ولم يتخذ الناس يوم مقتله مأتمًا، وكذلك عمر بن الخطاب، وهو أفضل من عثمان وعلي، قُتل وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر ويقرأ القرآن، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتمًا، وكذلك الصديق كان أفضل منه، ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتمًا، ورسول الله ﷺ سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله، ولم يتخذ أحد يوم موتهم مأتمًا يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين.

ولا ذكر أحد أنه ظهر يوم موتهم وقبلهم شيء مما ادعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين.. مثل كسوف الشمس، والحمرة التي تطلع في السماء وغير ذلك»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وإذا كان الله ـ تعالى ـ قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان،

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٥).

فكان ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغي، من اتخاذ يوم عاشوراء مأتمًا، وما يصنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سب السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن في الدنيا.

ولم يعرف طوائف الإسلام أكثر كذبًا وفتنًا ومعاونة للكفار على أهل الإسلام، من هذه الطائفة الضالة الغاوية، فإنهم شر من الخوارج المارقين.

وأولئك قال فيهم النبي ﷺ: «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان**». وهؤلاء يعاونون اليهود والنصارى والمشركين على أهل بيت النبي ﷺ وأمته المؤمنين، كما أعانوا المشركين من الترك والتتار على ما فعلوه ببغداد وغيرها، بأهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ولد العباس، وغيرهم من أهل البيت والمؤمنين، من القتل والسبي وخراب الديار. وشر هؤلاء وضررهم على أهل الإسلام لا يحصيه الرجل الفصيح في الكلام.

فعارض هؤلاء قوم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء، كالاكتحال والاختضاب، وتوسيع النفقات على العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة، ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم.

فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسمًا كمواسم الأعياد والموسم، وأولئك يتخذونه مأتمًا يقيمون فيه الأحزان والأتراح، وكلا الطائفتين مخطئة خارجة عن السنة، وإن كان أولئك أسوأ قصدًا وأعظم جهلاً، وأظهر ظلمًا،

لكن الله أمر بالعدل والإحسان، وقد قال النبي ﷺ: «**إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**».

ولم يسن رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون في يوم عاشوراء شيئًا من هذه الأمور، لا شعائر الحزن والترح، ولا شعائر السرور والفرح. ولكنه ﷺ لما قدم المدينة وجد اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا؟**» فقالوا: هذا يوم نجّا الله فيه موسى من الغرق، فنحن نصومه، فقال: «**نحن أحق بموسى منكم**». فصامه وأمر بصيامه، وكانت قريش أيضًا تعظمه في الجاهلية.[1] ا.هـ

ومن هنا نخلص إلى أن المرء ينبغي له أن يحزن ويسترجع إذا تذكر المصيبة التي حلت بالمسلمين يوم قتل الحسين، لكن ذلك يكون باقتصاد، أي في حدود الشرع، فلا يتجاوز ذلك إلى فعل ما هو حرام وابتداع في دين الله ـ عزوجل ـ كالذي يفعله أولئك المارقون من لطم الخدود وشق الجيوب، ونحو ذلك.

٥ـ ومما ينبغي الوقوف عنده مما تقدم معنا في قصة قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ العلم بأن الظلم ظلمات يوم القيامة، وسبب لنزول العذاب في الدنيا، يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وأما ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله ـ يعني الحسين ـ فأكثرها صحيح، فإنه قلّ من نجا من أولئك الذين قتلوه، من آفة وعاهة في الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض،

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥/٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١).

وأكثرهم أصابهم الجنون»[١] ا. هـ

وأخرج الطبراني في معجمه الكبير بإسناد رجاله رجال الصحيح، عن قرة ابن خالد قال: سمعت أبا رجاء العطاردي، قال: كان لنا جار من بلهجيم، فقدم الكوفة، فقال: ما ترون هذا الفاسق ابن الفاسق قتله الله ـ يعني الحسين رضي الله عنه ـ فرماه الله بكوكبين من السماء، فطمس بصره.

ونقل الذهبي في سير أعلام نبلائه عن عطاء بن مسلم الحلبي، قال: قال: السدي: أتيت كربلاء تاجرًا، فعمل لنا شيخ من طيىء طعامًا، فتعشينا عنده، فذكرنا قتل الحسين، فقلت: ما شارك أحد في قتله إلا مات ميتة سوء. فقال: ما أكذبكم، أنا ممن شرك في ذلك، فلم نبرح حتى دنا من السراج وهو يتقد بنفط، فذهب يُخرج الفتيلة بأصبعه، فأخذت النار فيها، فذهب يطفئها بريقه، فعلقت النار في لحيته، فعدا، فألقى نفسه في الماء، فرأيته كأنه حممة.

ونقل الذهبي كذلك عن ابن عُيينة، قال: حدثتني جدتي أم أبي، قالت: أدركت رجلين، ممن شهد قتل الحسين، فأما أحدهما، فطال ذكرُه حتى كان يلُفه، وأما الآخر فكان يستقبل الراوية فيشربها كلها».

ونحن لا نعجب من هذه الأحداث، فإن الظلم ينتهي بصاحبه إلى حيث لا يتوقع، ويأتيه العقاب ولو بعد حين، نعوذ بالله تعالى من الظلم وأهله، ونسأله أن يحمينا والمسلمين جميعًا من عاقبته، ويبصرنا بأسبابه، ويبعد عنا شرره وآلامه.

٦ ـ لقائل أن يقول: ما القول الصواب، والحكم العدل، في شأن عبيد الله ابن زياد قاتل معاوية، ويزيد بن معاوية ملك المسلمين الذي قتل

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٥).

الحسين في أثناء ملكه؟

قيل: الجواب:

أما عبيد الله بن زياد فالقول الحق فيه كما يقول الذهبي أنه كان واليًا ظالمًا، قبيح السريرة، وهو الذي دخل عليه ـ كما في كتاب الإمارة من صحيح مسلم ـ عائذ بن عمرو المزني، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لعبيد الله: أَيْ بني: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن شر الرِّعاء الحُطمة**» **فإياك أن تكون منهم**، فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ، فقال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم»، والنُخالة: ما بقي في المنخل مما ينخل.

قال الذهبي: وقد جرت لعبيد الله خطوب، وأبغضه المسلمون لِمَا فعل بالحسين ـ رضي الله عنه ـ فلما جاء نعي يزيد، هرب بعد أن كاد يؤسر، واخترق البرية إلى الشام، وانضم إلى مروان، ثم سار في جيش كثيف، وعمل المصاف برأس عين.

وقد جهزه مروان إلى العراق، فالتقاه شيعة الحسين، فَغُلبوا، وكان مع عُبيد الله: حصين بن نمير السَّكوني، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وأدهم الباهلي، وربيعة بن مخارق، وحميلة الخثعمي، وقومهم.

قال الذهبي: وكانت ملحمة مشهودة، فتوثب المختار الكذاب بالكوفة، وجهز إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله في ثمانية آلاف، فالتقوا في أول سنة سبع وستين بالخازِر، كبسهم ابن الأشتر سحرًا، والتحم الحرب، وقتل خلق، فانهزم الشاميون، وقُتل عبيد الله مع جماعة معه، وبُعث برؤوسهم إلى مكة!

قال الذهبي: وصح من حديث عمارة بن عمير قال: جيء برأس عبيد الله ابن زياد وأصحابه، فأتيناهم وهم يقولون: قد جاءت، قد جاءت، فإذا حية تخلل الرؤوس حتى دخلت في منخر عبيد الله، فمكث هُنية، ثم خرجت، وغابت ثم قالوا: قد جاءت، قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا.

أخرجه الترمذي في كتاب المناقب من سننه، وقال: حسن صحيح، وتقدم تصحيح الذهبي له.

يقول الذهبي ـ رحمه الله ـ في نهاية ترجمة عُبيد الله: «قلت: الشيعي لا يطيب عيشه حتى يلعن هذا ودونه، ونحن نبغضهم في الله، ونبرأ منهم، ولا نلعنهم، وأمرهم إلى الله»[1] ا. هـ.

فهذا حال عُبيد الله بن زياد.

وأما يزيد بن معاوية فقد افترق الناس فيه إلى ثلاث فرق: طرفان ووسط: فأحد الطرفين قالوا: إنه كان كافرًا منافقًا، وأنه سعى في قتل سبط رسول الله ﷺ تشفيًا من رسول الله ﷺ، وانتقامًا منه، وأخذًا بثأر جده عتبة، وأخي جده شيبة وغيرهما.

والطرف الثاني يظنون أنه كان رجلاً صالحًا وإمامًا عادلاً، وأنه كان من الصحابة، وبعضهم ربما فضّله على أبي بكر وعمر، وربما جعله بعضهم نبيًا، وهذ قول غالية العدوية والأكراد ونحوهم من الضلال.

والقول الثالث: أنه كان ملكًا من ملوك المسلمين، له حسنات وسيئات، ولم يولد إلا في خلافة عثمان، ولم يكن كافرًا، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين ـ رضي الله عنه ـ وفعل ما فعل بأهل الحرة، ولم يكن صاحبًا،

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤٩).

ولا من أولياء الله الصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا قول عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة».

ثم افترقوا ثلاث فرق: فرقة لعنته، وفرقة أحبته، وفرقة لا تسبه ولا تحبه، وهذا هو المنصوص عن الإمام أحمد، وعليه المعتقدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: سألني. فيما سألني مقدم المغل بولاي، لما قدموا دمشق في الفتنة الكبيرة: ما تقولون في يزيد؟ فقلت: لا نسبه ولا نحبه، فإنه لم يكن رجلًا صالحًا فنحبه، ونحن لا نسب أحدًا من المسلمين بعينه، فقال: أفلا تلعنونه؟ أما كان ظالمًا؟ أما قتل الحسين؟ فقلت له: نحن إذا ذُكر الظالمون كالحجاج بن يوسف وأمثاله: نقول كما قال الله في القرآن: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾،[1] ولا نحب أن نلعن أحدًا بعينه، وقد لعنه قوم من العلماء، وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد، لكن ذلك القول أحب إلينا وأحسن.

وأمَّا مَنْ قتل الحسين، أو أعان على قتله أو رضي بذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً[2]. ا. هـ

وإن قال قائل: هل كان يزيد بن معاوية راضيًا بقتل الحسين؟، قيل: قد أجاب على ذلك ابن كثير في البداية والنهاية حيث قال: «وليس كل ذلك الجيش كان راضيًا بما وقع من قتله، بل ولا يزيد بن معاوية رضي بذلك والله

(١) سورة هود: (١٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٨٧).

أعلم، ولا كرهه، والذي يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه كما أوصاه بذلك أبوه، وكما صرح هو به مخبرًا عن نفسه بذلك. وقد لَعَنَ ابن زياد على فعله ذلك وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك، ولا عاقبه، ولا أرسل يعيب عليه ذلك، والله أعلم»[1]. ا. هـ

* * *

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ٢٠٤).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
السحرة الشهداء	١١
دروس وعبر	١٧
مؤمن آل ياسين	٢٣
شهيد المحراب	٣١
دروس وعبر	٣٧
دماء على المصحف	٤٧
دروس وعبر	٥٦
الشهيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٦٨
سيد الشهداء	٨٣
دروس وعبر	٨٨
ركب الشهداء	٩٢
طلحة بن عبيد الله	١٠١
لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي	١١٠
لا عذر لكم إن خلص إلى رسول الله ﷺ	١١٥
دروس وعبر	١٢٠
ظليل الملائكة	١٢٥

دروس وعبر وأحكام ١٣١
الشهيد المصلوب ١٤٢
دروس وعبر ١٤٦
غسيل الملائكة ١٦٠
شهداء بئر معونة ١٦٦
دروس وعبر ١٧٠
ليرين الله ما أصنع ١٧٩
دروس وعبر ١٨٤
لكني أفقد جليبيبًا ١٩٣
شيخ عزم على أن يطأ بعرجته في الجنة ١٩٨
قاهر أحفاد القردة والخنازير ٢٠٤
دروس وعبر ٢١٠
شهيد تستر ٢١٨
دروس وعبر ٢٢٧
الشهيد رافع بن خديج ٢٣٣
شهيد كربلاء ٢٣٨
وقفات مع قصة قتل الحسين -رضي الله عنه- ٢٤٤
الفهرس ٢٥٧

* * *

توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان

الرياض ١١٤٣١ – ص ب : ١٤٠٥

الرياض ٤٠٢٢٥٦٤ فاكس ٤٠٢٣٠٧٦ – جدة : ٦٥٤٩٣٢١

الدمام : ٨٤١٦٠٦٤ – القصيم : ٣٦٤٤٣٦٦ – المدينة : ٨٤٠١٦٩٣